

تفسير الفاسي
المسكت

مخازن التلاويك

تأليف علامه الشكام

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه وتصحيحه ، ورقه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(تادم الكتاب والسنة)

بمجددنا عبد الباقا

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّدَّبَرُواْ ۖ أَيْتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي المسكيني

مَحَاسِنُ التَّائِقَاتِ

تأليف علامة الشام
محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء العاشر

وفيه تفسير :

١٤ - سورة إبراهيم ، و ١٥ - سورة الحجر ، و ١٦ - سورة النحل ، و ١٧ - سورة الإسراء

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

عبد الرحمن بن عبد الله بن

عيسى الباني الحلبي وشركاه



كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأبير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإني لأوصي جميع الناشئة
الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً تراح إليه ضمائرهما ، وتنقذ عليه
خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء المدني
الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بركة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، في خزانته
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤ - سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

سمّيت به لاشتمالها على دعوات لإبراهيم عليه السلام ، تمت بهذه الملة . كاللحج وجعل
الكعبة قبلة الصلاة ، مع الدلالة على عظمتها ، بحيث صارت من المطالب المهمة للمتفق على
غاية كمال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعلى نبوة نبيّنا عليه أكل التحيات وأفضل التسليمات
مع غاية كماله ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ! أفاده المهايمي .
وهي مكية النزول ، قيل : إلّا قوله تعالى ^(١) « أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
كُفْرًا ... » الآيتين . وهي اثنتان وخمسون آية ،

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، كَتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

«الر كَتَبْ» خبر ل (الر) على كونه مبتدأ. أو خبر لمحذوف على كونه خبراً المضمور، أو مسروداً على نمط التعديد. وقوله تعالى : « أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ » صفة له « لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » أى : من الضلال إلى الهدى « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » أى : أمره . وقوله تعالى : « إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » بدل من قوله (إِلَى النُّورِ) بتكرير العامل . أو مستأنف ، كأنه قيل : إلى أى نور؟ فقيل : إِلَى صِرَاطٍ ... الخ . و (الْعَزِيزِ) الذى لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر القادر . و (الْحَمِيدِ) المحمود فى أمره ونهيه لإنعامه فيهما بأعظم النعم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

«اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» قرئ لفظ الجلالة بالرفع على الابتداء وخبره ما بعده . أو على الخبرية لمحذوف . وقرئ بالجر ، عطف بيان ل (الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) « وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ » أى : بما أنزلناه إليك « مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » يوم القيامة وهو عذاب النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

« الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ » أى : يؤثرونها عليها « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » بتعويق الناس عن الإيمان « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب ، أو يبعثون أهلها أن يعوجوا بالردة ، أو يبعثون لها اعوجاجًا ، أى يطلبون أن يروا فيها عوجًا قاذحًا ، على الحذف والإيصال « أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » أى : ضلوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل ، والبعد في الحقيقة للضال نفسه ، وصف به فعله للمبالغة ، يجعل الضلال نفسه ضالًا . وفى إثبات الظرف على (أولئك ضالون ضلالًا بعيدًا) دلالة على تمكّنهم فيه ، باشماله عليهم اشمال المحيط على المحاط ، مبالغة فى إثبات وصف الضلال . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَن يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » أى : ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا : لم نفهم ما خاطبنا به كما قال ^(١) (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) . (فإن قلت) : لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعاً (قلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) ^(٢) بل إلى الثقلين وهم على السنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة ، فلغيرهم الحجة .

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] .

وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالمعجمة لم تكن للعرب حجة أيضاً . (قالت) : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحدٍ منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتسكنى التطويل ؛ فبقي أن ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه . فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانها وتفهمها ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم ، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد ، واجتهادهم في تعلّم لفظه وتعلّم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه ، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف ، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها ، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحدٍ منها ، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها ، كما كلم أمته التي هو منها يتلوه عليهم معجزاً - لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء . ومعنى (بلسان قومه) بلغة قومه - كذا في (الكشاف) .

وقال بعض المحققين : يقول قائل : ألا تدل هذه الآية على أن بعثة النبي ﷺ كانت للعرب خاصة ؟ نقول : لا . لأنه جرت سنة الله أن يختار أمة واحدة ويُعدها تهذيب الأمم الأخرى . كما يعد فرداً واحداً منها تهذيب سائر أفرادها . ولما كانت الأمة العربية هي المختارة لتهذيب الأمم وتعديل عوجها وإقامة منار العدل في ذلك العالم المظلم - فقد وجب أن التهذيب الإلهي ينزل بلغتها خاصة حتى تستعد وتتهيأ لأداء وظيفتها . وقد أتم الله نعمته عليها ، فقامت بما عهد إليها بما أدهش العالم أجمع ، والله في خلقه شؤون اه .

تنبيه :

استدل بالآية مَنْ ذهب إلى أن اللغات اصطلاحية . قال : لأنها لو كانت توقيفية لم تعلم إلا بعد مجيئ الرسول ، والآية صريحة في علمها قبله .

وقوله تعالى : « فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ » أى لمباشرة أسبابه المؤدية إليه ، أو يخذله ولا يلطف به لعلمه أنه لا ينجع فيه الإلطاف . « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق . و (الفاء) فصيحة ، كأنه قيل : فبينوه ، فأضلَّ الله من شاء إضلاله وهدى من شاء . والحذف للإيذان بأن مسارعة كلِّ رسول إلى ما أمر به ، وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته ، أمر محقق غنى عن الذكر والبيان « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أى : فلا يغاب ، ولا يقضى إلّا بما فيه الحكمة .

ثم أشير إلى تفصيل ما أجمل فى قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ) بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ

بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى : أنذرهم بوقائمه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كقوم نوح ولوط . ومنه :

أيام العرب ، لحروبها وملاحمها ، لأنها تعظم بها الأيام . وقيل : أيامه نعمائه عليهم ، فتكون

الآية بعدها تفصيلاً لها . وقيل : هى أعم من النعماء والبلاء . والوجه الأول أولى ، فيما أراه ،

لاختصاص كل آية بمقام ، والتأسيس خير من التأكيد . وفى الالتفات من التكلم إلى الغيبة ،

بالإضافة إلى الاسم الجليل ، إيذان بفخامة شأنها . قال أبو بكر بن العربى : هذه الآية أصل

فى الوعظ المرقق للقلوب .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى : فى التذكير بها « لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى : يصبر

على بلائه ويشكر نعماءه . فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو أفاض عليهم من النعم ،

تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر . وقيل : أراد (لكلِّ مؤمنٍ) لأن الشكر

والصبر عنوان المؤمن . وتقديم (الصَّبَار) على (الشكور) لتقدم متعلق الصبر - أعنى الإيمان - على متعلق الشكر - أعنى النماء - وكون الشكر عاقبة الصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَمَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدُبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَمَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ» أى : يصفونكم إياه «وَيَدُبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ» أى : المولودين صغاراً «وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ» أى : يمعنونهن فى الحياة «وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» الإشارة إلى فعل آل فرعون . ونسبته إليه تعالى للخلق أو الإقدار والتمكين . قيل : كون قتل الأبناء ، ابتلاء ظاهر . وأما استحياء النساء ، وهن البنات أى استبقاؤهن ، فلائهم كانوا يستخدمونهن ويفرقون بينهن وبين الأزواج ، أو لأن بقاءهن دون البنين رزية فى نفسه كما قيل :

ومن أعظم الرُّزءِ فيما أرى بقاء البنات وموت البنين

ويجوز أن تكون الإشارة إلا الإنجاء من ذلك . و (البلاء) الابتلاء بالنعمة ، وهو بلاء عظيم .

قال الزمخشري : البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والحنة جميعاً ، قال تعالى ^(١) : (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) . وقال زهير :

* فأبلاها خير البلاء الذى يبلو *

انتهى .

ولذا جواز أن تكون الإشارة إلى جميع ما مر ، الشامل للنعمة والفقمة .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٥] .

لطيفة :

أشار أهل المعاني إلى نكتة مجيء (وَيَذَّبُحُونَ) هنا بالواو ، وفي سورة البقرة^(١) (يُذَّبِحُونَ) وفي الأعراف^(٢) (يُقَتِّلُونَ) بدونها . والقصة واحدة - بأنه حيث طرح الواو قصد تفسير العذاب وبيانه ، فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال . وحيث عطف - كما هنا - لم يقصد ذلك . والعذاب ، إن كان المراد منه الجنس ، فالتذبيح ، لكونه أشد أنواعه ، عطف عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أنه لشدة كونه ليس من ذلك الجنس . وإن كان المراد به غيره ، كاسترقاقهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة ، فهما متغايران والمحل محل العطف . وجوز أيضاً كون العطف هنا للتفسير وكأن التفسير - لكونه أوفى بالمراد وأظهر - بمنزلة المتغاير ، فلذا عطف .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ » أى : آذن وأعلم إعلاماً بليغاً - من جملة ما قال موسى لقومه « لَئِنْ شَكَرْتُمْ » أى : نعمه ، بصرفها إلى ما خلقت له . كالعقل إلى تصحيح الاعتقاد فيه واستعمال سائر النعم بمقتضاه « لَأَزِيدَنَّكُمْ » أى : من النعم « وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » فيصيبكم منه ما يسلب تلك النعم ويحل أشد النقم .

(١) [٢ / البقرة / ٤٩] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٤١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَسْكُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) « وَقَالَ مُوسَىٰ » أى : لقومه « إِن تَسْكُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » أى : غنى عن شكر عباده ، المحمود بأجل الحمد . وإن كفره من كفره . وهو تعليل لما حذف من جواب (إن) أى : إن تَكْفُرُوا لم يرجع وباله إلا عليكم . فإن الله لغنى عن شكر الشاكرين .

وفي (صحيح مسلم) ^(١) عن أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : أنه قال : « يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسأله ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر » ، فسبحانه من غنى حميد . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا عِمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ءَ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) « أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى مؤاخذه من كفر « نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ »

(١) أخرجه مسلم فى ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، ١٥ - باب تحريم الظلم ، حديث رقم ٥٥ (طبعتنا) من حديث طويل عظيم جداً ناقراه .

أى : مع كثرتهم « وَعَادٍ » أى مع غاية قوتهم « وَثَمُودَ » مع كثرة تحصنهم وصنائعهم « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ » .

قال ابن جرير^(١) : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعنى : وتذكاره بإيائهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل .

قال ابن كثير : وفيما قال ابن جرير نظر ؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ؛ فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه لقصته عليهم ، ولا شك حينئذ أن تكون هاتان القصتان في التوراة والله أعلم .

وقوله تعالى « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ » جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً ، أو عطف (الذين) على قوم نوح) ، و (لا يعلمهم . . .) الخ اعتراض ، ومعنى الاعتراض ، على الثانى : ألم يأتكم أنباء الجمل الغفير الذى لا يحصى كثرة فتمتروا بها؟ إن فى ذلك لمعتبراً . وعلى الأول ، فهو ترق ومعناه : ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى بعدهم؟ كأنه يقول : دع التفصيل فإنه لا مطمع فيه ، وفيه لطف لإيهام الجمع بين الإجمال والتفصيل .

وقوله تعالى : « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ » يحتمل الأيدى والأفواه أن يكونا الجارحتين المعروفتين ، وأن يكونا من مجاز الكلام . وفى الأول وجوه :

أى : ردوا أيديهم فى أفواههم فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل ، كقوله^(٢) : (عَضُّوا عَلَى كُمِ الْأَنَامِلِ مِنَ الْغَيْظِ) . أو وضعوها على أفواههم ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك . أو وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء : أن يكفوا ويسكتوا . أو أشاروا بأيديهم

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٧ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١١٩] .

إلى أفواه الرسل أن : اسكتوا . و (في) بمعنى (إلى) . أو وضعوا أيديهم على أفواه الرسل منعاً لهم من الكلام أو أنهم أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليقطعوا كلامهم . ومن بآلغ في منع غيره من الكلام ، فقد يفعل به ذلك . أو أشاروا بأيديهم إلى جوابهم وهو قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) أى : هذا جوابنا الذى نقوله بأفواهنا ، والمراد إشارتهم إلى كلامهم كما يقع فى كلام المتخاطبين ، أنهم يشيرون إلى أن هذا هو الجواب ثم يقررونه ، أو يقررون ثم يشيرون بأيديهم إلى أن هذا هو الجواب . قيل : وهو أقوى الوجوه المتقدمة . لأنهم لما حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، جمعوا فى الإنكار بين الفعل والقول . ولذا أتى بالفاء تنبيهاً على أنهم لم يعملوا ، بل عقبوا دعوتهم بالكذب . وفى تصديرهم الجملة (أن) ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك ، مبالغة فى التأكيد .

وفى الثانى - أعنى المعنى المجازى - وجوه :

قال أبو مسلم الأصفهاني : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج ، وذلك لأن إسماع الحجة إنعام عظيم ، والإنعام يسمى يداً ، يقال لفلان عندي يد إذا أولاه معروفاً ، وقد يذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد ، كقوله تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) . فالبيّنات التى كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعمٌ وأيادٍ ، وأيضاً اليهود التى كانوا يأتون بها مع القوم أبادٍ ؛ وجمع اليد فى العدد القليل هو الأيدي ، وفى العدد الكثير الأيادى . فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي . وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم ، فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت ؛ ونظير قوله تعالى ^(٢) : (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُولُونَ يَا أَفْوَهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ) ؛ فلما كان القبول تلقياً بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردّاً فى الأفواه . انتهى .

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

وفي (الرازي) تنمة الأوجه فانظرها إن شئت .

قال في (العناية) : فإن قلت : قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) جزم بالكفر لا سيما وقد أكد (إن) ، فقولهم (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ) ينافية . قلت : أجيب بأن الواو بمعنى أو ، أى أحد الأمرين لازم وهو : إنا كفرنا جزماً فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه . وأياً ما كان ، فلا سبيل إلى الإقرار . وقيل : إن الكفر عدم الإيمان عن هو من شأنه ، فكفرنا بمعنى لم نصدق ، وذلك لا ينافي الشك ، أو متعلق الكفر الكتب والشرائع ، ومتعلق الشك ما يدعوهم إليه من التوحيد مثلاً . انتهى .

أى : فلا ينافي شكهم في ذلك كفرهم القطعى بالأول .

وقوله تعالى « مُرِيبٌ » بمعنى موقع في الريبة ، من (أرابه) أوقعه فيها ؛ أو ذى ريبة ، من (أراب) : صار ذا ريبة وهى صفة مؤكدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)
« قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : وهو مما لا مجال للشك فيه لغاية ظهوره .

قال ابن كثير : هذا يحتمل معنيين : أحدهما : أى وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به . فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر فى الدليل الموصول إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه فطر السموات والأرض - أى الذى خلقهما وابتدعهما

على غير مثالٍ سبق - فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما . فلا بدّ لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه . والمعنى الثاني : أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له، شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقرّبهم من الله زلنى . انتهى .

وسبق لنا فى سورة الأعراف البحث فى أن معرفته تعالى ضرورية أو نظرية فارجع إليه .

وفى إدخال همزة الإنكار على الظرف إيذان بأن مدار الإنكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلاً ، وفى العدول عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا : (أَأَنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّهِ مِنَ اللَّهِ) مبالغة فى تنزيه ساحة جلاله عن شائبة الشك وتسجيل عليهم بسخافة القول .

وقوله تعالى : «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ» أى : يدعوكم إلى الإيمان بإرساله إيانا ، لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قواكم (مما تدعوننا إليه) . ولام (ليغفر) متعلقة بـ (يدعو) أى : لأجل المغفرة لا لفائدته ، تعالى وتقدس ، أول للتعديّة أى : يدعوكم إلى المغفرة : كقولك : دعوتك لزيد . و (من) إمّا تبعيضية أى : بعض ذنوبكم وهو ما بينهم وبين الله تعالى دون المظالم ، أو صلة ، على مذهب الأخفش وغيره ، من زيادتها فى الإيجاب ، أو للبدل أى : بدل عقوبة ذنوبكم ، أو على تضمين (يغفر) معنى (يخلص) .

وادعى الزغشرى مجيئه بـ (من) هكذا فى خطاب الكافرين دون المؤمنين فى جميع القرآن . قال : وكان ذلك للتفرقة بين الخطايين ، ولئلا يسوى بين الفريقين فى الميعاد . قال فى (الكشف) : وللتخصيص فائدة أخرى وهى التفرقة بين الخطايين بالتصريح

بمغفرة الكل وإبقاء البعض في حق الكفرة مسكوتاً عنه لثلاث يشكوا على الإيمان .
وقوله تعالى : « وَيُوْخِرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : يتمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل
مسمى « قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » أى : آية مما نقرحه تدل على فضلكم علينا بالنبوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ،
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ » أى : بالرسالة والنبوة « وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ »
أى : بأمره وإرادته ، وهو لم يرد ذلك ، لقوله (١) : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ
كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) .

« وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » قال الزمخشري : أمرهم منهم للمؤمنين كافة بالتوكل ،
وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً وأمرؤها به كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله
فى الصبر على معاندتهم وما يجرى علينا منهم . ألا ترى إلى قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ
مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ » ومعناه : وأى عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه

« وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا » أى : أرشدكلاً ممّا سبيله ومنهاجه الذى شرع له ، وأوجب عليه سلوكه فى الدين . وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل ، قالوا على سبيل التوكيد القسمى ، مظهرين لسكّال العزيمة : « وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا » أى : من الكلام السيئ والأفعال السخيفة . وقوله « وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » فيه اهتمام بالتوكل عليه سبحانه ، لأن مقام الدعوة يقتضيه . ولذا أعيد ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)

[١٤] (وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)
« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ » .

« وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ »
يخبر تعالى عما توعد به الكافرون رسلهم ، لما رأوهم صابرين متوكلين ، لا يهتمهم شأنهم من الإخراج من الأرض ، والنفي من بين أظهرهم ، أو العود فى ملتهم . والمعنى : ليكون أحد الأمرين .

والسبب فى هذا التوعد - كما قال الرازى - أن أهل الحق فى كل زمان يكونون قليلين ، وأهل الباطل يكونون كثيرين . والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين . فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة . فإن قيل : يتوهم من لفظ (العود) أنهم كانوا فى ملة الكفر قبل . أجب : بأن (عاد) بمعنى صار . وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، أو الكلام على ظنهم وزعمهم

أنهم كانوا من أهل ملتهم قبل إظهار الدعوة . أو الخطاب للرسول ولقومهم ، فغلبوا عليهم في نسبة العود إليهم .

وقوله تعالى : « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ . . . » الخ وعد صادق للرسول ، وبشارة حقة . كما قال تعالى ^(١) : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) وقال تعالى ^(٢) : (وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا) والآيات في ذلك كثيرة . والإشارة في (ذلك) إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين . وقوله (لِمَنْ خَافَ . . .) الخ أى : للمتقين لأنهم الموصوفون بما ذكر كقوله ^(٣) (وَالْعَقِيبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) . و (المقام) إما موقف الحساب ، فهو اسم مكان ، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه . أو مصدر ميمي ، بمعنى : حفظى وقيامى لأعمالهم ليجازوا عليها . أو مقحم للتفخيم والتعظيم كما يقال : المقام العالى . وياء المتكلم في (وعيد) محذوفة للاكتفاء بالكسرة عنها في غير الوقف .

قال السمين : أثبت الياء - هنا وفي (ق) في موضعين ^(٤) : (كُلُّ كَذَبٍ أُرْسِلَ فَحَقَّ وَعِيدِ) ^(٥) (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ أَنْ مَنَّ بِخَافٍ وَعِيدِ) - وصلاً ، وحذفها وقفاً - ورش عن نافع . وحذفها الباقيون وصلاً ووقفاً .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

«وَأَسْتَفْتَحُوا» أى : سألوا من الله الفتح على أعدائهم ، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٧١ - ١٧٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٢٨] و [٢٨ / القصص / ٨٣] .

(٤) [٥٠ / ق / ١٤] . (٥) [٥٠ / ق / ٤٥] .

من (الفتاحة) وهي الحكومة كقوله ^(١): (رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ)؛ فالضمير للرسل، وقيل: للكفرة، وقيل: للفرقيين. فإنهم سألوا أن ينصر الحق ويهلك المبطّل. وقوله: «وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» أي: فنصر واعنداستفتاحهم وأفلحوا (وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وهم قومهم. أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا. وإنما قيل: (وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) ذمًا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبر والعناد. أو استفتحوا جميعًا فنصر الرسل وأنجز لهم الوعد، وخاب أعداؤهم. و (الجبار) المتكبر على طاعة الله تعالى وعبادته. و (العنيد) المانء للحق، كخليط بمعنى مخالط.

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ)

«مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ» جملة في محل جر صفة لـ (جبار) كناية عن طلبها له وترصدها إياه، ومن تطلب شيئًا وترصده أدركه لا محالة. وقيل: على تقدير مضاف، أي: من وراء حياته وانقضاء عمره. «وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ» وهو ما يسيل من جوف أهل النار، قد خالط القيح والدم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)

«يَتَجَرَّعُهُ» أي: يتكاف تجرعه لقهره عليه «وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ» لخبثته «وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ» أي: تحيط به أسبابه من الأحوال، وما هو بمستريح مما نزل به «وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ» أي: شديد متصل لا ينقطع.

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩].

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ أُشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ

عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ)

«مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ أُشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ» المثل مستعار للصفة التي

فيها غرابة. شبه تعالى أعمالهم اللاتي كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها - كإتفاق الأموال

وعقر الإبل للضيغان ، في حبوطها - لكونها على غير تقوى وإيمان - برماد طيرته الريح

العاصف . وقوله تعالى (لَا يَقْدِرُونَ ...) الخ مستأنف فذلك للتمثيل بمعنى المقصود منه

ومحصل وجهه ، أى : لا يقدرّون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء منها ، أى

لا يرون له أثراً من ثواب ، كما لا يقدر ، من الرماد المطير في الريح ، على شيء .

قال أبو السعود : الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام، مع أن لها عقوبات

هائلة ، للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى . وفيه تهكم بهم .

وفي توصيف الضلال بالبعد ، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب .

(واشتد به) من (شد) بمعنى عدا والباء للتعدي أو للملابسة . أو من (الشدة) بمعنى

القوة أى : قويت بملابسة حمله . و (العصف) قوة هبوب الريح . وصف به زمانها على

الإسناد المجازي كـ (نهارة صائم) . وخبر (مثل) محذوف أى : فيما يتلى عليكم . وجملة

(أعمالهم كرماد) مستأنفة جواباً لسؤال : كيف مثلهم ؟ أو (أعمالهم) بدل من (مثل)

و (كرماد) الخبر .

وهذه الآية كقوله تعالى^(١) : (وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ حَبَآءً مَّنْثُورًا)

وقوله تعالى^(٢) : (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٣] . (٢) [٣ / آل عمران / ١١٧] .

حَرِثَ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) وقوله تعالى (١): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ وَرِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

[٢٠] (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والمراد به أمته . أو لكل أحد من الكفرة لقوله (يذهبكم) ، والرؤية رؤية القلب .

وفي الآية وجهان من التأويل : أحدهما أنها سبقت لبيان قدرته تعالى على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس . أى أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات ؛ وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبرارى وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها (٢) (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى (٣): (أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ)

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٤] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .

(٣) [٣٦ / يس / ٧٧-٨١] .

مِنْ تُطْفَةِ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

الوجه الثانى : ترهيب المشركين بأنهم غير معجزين ، أى : إن يشأ يهلككم إذا خالفتم أمره ، ويخلق قومًا خيرا منكم كقوله تعالى (١) : (وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) وقوله (٢) : (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا) .

وقوله تعالى : « بِالْحَقِّ » أى : بالحكمة المنزهة عن العبث كقوله (٣) : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَطْلًا) وقوله (٤) : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا) وقوله (٥) : (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) وذلك ليتفكر فى خلقها ويستدل بها على وجود بارئها وقدرته ووحدته .

ثم أخبر تعالى عن تخاصم المجرمين فى المحشر وتبرئهم من بعضهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ)

« وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا » أى : اجتمعوا لحسابه وقضائه يوم القيامة فى براز من الأرض ،

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩١] .

(٤) [٣٨ / ص / ٢٧] . (٥) [١٠ / يونس / ٥] .

وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحداً، أو برزوا من قبورهم أى : ظهوروا لذلك « فَقَالَ الضُّعَفَاؤُا » وهم الأنبياء « لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا » أى : على الرسل وهم قادتهم - توبيخاً لهم - « إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا » أى : تابعين ، مهما أمرتمونا ائتمرنا « فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » أى : بعض الإغناء . « قَالُوا » أى : المستكبرون « لَوْ هَدَّيْنَاهُ اللَّهَ لَهْدَيْنَاكُمْ » إحالة ، لضلالهم وإضلالهم ، على مقامه سبحانه ، أولو هدايانا بأهدائنا ، ولكن زغنا فأزاعنا كما قال تعالى ^(١) : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ » أى : منجى ومهرب من العذاب ؛ ونظير الآية قوله تعالى ^(٢) : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَأَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) .

واستظهر ابن كثير هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها الآية ^(٣) : (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْنُونَ عَنَّا نَصِيْبًا مِنَ النَّارِ) .

ولا يخفى أن الآية فى هذه السورة تصدق بالتخاصم فى الموقف وفى النار ، لإفادتها أن ذلك أثر بروزهم ، وهو صادق بما ذكرنا ، فلا قرينة فيها لكون ذلك فى النار فقط ، كما ادّعاء . وربما كان قوله (وَبَرَزُوا) يدل للموقف بمعناه المتقدم . ثم إن هذا التخاصم يجوز أن يكون متعدد المواطن لظاهر قوله (عِنْدَ رَبِّهِمْ) وقوله (فِي النَّارِ) . ويجوز أن يكون مرة واحدة . والمراد بـ (النَّارِ) العذاب . ووقوفهم عند ربهم ، واليأس محيط بهم ، وجهنم ترقبهم ، عذاب وأى عذاب !

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٣١] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٤٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» وهو الحكم بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء «إِنَّ

اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ» أى : على السنة رسله بأن فى اتباعهم النجاة والسلامة ، أى : فوفى به وأنجز «وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ» أى : ووعدتكم وعد الباطل ، وهو أن لا بعث ولا جزاء . ولئن كان ، فالأصنام شفعاؤكم . ولم يصرح ببطلانه لدلالة قوله (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه . والإخلاف مستعار لعدم تحقق ما أخبر به وكذبه ، أو مشاكلة . وفى الآية من الإيجاز البليغ شبه الاحتباك . حيث حذف أولاً (فوفى به) لدلالة قوله بعد (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه لأنه مقابله ، وحذف ثانياً (وعد الباطل) لدلالة (وَعَدَ الْحَقَّ) .

« وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » أى حجة وبرهان « إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » أى : أسرعتم لطاعتي بمجرد ذلك ، أى وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، نغالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه « فَلَا تَلُمُونِي » أى : بوعدى إياكم ، إذ لم يكن بطريق القسر « وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » أى : حيث استجبتم لى باختياركم ، حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل . ولم تستجيبوا ربكم ، إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبراهين والحجج .

قال القاشانى : لما ظهر سلطان الحق على شيطان الوهم وتنور بنوره ، أسلم وأطاع وصار محققاً علماً بأن الحجة لله فى دعوته لا لخلق إلى الحق ، لاله . ودعوته إلى الباطل بتسويل الخطام

وتزيين الحياة الدنيا عليهم- واهية فارغة عن الحجة. وأقرّ بأن وعده تعالى بالبقاء بعد خراب البدن والثواب والعقاب عند البعث ، حقّ قد وفى به . ووعدى بأن ليس إلا الحياة الدنيا باطل اختلقته . فاستحقاق اللوم ليس إلا لمن قبل الدعوة الخالية عن الحجة فاستجاب لها . وأعرض عن الدعوة المقرونة بالبرهان فلم يستجب لها . انتهى .

وحكى فى (الإكليل) عن ابن الفرس : أن بعضهم انتزع من هذا إبطال التقليد فى الاعتقاد . قال : وهو انتزاع حسن . لأنهم اتبعوا الشيطان بمجرد دعواه ، ولم يطلبوا منه برهاناً . فحكى الله قوله تقبيحاً لذلك الفعل منهم . انتهى .

«مَّا أَتَانَا بِمُصْرِحِكُمْ» أى : بمغيثكم ومنجيكم من العذاب «وَمَا أَتَيْتُمْ بِمُصْرِحِيَّ» أى : مما أنا فيه . قال ابن الأعرابي : الصارخ : المستغيث ، والمُصْرِح : المغيث ، يقال : صرخ فلان إذا استغاث وقال : واغوئاه ! وأصرخته أغثته . فالهمزة للسلب . يعنى أزلت صراخه ، وهو مد الصوت . «إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَثَرَكُمُونَ مِنْ قَبْلُ» أى : كفرت اليوم بإثراكم إياى من قبل هذا اليوم - أى فى الدنيا - يعنى : جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وتبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة كقوله تعالى^(١) : (وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْ كَيْكُمُ) وقوله^(٢) (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) وقوله^(٣) : (كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . «إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ابتداء كلام منه تعالى ، أو تنمة كلام الشيطان .

قال الزمخشري : وإنما حكى الله عزّ وعلاً ما سيقوله فى ذلك الوقت ، ليكون لطفاً للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم . ولما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، عطف بمآل السعداء بقوله سبحانه .

(١) [٣٥ / فاطر / ١٤] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٦] . (٣) [١٩ / مريم / ٨٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَأَدْخِلْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

« وَأَدْخِلْ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله ورسوله وكتابه « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى : الطاعات « جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى : من تحت مساكنها وشجرها، أنهار الخمر والماء والعسل واللبن « خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » متعلق بـ (أدخل) أى : أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » أى : تحييتهم وتكرمهم الملائكة بالسلام عليهم، كقوله تعالى^(١) : « وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله^(٢) (وَأَلْمَلَيْكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) .

ولما بين تعالى ما أعد للمشركين والمؤمنين من المآل الآخروي ، ضرب مثلاً للشرك والإيمان - بأن مآل الثانى الثبات والاستقرار لأنه الذى ينفع الناس، ومآل الأول إلى الدمار والاندحار - فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

[٢٥] (تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ » يعنى فى الأرض ضارب بعروقه فيها « وَفَرْعُهَا » أى أعلاها ورأسها « فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا »

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٤ و ٢٣] .

أى ثمرها « كُلَّ حِينٍ مَّ يَأْذُنُ رَبِّهَا » أى بإرادته وتكوينه « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى : لأن فيها زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني المعقولة بالصور المحسوسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

« وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ » أى : استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية « مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ » أى : لأن عروقها قريبة منه « مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ » أى : استقرار .

تنبيه :

لحظ فى المثل به - أعنى الشجرة - أوصاف جليلة لتلاحظ فى جانب المثل له . فنها : كونها طيبة . أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح . وطيب الثمرة وطيب المنفعة . وكون أصلها ثابتاً أى : راسخاً باقياً فى أمنٍ من الانقلاع والانتطاع والزوال والفناء ليعظم الفرح به والسرور . وكون فرعها فى السماء فدل على كمال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها فى التصاعد ، مما يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وجهة بعدها عن العفونات والأفذار فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب . وكون ثمرتها تجتمعنى كل حين فلا تنقطع بركاها وخيراتها . ولأريب أن وجود هذه الأوصاف مما يدل على نغامة الموصوف وإنافة فضله . ولا تخفى مطابقة هذا المثل به للممثل له - أعنى الحق - وهو الإسلام الذى جاء به خاتم الأنبياء عليهم السلام .

ولما كان المثل مضروباً للحق والباطل فى الثبات وعدمه ، والقصد أهلها ، صرح بهما فذلكه له ، فقال فى أهل المثل الأول :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

« يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » القول الثابت هو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة وهو الحق . و (بالقول) جوّزوا تعلقه بـ (يثبت) و (آمنوا) . والمعنى على الأول : ثبتهم بالبقاء على ذلك ، أو ثبتهم في سؤال القبر به ، وعلى الثانى قالباء سببية والمعنى : آمنوا بالتوحيد الخالص فوحدوه ونزهوه عمّا لا يليق بجناحه . و (فى الحياة) متعلق بـ (يثبت أو بالثابت) كما قاله أبو البقاء . واقتصر الزمخشريّ وأتباعه على الأول حيث قال :

القول الثابت الذى ثبت بالحجة والبرهان فى قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنت إليه نفسه . وثبتيتهم به فى الدنيا ، أنهم إذا فتنوا فى دينهم لم يزلوا . كما ثبت أصحاب الأخدود والذين نثروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ؛ وثبتيتهم فى الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر . وقيل : معناه الثبات عند سؤال القبر . فعن البراء بن عازب رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : (المسلم إذا سُئِلَ فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) قال : فذلك قوله تعالى (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ . . .) الآية ، رواه الشيخان^(١) وأهل السنن .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٤ - سورة إبراهيم ، ٢ - باب

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ، حديث ٧٢٥ .

وأخرجه مسلم فى : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٧٣ (طبعتنا) .

وعليه ، فتفسير الآخرة بالقبر ، لكون الميت انتقطع بالموت عن أحكام الدنيا .
وقال في أصحاب المثل الثاني :

« وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ » أى : يخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبَّت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم ، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشيء فى غير موضعه ، أولظالمهم أنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها « وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى : من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)

[٢٩] (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ)

[٣٠] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ

إِلَى النَّارِ)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا « يعنى كفار مكة . أَتَنَّهُمْ نعمة الله وهو التوحيد والإيمان والهداية ببعثة رسول من أنفسهم ، فبدلوا شكرها كفرًا عظيمًا وغصًا لها « وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ » أى : ممن أضلوه وصدوه عن الهدى فتابعهم « دَارَ الْبَوَارِ » أى : الهلاك « جَهَنَّمَ » عطف بيان لها « يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا » أى من الأوثان فعبدوها « لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ » أى : عن عبادته وحده « قُلْ » أى : تهديدًا لأولئك الضالين المضلين « تَمَتَّعُوا » أى : بشهوات الحياة الدنيا « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣١] (قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

« قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ » وهو يوم القيامة « لَا بَيْعَ فِيهِ » أى : ليتدارك به التقصير ، أو يفقدى به « وَلَا خِلَالٌ » أى : غالة . مصدر بمعنى المصاحبة ؛ أى لا مفاداة فيه ولا خلة أحد بمغنية شيئاً من شفاعة أو مساححة بما لا يفقدى به ، كما قال تعالى ^(١) : (وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) .

قال الزخشرى : فإن قلت كيف طابق الأمر بالإتفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال ؟ قلت : من قبل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله ، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها ؛ وأما الإتفاق لوجه الله خالصاً ، فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص ، فبُعِثُوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال . أى : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخاللة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات ، وإنما ينتفع فيه بالإتفاق لوجه الله . انتهى .

قال أبو السعود : والظاهر أن (من) متعلقة بـ (أنفقوا) وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه ، من حيث أن كلاً من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير ، معاوضة وتبرعاً ، وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين في الدنيا وعدم الانتفاع بهما - من أقوى الدواعى إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإتفاق في سبيله تعالى . أو من حيث أن ادخار المال وترك إنفاقه ، إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة . فحيث لا يمكن

(١) [٢ / البقرة / ١٢٣] .

ذلك في الآخرة ، فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت . وتخصيصُ التأكيـدِ بذلك لميل الطباع إلى المال ، وكونها مجبولة على حبّه والفتنة به . ولا يبعد أن يكون تأكيـدًا لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضًا ، من حيث أن تركها ، كثيرًا ما يكون بالاشتغال بالبيوع والمخالات . كما في قوله تعالى^(١) : (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا) . ولما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى ، وأمر المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكرًا لنعمه ، شرع في تفصيل ما يستوجب على كافة الأنام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام ، حثًا للمؤمنين عليها وتقريعًا للكفرة المخلفين بها ، الواضعين موضعها الكفر والمعاصي ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» أى المزن «مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ» أى تعيشون به «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ» أى السفن «لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ» أى بإرادته «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ» أى فتجري حيث تشاءون من شرب وسقى وسواها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)
«وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينِ» أى يداً بان في سيرها وإنارتها ودرهما

الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات « وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أى يتعاقبان خلفه ، لمعاشكم وسباتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَأَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

« وَأَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ » أى ما تحتاجون إليه مما تصلح أحوالكم ومعاشكم به . فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال .

وقال القاشانى : (مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) بالسنه استعداداتكم . فإن كل شئ يسأله بلسان استعداده . كما لا يفيض عليه مع السؤال بلا تخلف وتراخ « وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا » لعدم تنافها « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ » أى بوضع نور الاستعداد ومادة البقاء فى ظلمة الطبيعة ومحل الفناء وصرفه فيها . أو بنقص حق الله أَوْحق نفسه بإبطال الاستعداد « كَفَّارٌ » أى بتلك النعم التى لا تحصى ، باستعمالها فى غير ما ينبغى أن يستعمل ، وغفلته عن النعم عليه بها ، واحتجابه بها عنه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ » أى اذ كر وقت قوله صلوات الله عليه .

قال أبو السعود : والمقصود من تذكيره ، تذكير ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل . والمراد به تأكيد ماسلف من تعجبه عليه السلام ببيان فن آخر من جناباتهم . حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم ، بعدما كفروا بالنعم العامة . وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام

حيث أسكنهم بمكة، شرفها الله تعالى، لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى . وسأله تعالى أن يجعله بلدًا آمنًا ويرزقهم من الثمرات . وتهوى قلوبُ الناس إليهم من كل أوب سحيق . فاستجاب الله دعاءه وجعله حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل شيء . فكفروا بتلك النعم العظام . واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار . وجعلوا لله أنداداً . وفعّلوا ما فعلوا .

« رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ » يعنى البلد الحرام ، مكة المكرمة « آمناً » أى ذا أمن .
أو آمناً أهله . « وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ » أى بعدنى وإياهم « أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ وِىِّى ،
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ » أى كنّ سبباً فى إضلالهم . كما يقال : فتنهم الدنيا وغرّتهم . إشارة إلى أنه افتتن بالأصنام خلائق لآلحصى . والجملة تعليل لدعائه . وإعما صدره بالدعاء إظهاراً لاعتناؤه به ، ورغبته فى استجابته « فَمَنْ تَبِعَنِ » أى على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلى « فَإِنَّهُ وِىِّى وَمَنْ عَصَانِي » أى نخالف ملتي « فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى فإنك ذو الأسماء الحسنى ، والمجد الأسنى ، الغنى عن الناس أجمعين . وتخصيص الاسمين إشارة إلى سبق الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ يَتِّكَ الْمَحْرَمِ
رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ
مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

« رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي » أى بعض أولادى . وهم إسماعيل ومن ولد منه

« بَوَادٍ » هو وادى مكة « غَيْرِ ذِي زَرْعٍ » أى لا يكون فيه زرع « عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ » أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به « رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى لىكى يأتوا بعبادتك مقومةً فى ذلك الموضع . وهو متعلق بـ (أَسْكَنْتُ) أى ما أسكنتهم هذا الوادى إلا ليقوموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمره بذكرك وعبادتك وحدك . وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة .

« فَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ » أى تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً . فيأنسوا ويتعارفوا فيتآلفوا ويعودوا على بعضهم بالمنافع « وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ » أى فتجعلها إليهم التجار « لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » أى : نعمة إقامتهم عند بيتك المحرم بالصلاة فيها ، على كمال الإخلاص والتوحيد ، مع فراغ القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْمَلُ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

« رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْمَلُ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » لأن الكل خلقه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ)^(١) .

قال الزمخشري : المعنى : إنك أعلم ، بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا ، منا . وأنت أرحم بنا منا بأنفسنا ولها . فلا حاجة إلى الدعاء والطلب . وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك ، وتخشعاً لعظمتك ، وتذلاً لعزتك ، وافتقاراً إلى ما عندك ، واستعجلاً لنيل أياديك ، وولهاً إلى رحمتك . وكما يتعلق العبد بين يدي سيده رغبة فى إصابة معروفه ، مع توفر السيد على حسن المسكة .

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح . فأراد أن يذكره فقال : مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين . ولكنّ ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها . انتهى .

وجوّز في قوله تعالى : (وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) الخ ، أن يكون من كلامه تعالى ، تصديقاً لإبراهيم ، أو من كلامه عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » أى ليقوما مقامى فى الدعوة إليه تعالى وبث الحنيفية وإقامة الصلاة بعد ذهابى « إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ » أى مجيبه .

قال الزمخشري : وإنما ذكر حال الكبر ، لأن المنّة بهبة الولد فيها أعظم ، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة . والظفر بالحاجة ، على عقب اليأس ، من أجل النعم وأحلاها فى نفس الظافر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ)
« رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ » أى عبادتى . كذا فى (التنوير) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)

« رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » أى مجازاة العباد على أعمالهم .
قرئ (ولوالدي) . بالإفراد . وكان هذا قبل تبين أمره له عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » يعنى مشركى أهل مكة . أى لا تحسبه ،
إذا أنظرهم وأجلهم ، أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على عملهم . بل هو يحصيه عليهم
ويعدّه عليهم عدّا . وفيه تسليّة للرسول صلوات الله عليه ، ووعد له أكيد ، ووعد للكفرة
وسائر الظالمين شديد .

« إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ » أى يأمهالهم متمتعين بشهواتهم ، ولا يعجل عقوبتهم « لِيَوْمٍ
تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » أى ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، لهول ما يرون . فلا تقرأ أعينهم
في أماكنها ولا تطرف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)

« مُهْطِعِينَ » أى مسرعين إلى الداعي الذى يدعوهم إلى المحشر . وهذا بيان لكيفية
قيامهم من قبورهم ، ومجلتهم إلى المحشر كقوله تعالى ^(١) (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ) وقوله ^(٢)
(يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا) .

(١) [٥٤ / القمر / ٨] . (٢) [٧٠ / المارج / ٤٣] .

« مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ » أى رافعيها إلى السماء « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ » أى لا يطفرون .
ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » أى لاقوة
فيها ، ولا ثبات ، لشدة الفزع .

قال الزمخشري : الهواء الخلاء الذى لم تشغله الأجرام ، فوصف به . فقيل : قلب فلان
هواء ، إذا كان جباناً لاقوة في قلبه ولا جراءة . ويقال للأحمق أيضاً : قلبه هواء . والمعنى :
أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها . والأبصار شاخصة . والرؤوس مرفوعة إلى السماء .
من هول ذلك اليوم وشدته وخوف مايقع فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا
إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ، أَوْ لَمْ تَكُونُوا
أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ)

قوله « وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ » يعنى يوم القيامة « فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا » أى رُدُّنَا إِلَى الدُّنْيَا وأمهلنا « إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى أمد من
الزمان قريب « نُّجِبْ دَعْوَتَكَ » أى إِلَى الإِقْرَار بتوحيدك وأسمائك الحسنى . « وَتَتَّبِعِ
الرَّسُولَ » أى فيما دعونا إليه من الشرائع .

« أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ » على إضمار القول . أى فيقال لهم توبيحاً وتبكيثاً : أولم
تسكنوا تحلفون « مِّنْ قَبْلُ » يعنى فى الدنيا « مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ » أى من دار الدنيا
إلى دار أخرى للجزاء . كقوله تعالى (١) « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن
يَمُوتُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ)

« وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » كعاد وعود « وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » أى بما تشاهدونه فى منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم « وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ » أى صفات ما فعلوا وما فعل بهم . أى ومع ذلك فلم يكن لكم فيهم معتبر ولا مزدجر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرُهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

« وَقَدْ مَكَرُوا » أى بالنبي صلوات الله عليه « مَكْرُهُمْ » أى العظيم أى الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل « وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ » أى جزاء مكرهم « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ » أى فى العظم والشدة « لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » أى مُسَوًى وَمُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارها ، لتناهى شدته .

وجوز فى (إن) كونها نافية واللام مؤكدة لها . والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم . على أن الجبال مثل (أى استعارة تمثيلية) لآيات الله وشرائعه . لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمسكاً . وينصره قراءة ابن مسعود : (وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ) . وقرئ (لَتَزُولَ) بلام الابتداء أى هو من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أركانها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

« فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ » أى من نصرهم المبين في قوله تعالى ^(١) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا) (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) ^(٢) . (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) ^(٣) الآية .

واستظهر أبو السعود : أن المعنى بالوعد هنا عذابهم الآخروى المتقدم في قوله تعالى ^(٤) (إِنَّمَا يُوَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ) إلخ ولا يخفى أن الوعد قد بين في مثل الآية الأخيرة والأولين ، في معناها . والبيان يرفع اللبس . وإنما أُوثر تقديم المفعول الثانى ، أعنى (وعده) ، على الأول وهو (رسله) للإيدان بالعبارة به . فإن الآية في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله به على أسنة الرسل . فالهم في التهديد ذكر الوعيد . كذا في (الانتصاف) .

وفى (الكشف) تقديمه للاعتناء به وكونه المقصود بالإفادة . وما ذكره ممن وقع الوعد على لسانه ، إنما ذكر بطريق التبع الإيضاح ، والتفصيل بعد الإجمال . وهو من أسلوب الترقى كما في قوله ^(٥) (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) . « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ » أى غالب لا يماكر « ذُو انْتِقَامٍ » من أعدائه ، نصرأ أوليائه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

« يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » وذلك أنه تسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى ، فلا يرى فيها عوج ولا أمت . وتبدل السموات

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٣) [٢٤ / النور / ٥٥] . (٤) [١٤ / إبراهيم / ٤٢] . (٥) [٢٠ / طه / ٢٥] .

بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً و (يوم) بدل من (يوم يأتيهم) أو ظرف للانتقام أو مقدر بـ (اذكر) أو (لا يخلف وعده) .
« وَبَرِّزُوا » أى الخلائق أو الظالمون من أجدانهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » أى لحسابه وجزائه .

قال أبو السعود: والتعرض للوصفين لتحويل الخطب وتربية المهابة وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفاً له . وتحقيق إتيان العذاب الموعد على تقدير كونه بدلاً من (يوم يأتيهم العذاب) فإن الأمر إذا كان لواحد غلاب ، كان في غاية الشدة والصعوبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

« وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ » جمع (مقرن) وهو من جمع في قرن (بفتحتين) الوثاق الذى يربط به . أى قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والفساد . فيجمع بين النظراء والأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف . كما قال تعالى (١) : (أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) . وقال (٢) : (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) أو: قرنوا مع الشياطين ، لقوله تعالى (٣) : (لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال . وقوله تعالى « فِي الْأَصْفَادِ » أى القيود أو الأغلال جمع صَفَدَ (بفتحتين) بمعنى القيد أو الغل . والقيد هو الذى يوضع في الرجل . والغُل (بالضم) ما في اليد والعنق ، وما يضم به اليد والرجل إلى العنق . والجار متعلق بـ (مُقرَّنين) أو حال من ضميره أى مصفدين . وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٢] . (٢) [٨١ / التكوثر / ٧] .

(٣) [١٩ / مريم / ٦٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (سَرَّابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ)

« سَرَّابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ » تشبيه لهم بأكره ما يوجد منظرًا عند العرب . وهو الإبل الجربى التى تطلى بالقطران . وإعلام بأن لهم أعظم ما ينال الجلد داء وهو تقرحه بالجرب . وأخبث ما يكون دواء لقبحه لوناً وريحاً ، وهو القطران . فإنه أسود منتن الريح .

قال الزمخشري : تطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل وهى القمص لتجتمع عليهم الأربع : لدغ القطران ، وحرقته ، وإسراع النار فى جلودهم ، واللون الوحش ، ومنتن الريح . على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين . وكل ما وعده الله وأوعده به فى الآخرة فينبه ويبين ما نشاهده من جنسه ما لا يقادَرُ قدره . وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامى . والمسميات ثمة . فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه . ونسأله التوفيق فيما ينجيننا من عذابه . انتهى .

ويؤيد بما يبناه من أن فى الآية إشارة إلى ابتلائهم بجرب جهنم : ما رواه الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركهن : الفخر بالأحساب . والطعن فى الأنساب . والاستسقاء بالنجوم . والنياحة على الميت . والنائمة إذا لم تب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب .

وقد وقفت على رسالة لشمس البلقاء الخوارزمي أنفذها لمن شكأ إليه داء الجرب . جاء منها قوله : الجرب حكة مادتها ييوسة وحرارة ووقود والتهاب . وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة . كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة . وعلة تدل على تضيق واجب النفس من التعهد .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٤٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث ٢٩ (طبعنا).

وعلى التفريط فى العلاج والتفقد . تنطق بأن صاحبها ضعيف المنة فى التوقى . أسير فى يد
الحرص والتشهى . غاشّ لنفسه . قليل البقيا على روحه . وهذه العلة تكسب صاحبها خزيا
وحياء . وتورثه خجلا واسترخاء . ينظر إلى الناس بعين المريب . ويتستر عنهم كتستر المغيب .
تنفر عنه الطباع ، وتستقذره النفوس . وتنبو عن مواكاته العيون . وأقل ما يصيبه أنه يحرم
آلة الطعام وهى يده . وآلة اللقاء والزيارة وهى رجلاه . ولو لم يكن من دقائق آفاتهما . ومن
عجيب هباتها ، إلا أنها تشيخ الفتيان . وتمسخ الإنسان . وتجعله أميّا بعد أن كان غير أحمى .
وأعجميّا وليس بأعجمي . تنفر عن نفسه نفسه . وتهرب من فراشه عرسه . ويتباعد عنه
أقرب الناس منه . ثم هى رُبّع من أرباع الخذلان وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعاذك الله من أشياء أربعة : الموت والعشق والإفلاس والجربُ
وما الظن بقاء قد سارت به الأمثال وقيلت فيه ، دون سائر الأدواء ، الأقوال .
قال أبو تمام ^(١) :

لما رأت أختها بالأمس قد خربتُ كان الخراب لها عدى من الجربِ

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الديوان (طبعة بيروت) .

والصفحة رقم ٥٧ من الجزء الأول (طبعة المعارف) .

والبيت من قصيدة مطلعها :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ فى حدّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ
يمدح بها أمير المؤمنين المعتصم بالله .

قال الخطيب التبريزي ، شارح الديوان :

الهاء فى (أختها) راجعة على عمورية . ويريد بأختها أنقرة . أى أنها لما خربت ، وهى
أخت عمورية ، أعدتها بالجرب . والجرب يوصف بالعدوى .

وقال لبيد^(١) :

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهمُ وبقيتُ في خلفِ كجلدِ الأُجربِ
فجعله رأسَ الأدواءِ . ووصفه بأنه غاية البلاء . انتهى . وقوله تعالى :

« وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ » أى تلوها وتحيط بها النار التى تمسّ جسدهم المسربل بالقطران . وتخصيص الوجوه لكونها أعز موضع فى ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب فى باطنه ولذلك قال^(٢) (تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) ولكونها تجمع الحواس التى خلقت لإدراك الحق ، وقد أعرضوا عنه ، ولم يستعملوها فى تدبره . كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة ، وقد ملئوها بالجهالات . أفاده الزخشري وأبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ » الجار متعلق بمحذوف . أى يفعل بالجرمين مايفعل ليجزى الخ . و (النفس) خصوصة بالنفس المجرمة بقربة المقام . أو عامّ للبرة والفاجرة . وعليه فيجوز تعلقه بقوله (وَبَرَزُوا) وما بينهما اعتراض أو بد (ترى) « إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى محاسبة الخلائق يوم القيامة . لأنه لا يشغله شأن عن شأن . وجميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم . كقوله^(٣) (مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِيكُمْ إِلَّا كَفَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) أو المعنى سريع حسابه أى مجيئه كقوله^(٤) (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) .
وقوله تعالى :

(١) ديوانه ، القصيدة : ٨ من قصيدة مطلعها :

قَضَّ اللَّبَانَةَ لَا أَبَا لَكَ وَاذْهَبِ والحق بأسرتك السكرام الغيبِ

يرثى بها أخاه لأمه ، أريد .

يقال : خلف خير ، وخلف سوء .

(٢) [١٠٤ / الهمة / ٧] . (٣) [٣١ / لقمان / ٢٨] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (هَٰذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)

« هَٰذَا » إشارة إلى القرآن أو السورة وقوله « بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ » أى كفاية لهم لما فيه من العظة والتذكير . وقوله « وَلِيُنذَرُوا بِهِ ۖ » أى ليخوفوا وليوعظوا به عن الجرائم التى أخذ بها الأولون « وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلائل على أنه لا إله إلا هو . وإنما قدم إنذارهم لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به ، دعته المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد . لأن الخشية أم الخير كله . أفاده الزمخشري : (وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » أى ليتعظ به ذوو العقول ، فيقبلوا على ما فيه نجاتهم وسعادتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥ - سُورَةُ الْحَجَرِ

سميت بها لاشتغالها على قوله تعالى (١) (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) إلى قوله (مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات الله ، بأدنى وجوه المؤاخذة ، مع غاية تحصنهم . ففيه غاية تعظيم الرسل والآيات . وهو من أعظم مقاصد القرآن : أفاده المهايى ، وهى مكية وآياتها تسع وتسعون .

(١) [١٥ / الحجر / ٨٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الرَّ ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)

«الر» تقدم الكلام في مثله «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ» الإشارة إلى (الر) لأنه اسم للسورة أى تلك السورة العظيمة آيات الكتاب الكامل وآيات قرآن عظيم الشأن ، مبين للحكم والأحكام ولسبيل الرشد والهدى . من (أبان) المتعدى . أو الظاهر معانيه أو أمر إعجازه ، وكونه آية قاهرة من (أبان) اللازم . أو الإشارة إلى آيات السورة أو إلى جميع آيات القرآن . وتعريف الكتاب للتعظيم والتفخيم ، كتنكير (قرآن) . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

«رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ» . تبشير للنبي ﷺ بظهور دينه . وأنه سوف يأتى أيام يتمنى الكافرون بها ، أن لو سبق لهم الإسلام فكانوا من السابقين . لما يرون من إعلاء كلمة الدين وظهوره على رغم الملحدين . لأن من تأخر إسلامه منهم ، وإن ناله من الفضل ما وعد به الحسنى ، ولكن لا يلحق السابقين (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَتَقَى مِنَ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ أَوْ لَمْ يَكْ أَعْظَمُ دَرَجَةً) ^(١) وفيه تنبئ للنبي ﷺ على الصدع بالدعوة والصبر عليها ، لما أن العاقبة له . وإنما جيء بصيغة التقليل ، جرياً على مذهب العرب في قولهم : لعلك ستندم على فعلك . ترفعاً واستغناءً عن التصريح بالغرض ، بناءً على ادعاء ظهوره .

(١) [٥٧ / الحديد / ١٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا » أى بدنياهم وتنفيذ شهواتهم « وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ » أى يشغلهم عن التوبة والتذكر ، أمل استقامة الحال . وأن لا يلقوا إلا خيراً فى المال « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى لمن تكون له العقبى .

قال الزمخشري : فيه تنبيه .

ثم بين تعالى سر تأخير عذابهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ)

« وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ » أى أجل مقدر ليتأمل فى أسباب الهلاك ليتخلص عنها ، وذلك بما قام من الحجة عليها ، بتقدم الإنذار وتكرره على سمعهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ)

« مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى لا تهلك قبله « وَمَا يَسْتَخِرُونَ » أى عنه ، للزوم الحجة وارتفاع الأعداء . ثم أخبر تعالى عن عتوهم فى كفرهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَقَالُوا يَٰأَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الدِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

« وَقَالُوا يَٰأَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الدِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » أى يا أيها المدعى ذلك ! إنك لمجنون فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا . أو فى دعواك تنزيل الذكر . أو نادوه بذلك استهزاء وتهكماً . أو هو من كلامه تعالى تبرئة له عما نسبوه إليه من أول الأمر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَوْ مَا تَأْتَيْنَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ)

[٨] (مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ)

« لَوْ مَا تَأْتَيْنَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ » أى هَلَا تَأْتَيْنَا بِالْمَلَكَةِ يشهدون بصدقك وبعضدوك على إنذارك كقولهم ^(١) : (لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ وَنَذِيرًا) . وقول فرعون ^(٢) : (فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكَةُ مُقْتَرِينَ) .

ثم أشار إلى جواب مقالهم ، وردّ مقترحهم بقوله تعالى : « مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ » أى عليهم فيأتونهم ويشاهدونهم « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى الحكمة التى جرت بها السّنة الإلهية ، وهو العذاب « وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ » أى مؤخرين . كقوله تعالى ^(٣) : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) .

ثم أشار إلى ردّ إنكارهم التنزيل مع تسليّة وبشارة عظيمة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُو لَحَافِظُونَ)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُو لَحَافِظُونَ » أى مِنْ كُلِّ مَنْ بَغَىٰ لَهُ كِيدًا . فلا يزال نور ذكره يسرى ، وبحر هداه يجرى ، وظلال حقيّته فى علومه تمتد على الآفاق ،

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٣] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٢٢ و ٢١] .

ودعائهم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق ، رغما عن كيد الكائدين ، وإفساد المفسدين^(١)
(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)
وفي إيراد الجملة الثانية اسمية ، دلالة على دوام الحفظ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ)

[١١] (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا » أى رسلاً « مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ » أى فرقهم وطوائفهم .
جمع (شيعه) وهى الفرقة المتفقه على مذهب وطريقة . و (الأولين) نعت لمحذوف . أى
الأمم . أو الكلام من إضافة الصفة للموصوف . « وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ » أى كما يفعله هؤلاء المشركون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[١٣] (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

« كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ » أى الذكر المنزل « فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين .
وقوله : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ » أى بالذكر . حال من ضمير (نسلكه) أى مكذباً مستهزأً به
غير مقبول .

قال الزخشرى : كما لو أنزلت بليث حاجة فلم يجيبك إليها فقلت : كذلك أنزلها باللائم .
تعنى مثل هذا الإزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية . وقيل الجملة بيان لما قبلها . وجوز فى
ضمير (نسلكه) أن يعود إلى الاستهزاء والتكذيب المعلوم . وقوله تعالى :

(١) [٦١ / الصف / ٨] .

« وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » استئناف جيء به تكملة للتسليمية ، وتصريحاً بالوعيد والتهديد . أى قد مضت السنة فيهم من هلاكهم . وزهوق باطلهم ، وانصر الرسل ، وغلبة جنود المؤمنين عليهم ، واستعمارهم ديارهم . ثم بين تعالى أنهم لا يتركون الاستهزاء بالرسل وإن أتتهم الآيات التى تشبه الملجئة لقوة عنادهم وبغيهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ)

[١٥] (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم » أى على هؤلاء المستهزئين « بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا » أى فصاروا طول نهارهم « فِيهِ يَعْرُجُونَ » أى يصعدون مستوضحين لما يرونه فيها من العجائب « لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا » أى حيرت أوحبست من الإبصار ، ومازراه شئ تختايله لاحقيقة له « بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

قال الناصر فى (الانتصاف) : المراد ، والله أعلم ، معنى من الآيتين ، إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن فى قلوبهم وأدخله فى سويدائها . كما سلك ذلك فى قلوب المؤمنين المصدقين . فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء . كل على علم وفهم^(١) (لِيَهْلِكَ مَنِ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنِ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ) ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن . فأعلمهم الله تعالى من الآن ، وهم فى مهلة وإمكان ، أنهم ما كفروا إلا على علم . معاندين باغين غير معذورين ، والله أعلم . ولذلك عقبه تعالى بقوله (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم) الآية . أى هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازها وولج ذلك فى قلوبهم ووقر ، ولكنهم قوم سجيتهم العناد وسيمتهم اللدد ، حتى لو سلك بهم

أوضح السبيل وأدعاهما إلى الإيمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يُفتح لهم باب في السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منها نهاراً .

وإلى ذلك الإشارة بقوله (فَظَلُّوا) لأن الظلول إنما يكون نهاراً . لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف (إِنَّمَا سُبُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا) وسحرنا محمد . وما هذه إلا خيالات لاحقائق تحتها . فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب ، من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب وفهم ، كما فهم غيرهم من المصدقين . لأن ذلك كله حاصل لهم . وإنما بهم العناد واللدن والإصرار ، لا غير . والله أعلم .

ثم بنى تعالى دلائل وحدته وعظمته وقدرته الباهرة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)

[١٧] (وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)

[١٨] (إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ)

« وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا » جمع (برج) يطلق على القصر والحصن وعلى المنازل

الاثنى عشر التي تنتقل فيها الشمس في ظاهر الرؤية .

وقد فسرت البروج في الآية بالنجوم وبالمنازل المذكورة وبالقصور ، على التشبيه بمحصول

الأرض وقصورها . فإن النجوم هي كل نخيمة عظيمة « وَزَيَّنَّاهَا » أى السماء بتلك البروج

المختلفة الأشكال والأضواء المرئية « لِلنَّاظِرِينَ » أى إلى حركاتها وأضوائها . أو للمتفكرين

المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدتها ووحدانيته « وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ *

إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ » أى اختلس « السَّمْعَ » أى من الملائكة السماوية « فَأَتْبَعَهُ » أى تبعه

ولحقه « شِهَابٌ مُبِينٌ » أى لهب محرق ظاهر ، فيرجع أو فيحترق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)
 « وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا » أى بسطناها « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبلاً ثوابت
 « وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ » أى وزن بميزان الحكمة ، وقدر بمقدار تقتضيه ،
 لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان . أو بمعنى مستحسن متناسب من قولهم : كلام موزون .
 وقد ذكر الشريف المرتضى فى (الدرر)^(١) : أن العرب استعملته بهذا المعنى . كقول عمر
 ابن أبى ربيعة .

وَحَدِيثُ أَلَدُهُ هُوَ مِمَّا تَشْتَبِهُهُ النُّفُوسُ يُوزَنُ وَزْنًا

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُوَ بَرَزِقِينَ)
 [٢١] (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)
 « وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ » أى ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرها ،
 مما تقتضيه ضرورة الحياة « وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُوَ بَرَزِقِينَ » أى من الأنعام والدواب وما أشبهها .
 قال القاضى : وفذلكة الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين ، مختلفة
 الأجزاء فى الوضع ، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، مع جواز أن
 لا يكون كذلك ، على كمال قدرته وتناهى حكمته والتفرد فى الألوهية والامتنان على العباد ،
 بما أنعم عليهم فى ذلك ، ليوحدوه ويعبدوه . ثم بالغ فى ذلك وقال : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

(١) انظر أمالى المرتضى (ج ١ ص ١٤ طبعة الحلبي) .

والبيت قائله مالك بن أسماء بن خارجة الفزارى . وفيه :

(ينعى الناعتون) عوضاً عن (تشبهه النفوس) .

عِنْدَنَا خَزَائِنُ مَائِهِ وَمَا نُنَزِّلُ لَهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ «أى وما من شىء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه . شبه اقتداره على كل شىء وإيجاده بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، المعدة لإخراج ما يشاء منها وما يخرجها إلا بقدر معلوم . استعارة تمثيلية . أو شبه مقصوراته بالأشياء المخزونة التى لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد . استعارة مكنية . ومعنى (نُنَزِّلُ لَهُ) أى نوجده ونخرجه فى عالم الشهادة . والقدر المعلوم الأجل المعين له ، حسبما تقتضيه الحكمة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

[٢٣] (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)

« وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ » أى تلقح السحاب أى تجعلها حوامل للماء . وذلك أن السحاب بخار يصير ، بإصابتة الهواء البارد ، حوامل للماء . قاله المهابي . فاللواقح ، عليه ، جمع (مقلح) بمحذف الزوائد . أو تلقح الشجر بجري مائها فيه أو تنميته ليثمر ويزهو . وجوز كون اللواقح جمع (لاقح) وهى الناقة الحامل . فشبهت الريح التى تجيء بالزن الممطرة ، بها . كما يشبه ما لا تكون كذلك بـ (العقيم) فيقال : ريح عقيم . « فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ » أى بقادرين على إيجاده وإنزاله . و (الخنز) اتخاذ الخزائن ، يستعار للقدرة ، كما مر . أو بحافظين له فى أمكنة يبايعه ، من سهول وجبال وعميون وآبار ، بل هو تعالى وحده الذى حفظه وسلكه يبايع فى الأرض وجعله عذبا ورحم العباد بسقيه « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ » أى الباقون بعد هلاك الخلق كله . وقيل للباقي : وارث ، استعارة من (وارث الميت) لأنه يبق بعد فنائه . ومنه قوله ^(١) صلوات الله عليه فى دعائه : واجعله الوارث منا . كذا فى (الكشاف) .

(١) لم أقف على هذا الحديث .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢٤] (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

[٢٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ، إِنَّهُ وَحَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » أى من تقدم ولادة وموتاً . ومن تأخر من الأولين والآخرين . أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد . أو من تقدم فى الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر . لا يخفى علينا شئ من أحوالكم . وهو بيان لكمال علمه ، بعد الاحتجاج على كمال قدرته ؛ فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه . وفى توكيد قوله (وَلَقَدْ عَلِمْنَا) من كمال التأكيد ما لا يخفى « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » أى الأولين والآخرين على كثرتهم « إِنَّهُ وَحَكِيمٌ » أى يدبر أمرهم فى الحشر على وفق الحكمة « عَلِيمٌ » أى بكل ما فىهم من خفايا الصفات الذميمة^(٢) (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

[٢٧] (وَالْجَبَّارُ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ » يعنى آدم « مِنْ صَلْصَلٍ » أى طين يابس مصوّت « مِنْ حَمَإٍ » صفة لصلصال . أى كائن من طين متغير مسود « مَسْنُونٍ » أى مصوّر من (سنة الوجه) وهى صورته . أو مصبوب ، من (سنّ الماء) صبّه . أى مفرغ على هيئة الإنسان . كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فبس حتى إذا تقر صلصل . ثم صيّره جسداً ولحمًا ونفخ فيه من روحه « وَالْجَبَّارُ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل الإنسان . « مِنْ نَارِ السَّمُومِ » أى من نار الريح الشديد الحرّ .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، كما هو ، للدلالة على كمال قدرته تعالى ، وبيان بدء خلق الثقلين . فهو التنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر ، وهو قبول المواد للجمع والإحياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

[٢٩] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ » أى عدلت خلقته وأكملتها « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى تحية له وتعظيمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٣١] (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

[٣٢] (قَالَ يَبَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

[٣٣] (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

« فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَبَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » .

يعنى : وقد خلقتنى من نار فأنا خير منه . كما صرح به فى آية غيرها . وفى تكرير قوله : (مِّن صَلْصَلٍ) الخ تذكير للإنسان بأصله هذا المفضول ، ليكون كالبجاء من جراح غوايته ، وشدة تمرده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ)

[٣٥] (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)

[٣٦] (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[٣٧] (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

[٣٨] (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

« قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا » أى من زمرة الملائكة المعززين « فَإِنَّكَ رَاجِمٌ » أى مطرود من كل خير وكرامة . فإن من يطرد يرحم بالحجارة . أو شيطان يرحم بالشهب . وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته . فإن من عارض النص بالقياس فهو راجم ملعون . أفاده أبو السعود .

« وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » أى الجزاء . وهو يوم القيامة « قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » وهو يوم البعث .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٠] (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ)

[٤١] (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ)

« قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ » أى المعاصي « فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ » أى الذين أخلصتهم لطاعتك وجردتهم بالتوجه إليك . وقرئ بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لك وأعمالهم من غير حظ لغيرك فيها .

« قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ » أى حق نهجه ومراعاته لاعوجاج فيه . وهو أن لاسلطان لك على عبادى المخلصين ، إلا الذين يناسبونك فى الغواية والبعد عن صراطى ، فيتبعونك كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)

[٤٣] (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٤] (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ)

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » أى قهر على الإغراء .

« إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » أى المطبوعين على الغواية « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ »

قال المباحي : لأن غوايتهم إنما كانت بترك متابعة الدليل مع متابعة الأهوية الباطلة ، لعلبتها عليهم « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ » أى الغواة « جُزْءٌ مَّقْسُومٌ » أى حزب معين مفرز من غيره ، حسبما يقتضيه استعداده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٤٦] (أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ)

[٤٧] (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ)

[٤٨] (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * أَدْخُلُوهَا » أى يقال لهم ادخلوها « بِسَلَامٍ » أى

سالمين أو مسلما عليكم « ءَامِنِينَ » أى من الآفات والزوال « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ

غِلٍّ « أى حقد كان فى الدنيا، لبعضهم على بعض » إِنْخُونَا « حال من فاعل (أَدْخُلُوها) أو الضمير فى (أَمْنِينَ) « عَلَى أَسْرُرٍ » أى مراتب عالية « مُتَقَابِلِينَ » لتساوى درجاتهم وتقارب مراتبهم ، فيتلذذ بعضهم برؤية وجه بعض « مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ » أى تعب « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » لسرمدية مقامهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (نَبِيٍّ عِبَادِي أُنَبِّئُكَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[٥٠] (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

[٥١] (وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)

[٥٢] (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)

« نَبِيٍّ عِبَادِي أُنَبِّئُكَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً « وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » أى لمن لم يتب من كفره . والجملة فذلك لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له . « وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ » أى عن نَبِيِّهِ . والضيف كالزَّوْر ، يقع على الواحد والجمع .

قال فى الكشف : عطف (وَنَبِّئُهُمْ) على (نَبِيٍّ عِبَادِي) ليتخذوا ما أحلّ من العذاب بقوم لوط ، عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ، ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم « إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ » أى خائفون . وذلك لما رأى أيديهم لاتصل إلى طعامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥٣] (قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)
 [٥٤] (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ)
 [٥٥] (قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ)
 [٥٦] (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

«قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ»
 أى مع مسّ الكبر بأن يولد لى ، والكبر مانع منه « فِيمَ تَبَشِّرُونَ » قال الزخشرى :
 هى (ما) الاستفهامية دخلها معنى التعجب . كأنه قال : فبأى أعجوبة تبشرونى . أو أراد إنكم
 تبشروننى بما هو غير متصور فى العادة . فبأى شىء تبشرون ؟ يعنى لا تبشروننى فى الحقيقة
 بشىء . لأن البشارة بمثل هذا ، بشارة بغير شىء .

«قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ» أى الآيسين من ذلك . « قَالَ
 وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » يعنى لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته ،
 ولكن استبعادا له فى العادة التى أجراها الله تعالى . والتصریح برحمة الله فى أحسن مواقفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥٧] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)
 [٥٨] (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)
 [٥٩] (إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ)
 [٦٠] (إِلَّا امْرَأَتَهُ وَقَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ)

« قَالَ » أى إبراهيم ، بعد أن ذهب عنه الروح « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم الخطير

الذى لأجله أرسلتم ، سوى البشارة « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى إلى إهلاكم . يعنون قوم لوط « إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا أَمْرًا تَهُ وَقَدَرْنَا إِنِّهَا لَمِنَ الْغَيْرِينَ » أى الباقيين مع الكفرة ، تهلك معهم . وإسناد التقدير لهم مجازى من باب قول خواص الملك (دبرنا كذا وأمرنا بكذا) وإنما يعنون دبر الملك وأمر . هذا إذا كان (قدرنا) بمعنى أردنا وقضينا . وإن كان بمعنى علمنا ، فلاغرو في علم الملائكة ذلك ، بإخباره تعالى إياهم به .

ومن الناس من يجعل « قدرنا » من كلامه تعالى ، غير محكى عن الملائكة . قال فى (الانتصاف) وهو الظاهر لاستغنائها عن التأويل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ)

[٦٢] (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ)

[٦٣] (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ)

[٦٤] (وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ » أى لا أعرفكم ولا أدرى من أى الأقوام أنتم وما أقدمكم .

وقال المهيئ : أى يخاف منكم تارة وعليكم أخرى . والظاهر أنه قال ذلك لهم ، بعد معاناته الشدائد من قومه لأجلهم . كما فصل فى سورة هود « قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ » أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به ، فيمرون به ، ويكذبونك « وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ » أى اليقين مع هلاكهم « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)

[٦٦] (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ)

[٦٧] (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ)

« فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » أى فاذهب بهم فى الليل « بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » أى فى طائفة منه وهى آخره « وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ » أى كن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم « وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ » أى لينظر ما وراءه ، فيرى من الهول ما لا يطيقه « وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ » أى يستأصلون عن آخرهم ، حال كونهم داخلين فى الصبح « وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ » أى مدينة لوط ، وهى سدوم « يَسْتَبْشِرُونَ » أى بأضيافه ، طمعاً فيهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ)

[٦٩] (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ)

[٧٠] (قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[٧١] (قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

[٧٢] (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[٧٣] (فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)

[٧٤] (فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ)

[٧٥] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)

[٧٦] (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ)

[٧٧] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ » أى بالإساءة إليهم . فإن الإساءة إليهم فضيحة للمضيف « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ » أى عن أن تجير أحداً منهم أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم . فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد . وكان يقوم ﷺ بالنهي عن المنكر والحجر بينهم وبين المتعرض له . فأوعدوه وقالوا^(١) : (لَيْسَ لَمْ نَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) أفاده الزمخشري .

« قَالَ هَؤُلَاءِ بَقَايَ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ » تقدم الكلام عليه في سورة هود ، مفصلاً « لَعَمْرُكَ » قسم بحياة النبي ﷺ ، اعترض به تبعاً من شدة غفلتهم وتكريماً للمخاطب « إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ » أى غفلتهم التي ذهبت معها أحلامهم « يَعْمَهُونَ » أى يترددون فلا يفهمون ما يقال لهم . ولما لم يسمعوا منه ، النصيحة البقية لهم ، أسمعهم الله الصيحة المهلكة لهم . « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ » أى صيحة العذاب « مُشْرِقِينَ » أى داخلين في وقت شروق الشمس « فَجَعَلْنَا » أى من تلك الصيحة الحركة للأرض « عَلَيْهَا سَافِلَهَا » قال المهايى لجعلهم الرجال العالين كالنساء السافلات .

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ » أى طين متحجر ، لرجهم على لواطهم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » أى الناظرين بطريق في الآيات « وَإِنَّهَا » يعنى

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٦٧] .

مدينة قوم لوط المدمرة « لَيْسَ بِلَيْلٍ مُّقِيمٍ » أى ثابت يسلكه الناس ، لم يندرس بعد ، وهم يبصرون تلك الآثار .

قال الزمخشري : وهو تنبيه لقريش ، كقوله ^(١) (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ * وَبِالْلَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .
« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى فى هلاكهم لعمرة لهم .

تنبيهان :

الأول - قال ابن القيم : فى (أقسام القرآن) : أكثر المفسرين من السلف والخلف بل لا يعرف السلف فيه نزاعا - أن هذا ، يعنى قوله تعالى (لَعْمُرُكُ) قسم من الله بحياة رسوله ﷺ . وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته . وهذه مزية لا تعرف لغيره . ولم يوفق الزمخشري لذلك . فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط . وإنه من قول الملائكة . فقال : هو على إرادة القول . أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : (لعمرك ...) الآية وليس فى اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على أن مافهمه السلف أطيب ، لا أهل التعطيل والاعتزال .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : (لعمرك) أى حياتك . قال : وما أقسم الله تعالى بحياة نبي غيره . والعمر والعمر واحد . إلا أنهم خصوا القسم بالفتوح لإثبات الأخف ، لكثرة دور الحلف على ألسنتهم . وأيضا فإن العمر حياة مخصوصة . فهو عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به ، لمزيتة على كل عمر من أعمار بنى آدم . ولا ريب أن عمره وحياته من أعظم النعم والآيات . فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات . ثم

(١) [٣٧ / الصافات / ١٣٧ و ١٣٨] .

قال ابن القيم : وإنما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة ، لأنّ للمعشق سكرة مثل سكرة الحجر كما قال القائل :

سُكْرَانِ : سُكْرُهُ هَوًى وَسُكْرُهُ مُدَامَةٌ - ومتى إفاقة مَنْ بِهِ سُكْرَانِ ؟

الثاني - قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) . قال السيوطي في (الإكليل) : هذه الآية أصل في الفراسة . أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً^(١) : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ثم قرأ هذه الآية . وقد كان بعض قضاة المالكية يحكم بالفراسة في الأحكام ، جرياً على طريق إياس بن معاوية . انتهى .

وقد أجاد الكلام في الفراسة ، الراغب الأصفهاني في كتاب (الذريعة) حيث قال في الباب السابع : وأما الفراسة ، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله .

وربما يقال : هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله . وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله^(٢) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) ، وقوله^(٣) (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) وقوله^(٤) (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) ولفظها من قولهم (فرس السبع الشاة) فكانت الفراسة اختلاس المعارف . وذلك ضربان : ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحي . وإياه عنى النبي ﷺ بقوله^(٥) (المؤمن

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١٥ - سورة الحجر ، ٦ - باب حدثنا محمد بن إسماعيل . (٢) [١٥ / الحجر / ٧٥] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٧٣] . (٤) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٠] .

(٥) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١٥ - سورة الحجر ، ٦ - باب حدثنا محمد بن إسماعيل ، عن أبي سعيد الخدري ، من حديث .

ينظر بنور الله) وهو الذى يسمى صاحبه المروع والمحدث . وقال عليه الصلاة والسلام^(١) (إن يكن فى هذه الأمة محدث ، فهو عمر) .

وقيل فى قوله تعالى^(٢) : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ) الآية : إنما كان وحيا بإلقائه فى الروح ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل^(٣) : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ) وقد يكون بإلهام فى حال اليقظة وقد يكون فى حال المنام . ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام^(٤) (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) .

والضرب الثانى من الفراسة يكون بضاعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية . ومن عرف ذلك كان ذافهم ثاقب بالفراسة . وقد عمل فى ذلك كتب . من تتبع الصحيح منها ، أطلع على صدق ما ضمنوه . والفراسة ضرب من الظن . وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال : الظن يتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب . ومن قوى فيه نور الروح المذكور فى قوله تعالى^(٥) : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) كان ممن وصفه بقوله^(٦) (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) وكان ذلك النور شاهداً ، أصاب فيما حكم به . ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام^(٧) فى المتلاعنين (إن أمرهما بين ، لولا حكم الله) .

- (١) أخرجه البخارى فى : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٦ - باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبى حفص القرشى ، المدوى ، رضى الله عنه ، الحديث رقم ١٦٢٨ عن أبى هريرة . (٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . (٣) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣ و ١٩٤] .
- (٤) أخرجه البخارى فى : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢ - باب رؤيا الصالحين ، الحديث رقم ٢٥٣٦ ، عن أنس بن مالك . (٥) [١٥ / الحجر / ٢٩] و [٣٨ / ص / ٧٢] .
- (٦) [١١ / هود / ١٧] . (٧) لعله يشير إلى الحديث الذى رواه البخارى عن ابن عباس فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٣١ - باب قول النبي ﷺ : لو كنت راجماً لغير بينة ، حديث رقم ٢١٦٣ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ)

[٧٩] (فَأَنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ)

[٨٠] (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ)

[٨١] (وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

«وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ» (إِنْ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف . أى : وإن الشأن كان أصحاب الأيكة . وهم قوم شعيب عليه السلام . كانوا يسكنون أيكة ، وهى بقعة كثيرة الأشجار ، فظلموا بأنواع من الظلم ، من شركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه . «فَأَنتَقَمْنَا مِنْهُمْ» أى بعذاب الظلة ، وهى سحابة أظلمهم بنار تقاذفت منها ، فأحرقتهم «وَأَيُّهَا» يعنى قرى قوم لوط والأيكة «أَيُّهَا مُمِينٍ» أى طريق واضح . وقد كانوا قريباً من قوم لوط ، بعدهم فى الزمان ومسامتين لهم فى المكان . ولهذا لما أنذرهم شعيب قال ^(١) (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ) .

«وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ» يعنى ثمود ، كذبوا صالحاً عليه السلام . ومن كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام ، فقد كذب الجميع . لاتفاقهم على التوحيد والأصول التى لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار . و (الحجر) واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه . معروف ، يجتازه ركب الحج الشامى .

«وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» يعنى بالآيات ما دلهم على صدق دعوى نبيهم . كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء . وكانت تسرح فى بلادهم .

(١) [١١ / هود / ٨٩] .

(لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) ^(١) فلما عتوا وعقروها ، قال ^(٢) (تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ)

[٨٣] (فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)

[٨٤] (فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[٨٥] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ

لَآتِيَةٌ ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

[٨٦] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

[٨٧] (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْأَمْثَانِ وَأَلْقَيْنَا الْكَبِيرَ)

«وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ» أى من حوادث الدهر «فَأَخَذَتْهُمْ

الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ» أى وقت الصباح من اليوم الرابع . وفى سورة الأعراف ^(٣) (فَأَخَذَتْهُمْ

الرَّجْفَةُ) أى الزلزلة وهى من توابع الصيحة . أو هى مجاز عنها .

«فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم

التي ضنوا بمائها عن النافعة ، حتى عقروها لثلا تضيق عليهم فى المياه ، فادفعت عنهم تلك الأموال

لما جاء أمره تعالى «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ» أى لإخلاقاً

متلبساً بالحق والحكمة الثابتة ، التى لا تقبل التغير . وهى الاستدلال بها على الصانع وصفاته

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥] .

(٢) [١١ / هود / ٦٥] .

(٣) [٧ / الأعراف / ٧٨] .

وأسمائه وأفعاله ليعرفوه فيعبده ، بحيث لا يلائم استمرار الفساد . ولذلك اقتضت الحكمة إرسال الرسل مبشرين ومنذرين . « وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ » أى فيجزى كلًّا بما كانوا يعملون « فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ » أى عاملهم معاملة الصفوح الحكيم ، كقوله (١) « فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » .

وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة . فإنه الخلاق الذى لا يعجزه خلق شئ ، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق فى سائر أقطار الأرض كقوله تعالى (٢) « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » .

« وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ » قال الرازى : إنه تعالى لما صبره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل ، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خصه بها . لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه ، سهل عليه الصفح والتجاوز . (والسبع المثاني) هو القرآن كله كما قاله ابن عباس فى رواية طاوس . لقوله تعالى (٣) « كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي » والواو فى قوله : « وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ » لطف الصفة كقول الشاعر (٤) :

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَإِبْنِ الْهَمَامِ
وَلَيْتَ الْكَتِيبَةَ فِي الْمَزْدَحَمِ

و (السبع) يراد بها الكثرة فى الآحاد . كالسبعين فى العشرات . و (المثاني) جمع مثنى بمعنى التثنية أو الثناء . فإنه تكرر قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه . أو مثنى عليه بالبلاغة والإيجاز . أو مثن على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٨١] . (٣) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٤) انظر معانى القرآن للقرآء ، ج ١ ص ١٠٥ .

وانظر تفسير الطبرى ص ١٠٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد روى عن بعض السلف تفسير السبع بالسور الطوال الأول، وهذا لم يقصد به. إلا أن اللفظ الكريم يتناولها، لا أنها هي المعنى. كيف لا وهذه السورة مكية وتلك مدنيات؟ كالقول بأنها الفاتحة سواء. وأما حديث^(١) (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثنى والقرآن العظيم الذي أوتيته) عند الشيخين ، فمعناه أنها من السبع ، لعطف قوله (والقرآن العظيم الذي أوتيته) ولو كان القصر على بابه ، لناقضه المعطوف . لاقتضائه أنها هولا غيره . وبداهة بطلانه لا تخفى .

وسر الإخبار بأنها السبع ، كون الفاتحة مشتملة على مجمل ماني القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها . كما بينه الإمام مفتى مصر في (تفسير الفاتحة) فراجعه . هذا ما ظهر لي الآن في تحقيق الآية .

وللأثرى الواقف مع ظاهر ماصح من الأخبار ، الجازم بأن السبع في الآية هي الفاتحة لظاهر الحديث - أن يحجب عن القصر بأن المراد بالمعطوف القرآن بمعنى المقروء ، لا بمعنى الكتاب كله . والله أعلم .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٨٩] (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)

[٩٠] (كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)

« لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ » يعني : قد أوتيت النعمة العظمى ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١ - سورة الفاتحة ، ١ - باب ما جاء

في فاتحة الكتاب ، حديث ١٩٦١ ، عن أبي سعيد بن الملقى .

التي كل نعمة وإن عظمت ، فهي إليها حقيرة . وهي القرآن العظيم . فمليك أن تستغنى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به ، من زخارف الدنيا وزينتها ، أصنافاً من الكفار متمنيا لها . فإنه مستحق بالاضافة إلى ما أوتيته . وفي التعبير عما أوتوه (بالمتاع) إنباء عن وشك زوالها عنهم .

« وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى لعدم إيمانهم ، المرجو بسببه تقوى ضعفاء المسلمين بهم « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفاءهم . وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء .

« وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » أى المنذر المظهر للعذاب لمن لم يؤمن « كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » أى مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين . أو إنذاراً مثل ما أنزلنا . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح عليه السلام ، الذين تقاسموا بالله لنبيئته وأهله فأخذتهم الصيحة ، كما مر . فلا تقسام من (القسم) لامن القسمة . وهذا التأويل اختاره ابن قتيبة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ)

[٩٢] (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٩٣] (عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ » أى أجزاء جمع (عضة) يعنى كفار مكة . قالوا : سحر . وقالوا : كهانة . وقالوا : أساطير الأولين . وهو مبتدأ خبره « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من التقسيم فنجازيهم عليه . وجوز تعاقب (كَمَا) بقوله :

(لَسَّائِلَهُمْ) أى لنسألهم أجمعين مثل ما أنزلنا . فيكون (كما) رأس آية و (المقتسمون) حينئذ ، إما من تقدم ، أو المشركون . ويعنى بالإيزال عليهم إنزال الهداية التى أبوها ، وجوز جعل الموصول مفعولاً أول للنذير ، أو لما دل عليه من أنذر . أى النذير . أو أنذر المعصين الذين يجزئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير ، مثل ما أنزلنا على المقتسمين . وجوز جعل (كما) متعلقاً بقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ) أى أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب الذين جزءوا القرآن إلى حق وباطل . حيث قالوا : قسم منه حق موافق لما عندنا . وقسم باطل لا يوافقه . أو القرآن هو مقروؤهم . أى قسموا ما قرءوا من كتبهم وحرفوه . فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَأُصْدِعْ بِمَا تَوَمَّرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

[٩٥] (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)

[٩٦] (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« فَأُصْدِعْ بِمَا تَوَمَّرُ » أمر من (الصدع) بمعنى الإظهار والجهر ، من (انصداع الفجر) . أو من (صدع الزجاجة) ونحوها وهو تفريق أجزاءها . أى : افرق بين الحق والباطل « وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » أى الذين يرومون صدك عن التبليغ ، فلا تبال بهم « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » أى حفظناك من شرهم ، فلا ينالك منهم ما يحذر . وهذا ضمان منه تعالى ، له صلوات الله عليه ، لينهض بالصدع نهضة من لا يهاب ولا يخشى . كما قال تعالى ^(١) : (يَسْأَلُهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) .

(١) [٥ / المائة / ٦٧] .

« الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » وصفهم بذلك، تسليمة له عليه الصلاة والسلام، وتهويماً للخطب عليه ، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى ، التي هي أكبر الكبائر ، التي سيخذلون بسببها . كما قال « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة أمرهم . وقد جوز في الموصول أن يكون صفة (للمستهزئين) ومنصوباً بإضمار فعل . ومرفوعاً بتقدير (هم) . وفي الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبوداً آخر . وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) عني به ما عجله من إهلاكمهم ، كما روى ابن إسحق عن عروة : أن عطاء المستهزئين كانوا خمسة نفر . وكانوا ذوى أسنان وشرف في قومهم : من بنى أسد أبوزمعة ، كان النبي ﷺ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه . فقال : اللهم ! أعم بصره وأنكله ولده . ومن بنى زهرة الأسود . ومن بنى مخزوم الوليد بن المغيرة . ومن بنى سهم العاص بن وائل . ومن خزاعة الحارث . فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء ، أنزل الله تعالى ^(١) : (فَأَصْدَغَ بَنِي إِسْرَءِيلَ) إلى قوله (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) قال ابن إسحق عن عروة : إن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت . فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه . فر به الأسود فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فأت منه . ومر به الوليد فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله ، كان أصابه قبل ذلك بسنتين . فانتقض به فقتله . ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أنحف قدمه ، فخرج على حمار يريد الطائف ، فربض على شبرقة فدخلت في أنحف قدمه . ومر به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله . انتهى .

ومثله ما رواه ابن مسعود ^(٢) : قال : كنا مع رسول الله ﷺ نصلي في ظل الكعبة .

(١) ١٥ / الحجر / ٩٤ . (٢) أخرجه البخاري في ٤ - كتاب الوضوء ، ٦٩ -

باب إذا ألقى على ظهر المصلّي قدر أو جيفة ، حديث ١٧٩ .

وأخرجه مسلم في ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، ٣٩ - باب ما لقي النبي ﷺ من أذى

المشركين والمنافقين ، حديث ١٠٧ (طبعنا) .

وناس من قريش وأبو جهل قد انحروا جزوراً في ناحية مكة: فبعثوا فجاءوا بسلاها وطرحوه بين كتفيه وهو ساجد . فجاءت فاطمة فطرحته عنه . فلما انصرف قال : اللهم ! عليك بقريش وبأبي جهل وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأمّية بن خلف وعقبة بن أبي معيط .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : فلقد رأيتهم قتل في قلب بدر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)

[٩٨] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ)

[٩٩] (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » لما ذكر تعالى أن قومه يهزأون ويسفهون ، أعلمه بما يعلمه سبحانه منه ، من ضيق صدره وانقباضه بما يقولون . لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضى ذلك . ثم أعلمه بما يزيل ضيق الصدر والحزن . وذلك بما أمره من التسبيح والتحميد والصلاة . كما قال تعالى ^(١) : (وَأُسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ -) وقال ^(٢) : (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) ومعلوم أن في الإقبال على ما ذكر ، استئزال الإمداد الرباني بالنصر والمعونة . لقوله ^(٣) : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) . وقوله ^(٤) : (فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ) . وقوله ^(٥) : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

(٣) [٢ / البقرة / ٤٥] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٨] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٥٣] و [٨ / الأنفال / ٤٦] . (٤) [٢ / البقرة / ١٥٢] .

(٥) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

وقد روى في شمائله صلوات الله عليه ؛ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، تأويلاً لما ذكر .

قال أبو السعود : وتحلية الجملة بالتأكييد لإفادة تحقيق ما تضمنته من التسلية . وفي التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، ما لا يخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ، والإشعار بعلة الحكم ، أعنى الأمر بالتسبيح والحمد . والمراد من (الساجدين) المصلين . من إطلاق الجزء على الكل . و (اليقين) : الموت . فإنه متيقن باللاحق بكل حي مخلوق . وإسناد الإتيان إليه ، للإيدان بأنه متوجه إلى الحي طالب للوصول إليه . والمعنى دُم على العبادة ما دمت حياً . كقوله تعالى في سورة مريم ^(١) (وَأَوْصَيْنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) .

وقيل : المراد بـ (اليقين) تعذيب هؤلاء وأن ينزل بهم ما وعده . ولا ريب أنه من المتيقن . إلا أن إرادة الموت منه ، أولى . يدل له قوله تعالى إخباراً عن أهل النار : (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى آتَيْنَا الْيَقِينَ) وما في الصحيح ^(٣) عن أم العلاء ، امرأة من الأنصار ؛ أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أم العلاء : رحمة الله عليك ، أبا السائب ! فشهادتي عليك ، لقد أكرمك الله ! فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فمن ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين ، وإنى لأرجو له الخير .

(١) [١٩ / مريم / ٣١] . (٢) [٧٤ / المدثر / ٤٣ - ٤٧] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٣ - باب الدخول على الميت بعد الموت

إذا أدرج في كنفه ، الحديث رقم ٦٦٦ (والحديث من أفراد البخاري) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يستدل بهذه الآية السكرية وهي قوله (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) على أن العبادة، كالصلاة ونحوها، واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً، كما في صحيح البخاري^(١) عن عمران بن حصين رضى الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال : صل قائماً . فإن لم تستطع فقاعداً . فإن لم تستطع فعلى جنب . ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة . فتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل . فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم ، أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم . وكانوا ، مع هذا ، أعبد الناس وأكثرهم مواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة . انتهى .

(١) أخرجه البخاري في : ١٨ - كتاب تقصير الصلاة ، ١٧ - باب صلاة القاعد ، حديث رقم ٦١١ (والحديث من أفراد البخاري) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦ - سُورَةُ النِّحْلِ

سميت بها لاشتغالها على قوله تعالى^(١) (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) المشير إلى أنه لا يبعد أن يلهم الله عز وجل بعض خواص عبادہ ، أن يستخرجوا الفوائد الحلوة الشافية من هذا الكتاب . بحمل كلماته على مواضع الشرف ، وعلى المعاني الثمرة ، وعلى التصرفات العالية . مع تحصيل الأخلاق الفاضلة وسلوك سبيل التصفية والزكية . وهذا أكل ما يعرف به فضائل القرآن ويدرك به مقاصده . قاله المهايي .

وقال بعضهم : تسمية السورة بذلك تسمية بالأمر المهم . ليتفطن الغرض الذي يرمى إليه . ك (الجمعة) لأهمية الاجتماع الأسبوعي وما يَنْجُمُ عنه من مصالح الأمور العامة ، والحديد لمنافعه العظيمة . و (النحل) . و (المنسكبات) . و (النمل) . للتفطن لصغار الحيوانات الحكيمة الصنائع . وهكذا . وسيأتي طرف من حكمة النحل وأسراره عند آيته في هذه السورة .

وهي مكية . واستثنى ابن عباس آخرها . وعن الشعبي إلا قوله تعالى^(٢) (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ) الآيات وعن الشعبي : إلا قوله تعالى^(٣) (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ) الآيات . وآيها مائة وثمان وعشرون .

وعن قتادة : تسمى سورة النعم . وذلك لما عدد الله فيها من النعم على عباده .

(١) [١٦ / النحل / ٦٨] . (٢) [١٦ / النحل / ١٢٦] . (٣) [١٦ / النحل / ٤١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

«أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» تقرر في غير ما آية ، أن المشركين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو إهلاكهم . كما فعل يوم بدر ، استهزاء وتكديبا بالوعد . ف قيل لهم (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ) أى ما توعدونه مما ذكر . والتعبير عنه بـ (أمر الله) للتفخيم والتهويل . وللايذان بأن تحققه في نفسه وإتيانه، منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب . وإتيانه عبارة عن دنوه واقترابه ، على طريقة نظم المتوقع في سلك الواقع . أو عن إتيان مبادئه القريبة ، على نهج إسناد حال الأسباب إلى المسببات . والآية كقوله تعالى ^(١) : (أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) وقوله ^(٢) (أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ) وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ) وقوله ^(٣) : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ . وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم معه ماسواه ، من الأوثان والأنداد ، الذي أفضى بهم إلى الاستهزاء والعناد ، واعتقاد أنها شفعاؤهم إذا جاء الميعاد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)

«يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ

(١) [٢١ / الأنبياء / ١] . (٢) [٥٤ / القمر / ١] . (٣) [٢٩ / العنكبوت / ٥٣] .

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » ردّ لاستبعادهم النبوة ، بأن ذلك سنة له تعالى . ولذا ذكر صيغة الاستقبال كقوله تعالى ^(١) (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وقوله ^(٢) (اللَّهُ يُصَوِّطُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) والروح هو الوحي ، الذي من جملة القرآن . لقوله تعالى ^(٣) (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا أَلَكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) والتعبير عنه بالروح على نهج الاستعارة . فإنه يحى القلوب الميتة بالجهل و(من أمره) بيان للروح ، أو حال منه ، أو صفة ، أو متعلق بـ (ينزل) . و (من) للسببية و (أَنْ أُنْذِرُوا) بدل من الروح . أى أخبروهم بالتوحيد والتقوى . فقوله (فَاتَّقُونِ) من جملة المنذر به . أو هو خطاب للمستعجلين ، على طريقة الالتفات . والفاء فصيحة أى إذا كانت سنته تعالى ذلك ، فاتقون ، بما ينافيه من الإشراك وفروعه ، من الاستعجال .

قال الزمخشري : ثم دل على وحدانيته ، وأنه لا إله إلا هو ، بما ذكر ، مما لا يقدر عليه غيره ، من خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان وما يصلحه ، وما لا بد له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه ، وجبر أفعاله وسائر حاجاته . وخلق مالا يعلمون من أصناف خلأئقه . ومثله متعال عن أن يشرك به غيره ، بقوله سبحانه :

(١) [٤٠ / غافر / ١٥] .

(٢) [٢٢ / الحج / ٧٥] .

(٣) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٤] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)

[٥] (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٦] (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى بالحكمة كما تقدم « تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » *
 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أى مهينة ضعيفة « فَإِذَا هُوَ » بعد تكامله بشراً « خَصِيمٌ مُبِينٌ »
 أى مخاصم لخالفه مجادل ، يجحد واحدنيته ويحارب رسله . وهو إنما خلق ليكون عبدا
 لا ضدا « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ » أى لمصالحكم وهى الأزواج الثمانية المفصلة فى
 سورة الأنعام .

قال الزمخشري : وأكثر ما تقع على الإبل .

« فِيهَا دِفْءٌ » أى ما يدفى أى يسخن به من صوف أو وبر أو شعر ، فيقى البرد « وَمَنْفَعٌ »
 أى من نسلها ودرها وركوب ظهرها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ « أى زينة
 « حِينَ تُرِيحُونَ » أى تردونها من مراعيها إلى مرايحها (بضم الميم) وهو مقرها فى دور
 أهلها بالعشى « وَحِينَ تَسْرَحُونَ » أى تخرجونها بالغداة إلى المراعى .

قال الزمخشري : من الله بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها . لأنه من أغراض أصحاب
 المواشى . بل هو من معازمها . لأن الرعيان ، إذا رحوها بالعشى ، وسرحوها بالغداة ،
 فزينت بإراحتها وتسريحها الألفية ، وتجاوب فيها الثغاء والغاء ، أنست أهلها وفرحت
 أربابها . وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها ، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . ونحوه ^(١)
 (لَتَرَكُبُوهَا وَزِينَةً) ^(٢) (يُورِي سَوْءَ تَكْمٍ وَرِيشاً) .

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [٧ / الأعراف / ٢٦] .

فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأن الجمال في الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها . انتهى .
ثم أشار إلى فائدة جامعة للحاجة والزينة فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ،
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

[٨] (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ » أى أحمالكم « إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ »
بكسر الشين المعجمة وفتحها . قراءتان وهما لغتان في معنى (المشقة) أى لم تكونوا بالغيه
بأنفسكم إلا بمجهود ومشقة ، فضلا عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم « إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ »
أى حيث سخرها لنا فمفعل . ثم أشار إلى ما هو أتم في دفع المشقة وإفادة الزينة ، فقال
« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ » عطف على (الأنعام) « لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً » عطف محل
(لتركبوها) فهى مفعول له أو مصدر لمحدوف . أى وتزينوا بها زينة . أو مصدر واقع
موقع الحال من فاعل (تركبوها) أو مفعوله . أى متزينين بها . أو متزيناً بها . وسر التصريح
باللام في المعطوف عليه ، دون المعطوف ، هو الإشارة إلى أن المقصود المعتبر الأصلي في
الأصناف ، هو الركوب . وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب . فاقترن
المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل . تنبيهها على أنها أهم الغرضين وأقوى السببين . وتجرد التزين
منها تنبيهها على تبعية أو قصوره عن الركوب . والله أعلم . كذا في (الانتصاف) .

تنبيه :

استدل بهذه الآية الفائلون بتحريم لحوم الخيل . قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على

أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها . قالوا : ويؤيد ذلك أفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر ، وإخراجها عن الأنعام . فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل . قالوا : ولو كان أكل الخيل جائزاً ، لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب ، لأنه أعظم فائدة منه . وأجاب المجوّزون لأكلها ، بأنه لا حجة في التعليل بالركوب ، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها ، لا ينافي غيره .

ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب . وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية . وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها ، عام خبير . وقد قدمنا أن هذه السورة مكية . والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل . فلو سلمنا أن هذه الآية متمسكاً للقائلين بالتحريم ، لكانت السنّة المطهرة الثابتة رافعة لهذا لاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال . وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل ، أحاديث . منها ما في الصحيحين^(١) وغيرهما ، من حديث أسماء قالت : نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا ، فأكلناه . وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبه والترمذى^(٢) وصححه والنسائى^(٣) وغيرهم من جابر قال : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية . وأخرج أبو داود

(١) أخرجه البخارى في : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٢٤ - باب النحر والذبح ،

حديث ٢٢٠٢ .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٣٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٢٣ - كتاب الأطعمة ، ٥ - باب ما جاء في أكل لحوم الخيل .

(٣) أخرجه النسائى في : ٤٢ - كتاب الصيد والذبائح ، ٢٩ - باب الإذن في أكل

لحوم الخيل .

نحوه . وثبت أيضاً في الصحيحين^(١) من حديث جابر قال : نهى رسول الله ﷺ عن لحوم
الحر الأهلية ، وأذن في الخيل .

وأما ما أخرجه أبو داود^(٢) والنسائي^(٣) وغيرهما من حديث خالد بن الوليد قال : نهى
رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير ، ففي
إسناده صالح بن يحيى . فيه مقال . ولو فرض صحته لم يقوَ على معارضة أحاديث الحل . على
أنه يمكن أن يكون متقدماً على يوم خيبر ، فيكون منسوخاً . كذا في (فتح البيان) .
وفي (الإكليل) : أخذ المالكية ، من الاقتران المذكور ، ردّاً على الحنفية في قولهم
بوجوب الزكاة فيها . أي الخيل . وقوله تعالى :

« وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أي من المخلوقات في القفار والبحار . وصيغة الاستقبال
للدلالة على التجدد والاستمرار . أو لاستحضار الصورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

« وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ » .

في الآية فوائد :

الأولى - قال ابن كثير : لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية ،

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٨ - باب غزوة خيبر ، حديث ١٩٠٩

وأخرجه مسلم في : ٣٤ - كتاب الصيد والذباح ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٦ - كتاب الأطعمة ، ٢٥ - باب في أكل لحوم الخيل ،

حديث رقم ٣٧٨٨ . (٣) أخرجه النسائي في : ٤٢ - كتاب الصيد والذباح ، ٣٠ -

باب تحريم أكل لحوم الخيل .

نَبَّهَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَعْنَوِيَةِ الدِّينِيَّةِ . وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي الْقُرْآنِ الْعُبُورُ مِنَ الْأُمُورِ الْحَسِيَّةِ إِلَى الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَةِ الدِّينِيَّةِ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى ^(١) : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) وَقَالَ تَعَالَى ^(٢) (يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَكُمْ وَرِيثًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) .

وَمَا ذَكَرَ تَعَالَى ، فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا ، الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَبْلُغُونَ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِهِمْ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ إِلَى الْبِلَادِ وَالْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ وَالْأَسْفَارِ الشَّاقَةِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا النَّاسُ إِلَيْهِ . فَيَبَيِّنُ أَنَّ الْحَقَّ مِنْهَا مَوْصَلَةٌ إِلَيْهِ . فَقَالَ (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) . كَقَوْلِهِ تَعَالَى ^(٣) : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) وَقَالَ ^(٤) (هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ) انْتَهَى . وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى) .

الثَّانِيَّةُ - قَالَ أَبُو السَّعُودِ : (الْقَصْدُ) مُصْدَرٌ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ . يَقَالُ سَبِيلٌ قَصْدٌ وَقَاصِدٌ . أَيْ مُسْتَقِيمٌ . عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ أَوْ عَلَى نَهْجِ إِسْنَادِ حَالِ سَالِكِهِ إِلَيْهِ ، كَأَنَّهُ يَقْصِدُ الْوَجْهَ الَّذِي يُؤْمَرُ السَّالِكُ لَا يَعْدِلُ عَنْهُ . أَيْ : حَقٌّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، بِمَوْجِبِ رَحْمَتِهِ وَوَعْدِهِ الْمُحْتَمُونَ ، بَيَانُ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الْمَوْصِلِ لِمَنْ يَسْلُكُهُ إِلَى الْحَقِّ ، الَّذِي هُوَ التَّوْحِيدُ . بِنَصْبِ الْأَدْلَةِ وَإِرْسَالِ الرِّسْلِ وَإِنْزَالِ السُّكْتِ لِلدَّعْوَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ . أَوْ مُصْدَرٌ بِمَعْنَى الْإِقَامَةِ وَالتَّعْدِيلِ . قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ . أَيْ عَلَيْهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، تَقْوِيْعًا وَتَعْدِيلًا . أَيْ : جَعَلَهَا بِحَيْثُ يَصِلُ سَالِكُهَا إِلَى الْحَقِّ . لَكِنْ لَا بَعْدَ مَا كَانَتْ فِي نَفْسِهَا مَنْحَرِفَةً عَنْهُ ، بَلْ إِبْدَاعًا ابْتِدَاءً كَذَلِكَ عَلَى نَهْجِ (سُبْحَانَ مَنْ صَغَرَ الْبَعُوضُ . وَكَبَّرَ الْفِيلُ) وَحَقِيقَتُهُ رَاجِعَةٌ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنْ نَصْبِ الْأَدْلَةِ . وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ حَيْثُ أَبْدَعَ هَذِهِ الْبِدَائِعَ الَّتِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَا حَبٌّ يَهْتَدِي بِمَنَارِهِ . وَعَلِمَ يَسْتَضَاءُ بِفَنَارِهِ . وَأَرْسَلَ

(١) [٢ / البقرة / ١٩٧] . (٢) [٧ / الأعراف / ٢٦] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٣] . (٤) [١٥ / الحجر / ٤١] .

رسلاً مبشرين ومنذرين . وأنزل عليهم كتباً من جلّتها هذا الوحي الناطق بحقيقة الحق :
الفاحص عن كل ما جل من الأسرار ودق . الهادى إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية
إلى معالم الهدى . المنجية عن فياق الضلالة ومهاوى الردى .

الثالثة - الضمير فى (وَمِنْهَا جَائِرٌ) للسبيل . فإنها تؤنث . أى : وبعض السبيل مائل
عن الحق ، منحرف عنه ، لا يوصل سالكه إليه . وهو طرق الضلالة التى لا يكاد يحصى
عددها ، المدرج كلها تحت الجائر . كقوله تعالى (١) : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ،
وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) .

قال أبو السعود ، بعدما تقدم : أى : وعلى الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق
وتعديله ، بما ذكر من نصب الأدلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصد - وهذا هو الهداية
المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب . لا الهداية المستزمنة للاهتداء البتة . فإن ذلك مما
ليس بحق على الله تعالى . لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته . بل هو مغلّ بحكمته ، حيث يستدعى
تسوية الحسن والسيئ ، والمطيع والعاصى ، بحسب الاستعداد . وإليه أشير بقوله تعالى :
(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ) أى لو شاء أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد ، هداية
موصلة إليه البتة ، مستزمنة لاهتدائكم أجمعين ، لفعل ذلك . ولكن لم يشأه . لأن
مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها . ولا حكمة فى تلك المشيئة . لما أن الذى عليه يدور فلك
التسكين ، وإليه ينسحب الثواب والعقاب ، إنما هو الاختيار ، الذى عليه يترتب الأعمال ،
التي بها نيظ الجزاء .

ولما كان أشرف أجسام العالم السفلى ، بعد الحيوان ، النبات ، تأثر ما مرّ من الإنعام
بالأنعام والدواب ، التى يستدل بها على وحدته تعالى ، بذكر عجائب أحوال النبات ، للحكمة
نفسها . فقال سبحانه :

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

[١١] (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ » يسكن حرارة العطش « وَمِنْهُ شَجَرٌ » أى ومنه يحصل شجر . والمراد به ما ينبت من الأرض ، سواء كان له ساق أو لا ، « فِيهِ تُسِيمُونَ » أى ترعون أنعامكم « يُنْبِتُ » أى الله عز وجل « لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ » أى الذى فيه قوت الإنسان « وَالزَّيْتُونَ » أى الذى فيه إدامه « وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ » أى اللذين فيهما ، مع ذلك ، مزيد التلذذ « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ » أى يخرجها بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها . ولهذا قال « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فى إنزال الماء وإنبات ما فصل « لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى دلالة وحجة على وحدانيته تعالى . كما قال سبحانه ^(١) « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ عَشْرَ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي بَرْهانٍ لَكُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » .

قال أبو السعود - وأصله للرازي فى شرح كون ما ذكر حجة - : فإن من تفكر فى أن الحبة أو النواة تقع فى الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الأرض وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة فى الوقوع . ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر ، لا إلى نهاية .

(١) [٢٧ / النمل / ٦٠] .

مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية ، بالنسبة إلى الكل - علم أن من هذه أفعاله وآثاره ، لا يمكن أن يشبهه شيء ، في شيء من صفات الكمال . فضلاً عن أن يشاركه أحسن الأشياء في أخص صفاته ، التي هي الألوهية واستحقاق العبادة . تعالى عن ذلك علواً كبيراً . وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفكرية ، قطع الآية الكريمة بالتفكير . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

«وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» أي لنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها «وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ» لإصلاح ما نيط بهما صلاحه من المكنونات «وَالنُّجُومَ» ليهتدى بها في ظلمات البر والبحر . وقوله تعالى : «مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ» حال من الجميع . على معنى جعلها مسخرات . لأن في التسخير معنى (الجعل) فصحت على أنه تجريد . أو على أن التسخير لهم نفع خاص . فمعناه نفعكم حال كونها مسخرات لما خلقت له ، مما هو طريق لنفعكم . فد (سخر) بمعنى (نفع) على الاستعارة أو المجاز المرسل . لأن النفع من لوازم التسخير . أو على أن (مسخرات) مصدر ميمي ، منصوب على أنه مفعول مطلق . وسخرها مسخرات ، على منوال ضربته ضربات أو يجعل قوله : (مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ) بمعنى مستمرة على التسخير بأمره الإيجادي . لأن الإحداث لا يدل على الاستمرار . وقرئ بنصب الليل والنهار وحدهما . ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر . وقرئ (وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ) بالرفع مبتدأ وخبر ، وما قبله بالنصب «إِنَّ فِي ذَلِكَ» أي تسخير ما ذكر «لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» .

ولما نبه تعالى على معالم السموات ، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة ،

والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَمَا ذَرَأَّا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ)

« وَمَا ذَرَأَ » عطف على قوله تعالى (وَالنَّجْمُ) رفعاً ونصباً، على أنه مفعول (لجعل) أى وما خلق «لَكُمْ فِي الْأَرْضِ» أى من حيوان ونبات «مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ» وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ .

ثم نبه تعالى ممتنا على تسخير البحر ، وتعداد النعم به ، إثر امتنانه بنعم البر ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَا كُلُّوْا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَا كُلُّوْا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا » هو السمك .

قال الزمخشري : ووصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه ، فيسارع إلى أكله ، خيفة الفساد عليه .

قال الناصر : فكأن ذلك تعليم لأكله ، وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً . والأطباء يقولون : إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شيء يكون . والله أعلم . انتهى .

قال الشهاب : ففيه إدماج لحكم طبيّ . وهذا لا ينافي تقديده وأكله مخلّلاً ، كما توهم . انتهى .

أقول : الأظهر في سر وصفه بالطراوة ، هو التنبيه على حسنه ولطفه ، وعلى التفكر في باهر قدرته وعجيب صنعه ، سبحانه ، في خلقه إياه ، على كيفية تباين لحوم حيوانات البر ، مع اشتراكهما في الحيوانية .

« وَتَسْتَخْرِجُوهَا مِنْهُ حَلِيَّةً » كاللؤلؤ والمرجان « تَلْبَسُونَهَا » أى تلبسها نساؤكم ، والإسناد إليهم لأنهن من جملتهم في الخلطة والتابعية . ولأنهن إنما يزينن بها من أجلهم . فكأنها زينتهم ولباسهم . أو معنى (تلبسون) يتمتعون وتلتذذون . على طريق الاستعارة والمجاز . ولو جعل من مجاز البعض لصح . أى تلبسها نساؤكم .

قال الناصر : ولله درّ مالك رضى الله عنه ، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها . وذلك مقدر بالزائد على الثلث ، لحقه فيه بالتجمل . فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن ، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له . فعبّر عن حظه في لبسها بلبسه ، كما يعبر عن حظه سوا .

قال الشهاب : فإن قلت : الظاهر أن يقال تحلونهن أو تقلدونهن كما قال (١) :

تَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ الْغَظِيمِ

وهى للنساء دون الرجال . قلت : أما الأول فسهل . لأن المراد لازمه . أى تحلونهن . والثانى ، على فرض تسليمه ، هم يتمتعون بزينة النساء ، فكأنهم لابسون . وإذا لم يكن تغليباً ، فهو مجاز ، بمعنى : تجعلونها لباساً لبناتكم ونساءكم . ونكتة العدول ، أن النساء

(١) البيت خامس خمسة أبيات قالها الشاعر المعروف بالنازى . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ١ ص ١٢٦) الترجمة رقم ٥٨ بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

مأمورات بالحجاب وإخفاء الزينة عن غير المحارم . فأخفى التصريح به ليكون اللفظ كالمنى . انتهى .

وناقش صاحب (فتح البيان) ما قدروه في الآية حيث قال : وظاهر قوله تعالى : (تَلْبَسُونَهَا) أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أى يجعلونها حلية لهم كما يجوز للنساء . ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله (تَلْبَسُونَهَا) بقولهم : تلبسها نساؤهم . لأنهن من جملتهم ، أو لكونهن يلبسها لأجلهم . وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضى منع الرجال من التحلى باللؤلؤ والمرجان ، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة . فإن ذلك ممنوع ، ورد الشرع بمنعه ، من جهة كونه تشبهاً بهن ، لا من جهة كونه حلية لؤلؤاً أو مرجاناً . انتهى .

قال السيوطى في (الإكليل) : في الآية دليل على إباحة لبس الرجال الجواهر ونحوها . واستدل بها من قال بمحذ الحالف لا يلبس حلماً يلبس اللؤلؤ . لأنه تعالى سماه (حلماً) واستدل بها بعضهم على أنه لا زكاة في حلئ النساء . فأخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر . أنه سئل : هل في حلئ النساء صدقة ؟ قال : لا . هي كما قال : (حَلِيَّةٌ تَلْبَسُونَهَا) . انتهى .

قال في (فتح البيان) : وفي هذا الاستدلال نظر . والذي ينبغى التعميل عليه : أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها في شيء من أنواع المال فتلزم . وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف . ولم يرد في الجواهر ، على اختلاف أصنافها ، ما يدل على وجوب الزكاة فيها . وقوله تعالى : « وَتَرَى الْفُلْكَ » أى السفن « مَوَاحِرَ فِيهِ » أى جوارى جمع (ماخرة) بمعنى جارية . وأصل معنى (الخر) الشق لأنها تشق الماء بمقدمها « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى لتنتفعوا بذلك (لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) أى من سعة رزقه ، بركوها للتجارة « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى فتصرفون ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله .

قال أبو السعود : ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر ، من حيث إن فيها قطعاً لمسافة طويلة ، مع أحمال ثقيلة ، في مدة قليلة ، من غير مزاولة أسباب السفر . بل من غير حركة أصلاً . مع أنها في تضاعيف المهالك . وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر ، للإيدان باستغنائه عن التصريح به وبحصولها معاً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا وَسَلَّكُمُ اللَّهُ سُبُلًا) (يَهْتَدُونَ)

[١٦] (وَعَلَّمَكُمُ الْيَمْنَ وَالشَّمْلَ) (يَهْتَدُونَ)

« وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي » أى جبالاً ثوابت « أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » أى تضطرب « وَأَنْهَرَ سُبُلًا » أى جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى آخر ، رزقا للعباد « وَسَلَّكُمُ اللَّهُ سُبُلًا » أى جعل فيها من بلاد إلى غيرها ، حتى في الجبال . كما قال تعالى ^(١) (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا) « لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ » أى بها إلى ما ربكم « وَعَلَّمَكُمُ الْيَمْنَ وَالشَّمْلَ » أى دلائل يستدل بها المسافرون من جبل ومنهل وريح ، برّاً وبحراً ، إذا ضلوا الطريق « وَيُؤْتِي السَّحَابَ مَوَاقِدَ مَاءٍ وَتَقْدِيمَ (بِالنَّجْمِ) لِلْفَصَلِ . وهذا أولى من دعوى الزمخشري ؛ أن التقديم للتخصيص بقوم هم قريش لكونهم أصحاب رحلة وسفر . وذلك لأن الخطاب في الآيات السابقة عاماً فكذا يكون في لاحقتها .

تنبيه :

قال في (الإكليل) : هذه الآية أصل لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والتبلة والطرق .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[١٨] (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« أَفَمَنْ يَخْلُقُ » أى كل شيء ، لاسيما تلك المصنوعات العظيمة المذكورة ، وهو الله الواحد الأحد « كَمَنْ لَا يَخْلُقُ » أى شيئاً ما ، وهو ما يعبدون من دونه . وهذا تبكيت للمشركين وإبطال لإشراكهم بإنكار أن يساويه ويستحق مشاركته ، ما لا يقدر على خلق شيء من ذلك ، بل على إيجاد شيء ما .

وزعم الزمخشري ومتابعوه ؛ أن قضية الإلزام أن يقال : (أفمن لا يخلق كمن يخلق) ثم تسكلموا فى سره . وقد تقدم الكلام فى ذلك عند قوله تعالى ^(١) (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى) فجدد به عهداً . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفوا فساد ذلك . فإنه لوضوحه لا يفتقر إلى شيء سوى التذكير .

ثم نبه ، سبحانه وتعالى ، على كثرة نعمه عليهم وإحسانه بما لا يحصى ، إشارة إلى أن حق عبادته غير مقدور ، بقوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » أى لاتضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم ، فضلاً أن تطيقوا القيام بحققها من أداء الشكر « إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى حيث يتجاوز عن التقصير فى أداء شكرها ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم . ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها . قاله الزمخشري .

ولخط ابن جرير ؛ أن مغفرته تعالى ورحمته لهم ، إذا تابوا وأنبأوا . أى فيتجاوز عن تقصيرهم بشكرها الحقيقي . ولا يعذبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى طاعته .

لطيفة :

قال أبو السعود : كان الظاهر إيراد هذه الآية ، عقيب ماتقدم من النعم المعددة ، تكملة

(١) [٣ / آل عمران / ٣٦] .

لها على طريقة قوله تعالى ^(١) (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ولعلّ فصل ما بينهما بقوله ^(٢) (أَفَمَنْ يَخْلُقُ) الآية ، للمبادرة إلى إلزام الحجة ، وإلقاء الحجر ، إثر تفصيل ما فصل من الأفاعيل ، التي هي أدلة الوجدانية .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١٩] (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)
 [٢٠] (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)
 [٢١] (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

«وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ» أى من أعمالكم وسيجزىكم عليه «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ» أى فأنى تستحق الألوهية ، وقد نفى عنها أخص صفاتها ؟ فإنها ذوات مفتقرة إلى الإيجاد. أو المعنى : أن الناس يخلقونها بالنحت والتصوير ، وهم لا يقدرّون على نحو ذلك . فهم أعجز من عبدتهم . كما قال الخليل ^(٣) عليه السلام : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم ما ينافي الألوهية بقوله «أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ» أى هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل . وقوله (غَيْرُ أَحْيَاءٍ) تأكيد أو تأسيس . لأن بعض الأموات مما يعتريه الحياة ، سابقاً أو لاحقاً . كأجساد الحيوان ، والنطف التي ينشئها الله تعالى حيواناً . فلذا احتراز عنه بقوله (غَيْرُ أَحْيَاءٍ) أى لا يعتريها الحياة أصلاً . فهي أموات على الإطلاق ، حالاً ومآلاً «وَمَا يَشْعُرُونَ» أى تلك الأصنام المعبودة «أَيَّانَ يُبْعَثُونَ» أى متى يكون

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [١٦ / النحل / ١٧] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٩٦ و ٩٥] .

بعثها . وقد روى ، أنها تبعث ، ويجعل فيها حياة ، فتبرأ من عابديها . ثم يؤمر بها وبهم جميعاً إلى النار .

وجوز عود الضمير إلى عابديها . أى : وما تشعر الأصنام متى يبعث عبدتهم . تهكاً بحالها . لأن شعور الجداد محال . فكيف بشعور مالا يعلمه إلا الله ؟ وفيه إشعار بأن معرفته وقت البعث من لوازم الألوهية ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٢] (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

[٢٣] (لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

« إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ » تصريح بالمدعى ، وتمحيض للنتيجة ، غب إقامة الدليل . كما أفاده أبو السعود « فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ » أى لوحدايته تعالى ، جاحدة لها ، كما أخبر عنهم ، متعجبين من ذلك بقوله ^(١) : (أَجْعَلَ الْإِلَهَ إِلَهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ) وقال تعالى ^(٢) : (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) وقوله تعالى « وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » أى عن عبادته تعالى « لَا جَرَمَ » أى حقا « أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ » أى عن التوحيد ، وهم المشركون . أو عن الحق مطلقاً فيتناول هؤلاء . وهذا كما قال تعالى ^(٣) : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤٥] .

(١) [٣٨ / ص / ٥] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

[٢٥] (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى لم ينزل شيئاً. إنما هذا الذى يتلى علينا أحاديث الأولين ، استمدها منها . كما قال تعالى ^(١) : (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : قالوا ذلك ليحملوا أوزارهم الخاصة بهم ، وهى أوزار ضلالتهم فى أنفسهم ، وبعض أوزار من أضلواهم . كقوله تعالى ^(٢) (وَلِيَحْمِلْنَ أَنْفَقَهُمْ وَأَنْفَقًا مَعَ أَنْفَقِهِمْ ، وَلَيَسَّ لَنَّا يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) فاللام فى قوله (لِيَحْمِلُوا) لام العاقبة . لأن ما ذكر مترتب على فعلهم ولا باعثاً إما مجازاً . وإما حقيقة ، على معنى أنه قدر صدورهم منهم ليحملوا . وقد قيل : إنها للتعليل وإنها لام أمر جازمة . والمعنى : إن ذلك متحقق عليهم . فتمت الكلام عند قوله : (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) كذا فى (العناية) . وقوله تعالى (بِغَيْرِ عِلْمٍ) قال الزمخشري : حال من المفعول . أى : من لا يعلم أنهم ضلال . وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه ، وإن لم يعلم ، لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين الحق والمبطل . فجهله لا يعذره « أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » أى : ألا بسئ ما يحملون . ففيه وعيد وتهديد .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى بآنيائهم « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ » أى قلع بنيانهم من قواعده وأسسهِ ، فهدمه عليهم حتى أهلكتهم و (الإتيان) يتجاوز به عن (الإهلاك) كقوله تعالى ^(١) (فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) ويقال أتى فلان من مأمنه . أى جاءه الهلاك من جهة أمانه . وأتى عليه الدهر : أهلكه وأفناه . ومنه الأتو . وهو الموت والبلاء . يقال أتى على فلان أتو أى موت أو بلاء يصيبه . وقد جوز في الآية إرادة حقيقة هلاكهم . كالْحَكِيَّ عن قوم لوط وصالح ، عليهما السلام ، فيما تقدم . أو مجازه على طريق التمثيل ، لإفساد ما أبرموه من هدم دينه تعالى . شبهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكاييد ، للإيقاع بالرسل عليهم السلام ، وفي إبطاله تعالى تلك الحيل ، وجعله إياها أسباباً لهلاكهم ، بحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين . فأتى ذلك من قِبَلِ أساطينه بأن ضعفت ، فسقط عليهم السقف فهلكوا . ووجه الشبه : أن ما عدوه سبب بقائهم ، عاد سبب استئصالهم وفنائهم . كقولهم : من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً . وقوله (مِنْ فَوَقِهِمْ) متعلق بـ (يخر) . و (من) لا ابتداء الغاية أو متعلق بمحذوف على أنه حال من (السقف) مؤكدة . وقيل : إنه ليس بتأكيد . لأن العرب تقول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط : إذا انهدم في ملكه وإن لم يقع عليه « وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ » أى الهلاك والدمار « مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحتسبون .

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

« ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ » أى يذلّهم ويهينهم بعذاب الخزي ، لقوله تعالى ^(١) : (رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ) « وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ » أى تعادون وتحاصمون المؤمنين في شأنهم . وفيه تفرّيع وتوبيخ بالقول ، واستهزاء بهم . إذ أضاف الشركاء إلى نفسه لأدنى ملابسة ، بناءً على زعمهم ، مع الإهانة بالفعل المدلول عليها بقوله (يُخْزِيهِمْ) . أى ما لهم لا يحضرونكم ليدفعوا عنكم ! لأنهم كانوا يقولون : إن صح ما تقول فالأصنام تشفع لنا . فهو كقوله ^(٢) : (أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) وقيل : حكى عن المشركين زيادة في توبيخهم . « قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » وهم الأنبياء أو العلماء ، الذين كانوا يدعونهم إلى الحق فيشاققونهم « إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ » أى الفضيحة والعذاب « عَلَى الْكَافِرِينَ » أى المشركين به تعالى ، ما لا يضرهم ولا ينفعهم . وإنما قال (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) هذا شمانة بهم ، وزيادة إهانة بالتوبيخ بالقول ، وتقرياً لما كانوا يعظونهم ، وتحقيقاً لما أوعدهم به .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٢] .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَلَيْئَسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ)

«الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ، بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَلَيْئَسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ » هذا إخبار عن حال المشركين الظالمين أنفسهم بتبديل فطرة الله، عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم، بأنهم يلقون السلم، أى ينقادون ويسالمون ويتركون المشاقة . والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع . وأصل الإلقاء في الأجسام . فاستعمل في إظهار الانقياد ، إشعاراً بغاية خضوعهم واستكانتهم . وجعل ذلك كالشيء الملقى بين يدي القاهر الغالب ، على الاستعارة . وقوله تعالى (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) منصوب بقول مضمّر ، حال . أى قائلين ذلك . أو هو تفسير (للسلم) الذى ألقوه ، لأنه بمعنى القول . بدليل الآية الأخرى ^(١) (فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ) كما يقولون يوم المعاد (وَاللَّهُ رَئِيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ^(٢) . (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْجِفُونَ لَهُ وَكَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ) ^(٣) . ثم أخبر تعالى أن الملائكة تجيبهم بقوله (بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أى فلا يفيد الإنكار والكذب على الأنفس (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) أى مقدراً خلودكم .

قال ابن كثير: وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم . وينال أجسادهم ، في قبورها ،

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

(١) [١٦ / النحل / ٨٦] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

من حرّها وسمومها . فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم ، وخلدت في نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها . كما قال تعالى ^(١) (الْفَارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) وقوله (فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) أى ينس القليل والمقام لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله . فذكرهم بعنوان التكبر ، للإشمار بعلمته لثوابهم فيها . ولما أخبر عن الأشقياء بأنهم قالوا في جواب (مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ) هو (أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ) فجحدوا رحمته وكفروا نعمته - تأثروا بالإخبار عن السعداء الذين اعترفوا بخيره ورحمته ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا خَيْرًا ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » وهم المؤمنون « مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا » أى أنزل خيرًا ، أى رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به . ثم أخبر سبحانه عما وعد به عباده بقوله « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » أى لمن أحسن عمله ، مكافأة في الدنيا بإحسانهم . ولهم في الآخرة ما هو خير منها . فقوله (فِي هَذِهِ الدُّنْيَا) متعلق بـ (حَسَنَةٌ) كتعلقه بـ (أَحْسَنُوا) . قال الشهاب : والحسنة التى فى الدنيا الظفر وحسن السيرة وغير ذلك . وهذه الآية كقوله تعالى ^(٢) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقوله ^(٣) (قَدْ نَعْلَمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ) وقال تعالى ^(٤) (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٧] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٤٨] . (٤) [٣ / آل عمران / ١٩٨] .

إِلَّا بُرَارٍ (١) وقال (١) (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) ، ثم وصف تعالى الدار الآخرة بقوله « وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ، كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ)

[٣٢] (الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ » كقوله تعالى (٢) : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) « كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ » ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، في مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه « الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ » أى طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي وكل سوء « يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لتدخل أرواحكم الجنة فإنها في نعيم برزخى إلى البعث . أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالى (٣) : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . . . » الآيات . ثم أشار إلى تفرع المشركين ، وتهديدهم على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا ، بقوله تعالى :

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٧] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٧١] .

(٣) [٤١ / فصلت / ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[٣٤] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ » أى لقبض أرواحهم بالعذاب « أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ » أى العذاب المستأصل . أو يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال « كَذَلِكَ » أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والاستهزاء « فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى فمادوا فى ضلالهم حتى ذاقوا بأس الله « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ » فيما أحلّ بهم فى عذابه الآتى بيانه . وذلك لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه « وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا » جزاء سيئات أعمالهم من الشرك وإنكار الواحدانية وتكذيب الرسل ونحوها « وَحَاقَ بِهِمْ » أى أحاط بهم « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » من العذاب الذى توعدهم به الرسل . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ

نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

[٣٦] (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ،

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا

حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ
مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه واعتذارهم عنه بالاحتجاج بالقدر ، تكذيباً
لرسل صلوات الله عليه، ووطعنا في الرسالة. وذلك قولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) أى من البحار والسواحب
والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، مما لم يُنزل الله به سلطاناً
ثم أعلم تعالى مشاكلهم لمن تقدمهم ، بقوله (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى من
الشرك والتحریم ، متمسكين بمثل هذه الشبهة .

قال ابن كثير : مضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارها لما فعلنا ، لَأَنْكَرَهُ عَلَيْنَا
بالعبودية ، ولَمَّا مَكْنَيْنَا مِنْهُ . قال الله تعالى راداً عليهم شبههم (فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ) أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم . بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ،
ونهاكم عنه أكد النهى ، وبعث في كل أمة ، أى في كل قرن وطائفة من الناس ، رسولا .
وكلهم يدعو إلى عبادة الله ، وينهى عن عبادة ما سواه (أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)
وهو ما يعبد من دونه سبحانه . فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك
في بنى آدم ، من عهد نوح أول رسول إلى أهل الأرض ، إلى زمن خاتم النبيين صلوات الله عليه
وعليهم . ودعوة الكل واحدة كما قال تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي
إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وكما أخبر هنا في هذه الآية . فكيف يسوغ
لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)؟

فشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية . لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله . وأما مشيئته الكونية ، وهي تمكينهم من ذلك قدراً ، فلا حجة لهم فيها . أى لأنها من سر القدر الذى حُطِرَ الخوض فيه . ثم أنه تعالى أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا ، بعد إنذار الرسل ، بقوله . (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ) الآية . وقد تقدم لنا فى سورة الأنعام نقل ما للأئمة فى مثل هذه الآية . ونسوق هنا أيضاً ما قرأته للإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى أول الجزء الثانى من (منهاج السنة) مما يتعلق بالآية ، وإن يكن سبق لنا نقل عنه أيضاً . فإن الآية من معارك الأفهام . فلا علينا أن نَجْلُوَ عن الشبه فيها صدأ الأوهام . قال عليه الرحمة : هذا مقام يكثر خوض النفوس فيه . فإن كثيراً من الناس ، إذا أُمِرَ بما يجب عليه تعمل بالقدر وقال : حتى يقدر الله ذلك ، أو يقدرنى الله على ذلك ، أو حتى يقضى الله ذلك . وكذلك إذا نُهِىَ عن فعل ما حرّم الله قال : الله قضاء علىّ بذلك ، ونحو هذا الكلام . والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة . باتفاق كل ذى عقل ودين من جميع العالمين . والمحتج به لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة ، إذا احتج بها فى ظلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه . بل يطلب منه ماله عليه ، ويعاقبه على عدوانه عليه . وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التى تعرض فى العلوم . فكأنك تعلم فسادها بالضرورة . وإن كانت تعرض كثيراً للكثير من الناس . حتى قد يشك فى وجود نفسه . وغير ذلك من المعارض الضرورية . فكذلك هذا يعرض فى الأعمال حتى يظن أنها شبهة فى إسقاط الصدق والعدل الواجب ، وغير ذلك . وإباحة الكذب والظلم وغير ذلك . ولكن تعلم القلوب بالضرورة أن هذه شبهة باطلة . ولهذا لا يقبله أحد عند التحقيق ولا يحتج بها أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله . فإذا كان معه علم بأن ما فعله هو المصلحة ، وهو المأمور وهو الذى ينبغى فعله ، ولم يحتج بالقدر . وكذلك إذا كان معه علم بأن الذى لم يفعله ليس عليه أن يفعله ، أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأموراً به - لم يحتج بالقدر . بل إذا كان متبعاً لهواه

بغير علم، احتج بالقدر . ولهذا لما قال المشركون ^(١) (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ) قال الله تعالى : (هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لِنَاسٍ ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) ^(٢) (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) فإن هؤلاء المشركين يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة داحضة وباطلة . فإن أحدهم لو ظلم الآخر أو حرج في ماله أو فرج امرأته أو قتل ولده أو كان مصرّاً على الظلم فنهأ الناس عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا - لم يقبلوا منه هذه الحجة . ولا هو يقبلها من غيره . وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للوم بلا وجه . فقال الله تعالى : (هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لِنَاسٍ) بأن هذا الشرك والتحریم من أمر الله ، وأنه مصلحة ينبغى فعله (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) فإنه لا علم عندكم بذلك ، إن تظنون ذلك إلا ظناً (وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) وتفترون . فعمدتكم في نفس الأمر ظنكم وخرصكم . ليس عمدتكم في نفس الأمر كون الله شاء ذلك وقدره . فإن مجرد المشيئة والقدرة لا تكون عمدة لأحد في الفعل . ولا حجة لأحد على أحد ولا عذراً لأحد . إذ الناس كلهم مشتركون في القدر . فلو كان هذا حجة وعمدة لم يحصل فرق بين العادل والظالم والصادق والكاذب والعالم والجاهل والبرّ والفاجر . ولم يكن فرق بين ما يصلح الناس من الأعمال لما يفسدهم وما ينفعهم وما يضرهم . وهؤلاء المشركون المحتجون بالقدر على ترك ما أرسل الله به رسله من توحيده ، والإيمان به ؛ لو احتج به بعضهم على بعض في سقوط حقوقه ومخالفة أمره ، لم يقبله منه . بل كان هؤلاء المشركون بدم بعضهم بعضاً ويمادى بعضهم بعضاً ويقاثل بعضهم بعضاً على فعل من يريد تركاً لحقهم ، أو ظلاماً . فلما جاءهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى حق الله على عباده وطاعة أمره ، واحتجوا بالقدر . فصاروا يحتجون بالقدر على ترك حق ربهم ومخالفة

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩] .

أمره ، بما لا يقبلونه ممن ترك حقهم وخالف أمرهم . وفي الصحيحين^(١) عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا معاذ بن جبل ! أتدرى ما حق الله على عباده ؟ حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ حقهم عليه أن لا يُعَذَّبَ بهم .

فلاحتجاج بالقدر حال الجاهلية الذين لا علم عندهم بما يفعلون ويتركون (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) وهم إنما يحتجون به في ترك حق ربهم ومخالفة أمره ، لا في ترك ما يرونه حقاً لهم ولا في مخالفة أمرهم . ولهذا تجد المحتجين والمستفدين إليه من النساك والصوفية والفقراء والعامة والجند والفقهاء وغيرهم ، يفرّون إليه عند اتباع الظن وما تهوى الأنفس . فلو كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلاً . بل يعتمدون عليه ، لعدم الهدى والعلم . وهذا أصل شريف ، من اعتنى به علم منشأ الضلال والغى لكثير من الناس . ولهذا تجد المشايخ والصالحين المتبعين للأمر والنهى ، كثيراً ما يوصون أتباعهم بالعلم بالشرع . فإن كثيراً ما يعرض لهم إرادات في أشياء ومحبة لها . فيتبعون فيها أهواءهم ظانين أنها دين الله تعالى . وليس معهم إلى الظن والذوق والوجدان الذى يرجع إلى محبة النفس وإرادتها . فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن والحرص . وهم متبعون أهواءهم في الحقيقة . فإذا اتبعوا العلم ، وهو ما جاء به الشارع صلى الله عليه وسلم ، خرجوا عن الظن وما تهوى الأنفس ، واتبعوا ما جاءهم من ربهم وهو الهدى . كما قال تعالى^(٢) (فَأَمَّا يَا يَتَّبِعُكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى عن المشركين في سورة الأنعام والنحل والزخرف كما قال تعالى^(٣) : (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) فتبين أنه لا علم لهم بذلك ، إن هم إلا

(١) أخرجه البخارى في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ١ - باب ما جاء في دعاء النبي صلى

الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث ١٣٧١ وأخرجه مسلم في : ١ -

كتاب الإيمان ، حديث رقم ٥٠ (طبعنا) .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٣] . (٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

يَخْرُصُونَ ، وقال في سورة الأنعام^(١) (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْكَبِيرَةُ) إرسال الرسل وإزال الكتب كما قال تعالى^(٢) : (لَيْسَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) ثم أثبت القدر بقوله : (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْنَكُمُ أَجْمَعِينَ) فأثبت الحجة الشرعية وبين المشيئة القدرية . وكلاهما حق . وقال في النحل^(٣) (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) فبين سبحانه وتعالى - أن هذا الكلام تكذيب للرسل فيما جاءوهم به . ليس حجة لهم . فلو كان حجة لاحتج به على تكذيب كل صدق وفعل كل ظلم . ففي فطرة بنى آدم أنه ليس حجة صحيحة . بل من احتج به احتج لعدم العلم واتباع الظن . كفعل الذين كذبوا الرسل بهذه المدافعة . بل الحجة البالغة لله بإرسال الرسل وإزال الكتب . كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٤) أنه قال : لا أحد أحب إليه العذر في الله . من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين . ولا أحد أحب إليه المدح من الله . من أجل ذلك مدح نفسه . ولا أحد أغير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فبين أنه سبحانه يحب المدح وأن يعذر ويغض الفواحش ، فيجب أن يمدح بالعدل والإحسان . وألا يوصف بالظلم . ومن المعلوم أنه من قدم إلى أتباعه بأن افعلوا كذا ولا تفعلوا . وبين لهم وأزاح عنهم ، ثم تعدوا حدوده وأفسدوا أمورهم ، كان له أن يعذبهم وينتقم منهم . فإذا قالوا : أليس الله قدير علينا هذا ؟ لو شاء الله ما فعلنا هذا . قيل لهم : أنتم لا حجة لكم ولا عندكم ما تعتذرون به ، يبين أن ما فعلتموه كان حسنا ، أو كنتم معذورين فيه . فهذا الكلام غير مقبول منكم .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٩] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٥] . (٣) [١٦ / النحل / ٣٥] .

(٤) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٠ - باب قول النبي ﷺ :

لا شخص أغير من الله ، حديث رقم ٢٥١٨ ، عن المغيرة .

وأخرجه مسلم في : ١٩ - كتاب الامان ، حديث رقم ١٧ (طبعنا) .

وقد قامت الحجة عليكم بما تقدم من البيان والإعذار . ولو أن وليّ أمر أعطى قوماً مالا ليوصلوه إلى بلد ، فسافروا به وتركوه في البرية ليس عنده أحد وباتوا في مكان بعيد منه ، وكان وليّ الأمر قد أرسل جنداً يفتنون بعض الأعداء فاجتازوا تلك الطريق ، فرأوا ذلك المال فظنوه لُقطةً ليس له أحد فأخذوه وذهبوا - لكان يحسن منه أن يعاقب الأولين لتفريطهم وتضييعهم حفظ ما أمرهم به ، ولو قالوا له : أنت لم تعلمنا أنك تبعث بعدنا جنداً حتى يحترز المال منهم ، قال : هذا لا يجب عليّ ، ولو فعلته لكان زيادة إعانة لكم . لكن كان عليكم أن تحفظوا ذلك كما تحفظون الودائع والأمانات . وكانت حجته عليهم قائمة . ولم يكن يدعى فيهم ظالماً . وإن كان لم يُعَيِّنْهم بالإعلام بذلك الجند . لكن عمل المصلحة في إرسال الأولين والآخرين . والله سبحانه وتعالى ، وله المثل الأعلى ، حَكَمٌ عدل في كل ما جعله . ولا يخرج شيء عن مشيئته وقدرته . فإذا أمر الناس بحفظ الحدود وإقامة الفرائض لمصلحتهم ، كان ذلك من إحسانه إليهم وتعريفهم ما ينفعهم . وإذا خلق أموراً أخرى ، فإذا فرطوا واعتدوا بسبب خلقه الأمور الأخرى ، كان عادلاً حكماً في خلق هذا وخلق هذا ، والأمر بهذا والأمر بهذا . وإن كان لم يعدّ الأولين بزيادة يحترسون بها من التفريط والعدوان ، لا سيما مع علمه بأن تلك الزيادة ، لو خلقها لزم منها تقوية مصالحة أرجح ، فإن الضدين لا يجتمعان . والمقصود هنا أنه لا يحتاج أحد بالقدر إلا حجة لتعليل ، لعدم اتباع الحق الذي بيّنه العلم . فإن الإنسان حيٌّ حسّاس متحرك بالإرادة . ولهذا قال النبي ﷺ ^(١) : (أصدق الأسماء . الحارث وهمام) فالحارث الكاسب العامل . والهمام الكثير الهم . والهمّ مبدأ الإرادة والقصد . فكل إنسان حارث هام . وهو المتحرك بالإرادة . وذلك لا يكون إلا بعد الحس والشعور . فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد . فلا يتصور إرادة ولا حب ولا شوق ولا

(١) قال في الجامع الصغير : الشيرازي في (الألقاب والكنى) والطبراني في الكبير

عن عبد الله بن مسعود .

اختيار ولا طلب إلا بعد الشعور وما هو من جنسه . كالحس والعلم والسمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحو هذه الأمور . فهذا الإدراك والشعور هو مقدمة الإرادة والحب والطلب . والحق مفطور على حب ما ينفعه ويلائمه ، وبغض ما يكرهه ويضره . فإذا تصوّر الشيء الملائم النافع ، أراحه وأحبه . وإن تصوّر الشيء الضار أبغضه ونفر عنه . لكن ذلك التصوّر قد يكون علماً وقد يكون ظناً وخرصاً . فإذا كان علماً بأن مراده هو النافع ، وهو المصلحة ، وهو الذى يلائمه ، كان على الهدى والحق . وإذا لم يكن معه علم بذلك ، كان متبعاً للظن ومتهوياً نفسه . فإذا جاءه العلم والبيان بأن هذا ليس مصلحة ، أخذ يحتج بالقدر ، حجة لدّيه وتفريخ ، لاحجة اعتماد على الحق والعلم . فلا يحتج أحد فى باطنه أو ظاهره بالقدر ، إلا لعدم العلم بما هو عليه الحق . وإذا كان كذلك كان من احتج بالقدر على الرسل مقررًا بأن ما هو عليه ليس معه به علم . وإنما تسكّم بغير علم . ومن تسكّم بغير علم كان مبطلًا فى كلامه . ومن احتج بغير علم كانت حجته داحضة . فيما أن يكون جاهلاً ، فعليه أن يتبع العلم . وإما أن يكون قد عرف الحق واتبع هواه ، فعليه أن يتبع الحق ويدع هواه . فتبين أن المحتج بالقدر متبع لهواه بغير علم^(١) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) . انتهى .

وله تنمة سابعة الذيل لا بأس بالوقوف عليها .

وقال القاشانى فى هذه الآية : إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا عن فرط الجهل وإلزاما للموحدين بناء على مذهبهم . إذلو قالوا ذلك عن علم ويقين لكانوا موحدين لا مشركين بنسبة الإرادة والتأثير إلى الغير . لأن من علم أنه لا يمكن وقوع شيء بغير مشيئة من الله ، علم أنه لو شاء كل من فى العالم شيئاً ، لم يشأ الله ذلك ، لم يمكن وقوعه . فاعترف بنفى القدرة والإرادة عما عدا الله تعالى ، فلم يبق مشركا ، قال الله تعالى^(٢) (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَبَتْ الدُّنْيَا) .

(١) [٢٨ / القصص / ٥٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٠٧] .

مَا أَشْرَكُوا) وقوله تعالى^(١) (كَذَّالِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) أى فى تكذيب الرسل بالعناد انتهى .

وقال الإمام مفتى مصر فى تفسير سورة العصر، من هذا البحث مأمثاله : فالعقل والشرع والحسّ والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله . وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ووجود المكفآت ، إنما هو نسبتها إليه . ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه . مما قام عليه الدليل بل كاد يصل إلى البدهة كذلك . ومثل هذا يقال فى عظم قدرة الله تعالى . وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا . فهو أمر نشاهده كل يوم . ندبر شيئاً ، ثم يأتى من الموانع من تحقيقه ما لم يكن فى الحسبان . وتتناول عملائهم تنقطع قدرتنا عن تميمه . كل ذلك لا نزاع فيه . شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل . ولا شبهة فيه عند المؤمنين . فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شئ على النحو الذى يعلمه ، وأن يقرّ بنسبة عمله إليه كما هو بديهىّ عنده . ويعمل بما أمره به ويجتنب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذى يجده من نفسه . وليس عليه بعد ذلك أن يرفع بصره إلى ما وراءه . فقد نعى الله على المشركين قولهم^(٢) (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ) ووردت الأحاديث متواترة المعنى فى النهى عن الخوض فى القدر وسره . فلو صبر العبد حق الصبر ، لوقف عند ما حد الله له ، ولم ينزع بنفسه إلى تعدى حدود الله التى ضربها لعباده . ولست أحب التسكلم فى هذه المسألة بأكثر من هذا . وإلا خرجت من الصابرين ، وخضت فى القدر مع الخائضين . ومن ثار به الهوس فتوهم أن علينا أن نعتقد أن العبد لا فعل له ، فقد خالف كتاب الله وعصى رسول الله . وقد أقول (واعتمادى على الله فيما أقول) إن من يقول ذلك ، يخرج عن دين الله ، ويعطل شرع الله ، فليحذر مؤمن بالله أن يقول ذلك . انتهى .

(١) [١٦ / النحل / ٣٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

وقال في موضع آخر : الاحتجاج على ترك العمل بالقدر من عقائد الملحدین . وقد جاء الكتاب الكريم بتشجيع اعتقادهم والنمى عليهم فيه . وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آباءَنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ)^(١) فلا يسوغ لأحد منا، وهو يدعى أنه مؤمن بالقرآن ، أن يحتج بما كان يحتج به المشركون . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)
 [٣٨] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ » أى من يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره « وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » أى ينصرونهم فى الهداية ، أو يدفعون العذاب عنهم . ثم بين تعالى نوعاً آخر من أباطيلهم ، وهو إنكارهم البعث بقوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ ، جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » أى جاهدين فيها (جهد) مصدر فى موقع الحال « لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى إنه يبعثهم ، فيبتون القول بعدمه ! وإنه وعداً عليه حق ، فيكذبونه - وذلك لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال ، وبما يجوز عليه ومالا يجوز . وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه . وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة . أفاده أبو السعود .

ثم ذكر حكمته تعالى فى المعاد ، وحشر الأجساد يوم التناد ، بقوله سبحانه :

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ)
[٤٠] (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ)

« لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ » وهو الحق ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله
« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ » أى فى أباطيلهم . لاسيما فى إيمانهم بعدم
البعث . ولذا تقول لهم الزبانية يوم القيامة ^(١) (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) ثم
يبين عظيم قدرته ، وأنه لا يعجزه شئ مما بقوله سبحانه « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ
أَنْ نَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ » أى فيوجد على ما شاء تكوينه كقوله تعالى ^(٢) (وَمَا أَمْرُنَا
إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) وقوله ^(٣) (مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) .
قال الزمخشري : (قَوْلُنَا) مبتدأ و (أَنْ نَقُولَ) خبره و (كُنْ فَيَكُونُ) من (كان)
التامة التى بمعنى الحدوث والوجود . أى إذا أردنا وجود شئ فليس إلا أن نقول له : احدث ،
فهو يحدث عقيب ذلك ، لا يتوقف . وهذا مثل . لأن مراداً لا يمتنع عليه . وأن وجوده عند
إرادته تعالى غير متوقف ، كوجود المأمور به عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع
المتثل . ولا قول ثم . والمعنى : إن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة . فكيف
يتمنع عليه البعث الذى هو فى شق المقدورات . انتهى .

قال الشهاب : فسقط ما قيل : إنَّ (كن) إن كان خطاباً مع المعلوم فهو محال . وإن
كان مع الموجود كان إيجاداً للموجود . وفى الآية كلام لطيف مضى فى سورة البقرة ،
فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين الذين فارقوا الدار والأهل والخلان ، رجاء ثوابه
وابتغاء مرضاته ، بقوله :

(١) [٥٢ / الطور / ١٤] . (٢) [٥٤ / القمر / ٥٠] . (٣) [٣١ / لقمان / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ » أى مخلصين لوجهه، أو فى حقه، وهم إما مهاجرة الحبشة الذين اشتدّ أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبش بأمره ﷺ ، وذلك مخافة الفتنة وفراراً إليه تعالى بدينهم، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً سوى صغار أبنائهم، وهى أول هجرة فى الإسلام . ويؤيده كون السورة مكية .

أوهم مهاجرة المدينة ، أخبر به قبل وقوعه أو بعده ، إلا أنها ألحقت بالمكية . وقوله تعالى « مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » أى أودوا وأريد فتنهم عن الدين « لَنَبُوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً » يعنى بالغلبة على من ظلمهم ، وإيرائهم أرضهم وديارهم « وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » يعنى مضطهديهم وظالمهم . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه ، يقول : خذ بارك الله لك فيه . هذا ما وعدك الله فى الدنيا . وما ادخر لك فى الآخرة أفضل . ثم وصفهم تعالى بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٤٣] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ، فَسَئَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[٤٤] (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على ما أودوا فى سبيل الله « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أى فلا

يخشون أحدا غيره . والوصفان المذكوران : الصبر والتوكل ، من أمهات الصفات التي يجب على الداعي إلى الحق ، والمدافع عنه ، أن يكونا خلقاً له . إذ لا ظفر بغاية إلا بهما . ولما عجبوا من إحياء الله لرسوله ، واصطفائه برسائله ، قيل في درء شبهتهم « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ، فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » يعنى أهل الكتاب أو علماء الأخبار . ليعلموكم أنه لم يرسل للدعوة العامة ملك من أهل السماء . فالذكر ، إما بمعنى الكتاب لما فيه من الذكر والعظة ، كقوله (٣) « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ » أو بمعنى الحفظ لأخبار الأمم السالفة . وفى الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يعلم . واستدل بها بعضهم على جواز التقليد فى الفروع للعامى . وفى ذلك بحث طويل فى (إيقاظ الهمم) للفُلاَنِى فارجع إليه إن شئت . وأشار إلى طَرَفٍ منه فى (فتح البيان) .

وقوله تعالى : « يَا لُبَيْبَتِ وَأَلْزُبُرِ » أى بالآيات المبرهنة على صدقهم والكتب المرشدة إلى مصالح الخلق . والجار متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله ، أى أرسلناهم . أو (ما أرسلنا) . أو (بنوحى) أو (لا تعلمون) ، على أن الشرط للتبكيك والإلزام « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ » أى القرآن المذكور والموقف من سنة الغفلة « لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » أى مما أمروا ونهوا ووعدوا وأوعدوا « وَكَعَلَّمَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أى ينظرون لأنفسهم فيهدون فيفوزون بالنجاة فى الدارين . أو يتأملون ما فيه من العبر فيحترزون عما أصاب الأولين . ولذا تأثره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ » أى المكرات السيئات التى قُصَّتْ عنهم . فهى

صفة لمصدر محذوف أو مفعول لـ (مكروا) بتضمينه معنى (عملوا) « أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى من جهة لا يعلمون بها ، كما لا يشعر المكور بقصد الماكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)

[٤٧] (أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[٤٨] (أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ)

« أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيهِمْ » أى سعيهم فى المعاش واستغاثهم بها « فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى لا يمجزون ربهم على أى حال كانوا « أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » أى توقع للهلاك وخافة له ، فإنه يكون أبلغ وأشد . أو تنقص فى أبدانهم وأموالهم وثمارهم حتى يهلكوا . يقال : تخوفه : تنقصه وأخذ من أطرافه « فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » أى حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم بالعقوبة . ثم أخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه بانقياد سائر مخلوقاته ، جمادات وحيوانات ومكلفين من الجن والإنس والملائكة له سبحانه ، بقوله : « أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » أى جسم قائم له ظل « يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ » أى يرجع شيئاً فشيئاً « عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ » أى عن جانبي كل واحد منها ، بُكْرَةً وَعَشِيًّا « سُجَّدًا لِلَّهِ » أى منقاداً له على حسب مشيئته فى الامتداد والتقلص وغيرها ، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له « وَهُمْ دَاخِرُونَ » أى صاغرون . وغلب فى جمعها من يميل ، فأتى بالواو . أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء . فهو إما تغليب أو استعارة : وكذا ضمير (هم) أيضاً لأنه مخصوص بالعقلاء . فيجوز أن يعتبر ما ذكر فيه ، ويجعل ما بعده جارياً على المشاكلة .

لطيفة : لابن الصائغ في سر توحيد اليين وجمع الشوائب توجيهه لطيف . وماخصه أنه نظر إلى الغاية فيهما . لأن ظل الغداة يضمحل بحيث لا يبقى منه إلا اليسير . فكأنه في جهة واحدة . وهو في العشي على العكس ، لاستيلائه على جميع الجهات . فلحظت الغائتان . هذا من جهة المعنى .

وأما من جهة اللفظ فجمع ليطابق (سجداً) المجاور له . كما أفرد الأول لمجاورة ضمير (ظلاله) وقدم الأفراد لأنه أصل أخف . و (عَنِ الْيَمِينِ) متعلق بـ (يتقيؤ) أو حال . كذا في (العناية) .

ثم بين سجود سائر المخلوقات سواء كانت لها ظلال أم لا ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

(سجدة) [٤٩] (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ » أي الملائكة ، مع علو شأنهم « لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أي عن عبادته والسجود له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

« يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » أي من الطاعات والتدبير . واستدل بقوله (مِنْ فَوْقِهِمْ) على ثبوت الفوقية والعلو ، له تعالى . وقد صنف في ذلك الحافظ الذهبي كتاب (العلو) وابن القيم كتاب (الجيوش الإسلامية) وغيرها . وأطنب فيها الحكيم ابن رشد في (مناهج الدولة) فليرجع إليها . وكلهم متفقون على أنه علو بلا تشبيه ولا تمثيل . وانفرد السلف بحظر التأويل والتعطيل . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَإِئْسَى فَارְهَبُونَ)

« وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِئْسَى فَارْهَبُونَ » .
إعلام بنبيه الصريح عن الإشراف . وبأمره بعبادته وحده ، وإنما خصص هذا العدد لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة . فإن قيل : الواحد والمثنى نص فى معناهما ، لا يحتاج معهما إلى ذكر العدد ، كما يذكر مع الجميع . أى فى نحو رجال ثلاثة وأفراس أربعة ، لأن العدود عار عن الدلالة على العدد الخاص ، فلم يذكر العدد فيهما ؟ أجيب بأن العدد يدل على أمرين : الجنسية والعدد المخصوص . فلما أريد الثانى صرح به للدلالة على أنه المقصود الذى سيق الكلام وتوجه له النهى دون غيره . فإنه قد يراد بالمفرد الجنس نحو : نعم الرجل زيد . وكذا المثنى كقوله ^(١) :

فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها الكلام

وقيل : ذكر العدد للإيماء بأن الاتينية تنافى الألوهية . فهو فى معنى قوله ^(٢) (لَوْ كَانَ

(١) قائله نصر بن سيار . من أربعة أبيات ، يحسن الوقوف عليها ، ومعرفة سبب قولها .

قال ابن قتيبة فى (عيون الأخبار) بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثانى .

كان يزيد بن عمر بن هبيرة يحب أن يضع من نصر بن سيار . فكان لا يمدّه بالرجال ، ولا يرفع ما يرد من أخبار خراسان . فلما كثر ذلك على نصر ، قال :

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام

والبيت ...

فإن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام

فقلت من التعجب : ليت شعرى ! أيقاظ أمية أم نيام

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

فِيهِمْ مَاءَ الْهِمَّةِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (فلذا صرح بها ، وعقبت بذكر الوحدة التي هي من لوازم الألوهية .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل الضمير للمعبود بحق المراد من الجلالة على طريق الاستخدام .

وقوله تعالى : (وَقَالَ اللَّهُ) معطوف على قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ) أو على قوله (وَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الذِّكْرَ) وقيل : إنه معطوف على (مَا خَلَقَ اللَّهُ) على أسلوب^(١) * عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا * .

(١) وعجز البيت :

* حَتَّى غَدَتْ هَمَالَةً عَيْنَاهَا *

الشاهد رقم ١١٥ من شرح شذور الذهب لابن هشام .

قال صاحب (منتهى الأرب) :

لم أقف لهذا الشاهد على نسبة إلى قائل معين . ويروى صدره عَجْزًا في بيت آخر ، هكذا :

لَمَّا حَطَّطُ الرِّحْلَ عَنْهَا وَارِدًا عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا

الشاهد فيه قوله (وماء) فإنه لا يمكن عطفه على ما قبله ، العامل في المعطوف عليه ،

لا يصح تسليطه على المعطوف مع بقاء معناه على حاله .

وللعلماء ثلاثة آراء في تخريج هذا البيت ونحوه :

أحدها - أن قوله : (وماء) لا يجوز أن يكون مفعولا معه ، كما لا يجوز أن يكون معطوفا

على ما قبله عطف مفرد على مفرد . بل هو مفعول لفعل محذوف يناسبه . وهذا الوجه هو الذي

ذكره المؤلف ههنا .

وانظر مزيدا في ذلك بالصفحة رقم ٢٤١ .

أى : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ) ولم يسمعوا ما قال الله ؟ . ولا يخفى تكلفه .
وفى قوله (فَأَيُّ فَاْرَهُبُونَ) التفات عن الغيبة ، مبالغة فى الترهيب . فإن تخويف الحاضر
مواجهة ، أبلغ من ترهيب الغائب ، لاسيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة
والقدرة التامة على الانتقام . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥٢] (وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)
[٥٣] (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ)
[٥٤] (ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)
[٥٥] (لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ ، فَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » معطوف على قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ) أو على
الخبر ، أو مستأنف . « وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا » أى العبادة لازمة له وحده . ولزومها له بنا فى خوف
الغير ، إذ يقتضى تخصيصه تعالى بالرهبة والخشية ، وهذا كقوله ^(١) : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ
يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) .
« أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ » أى وهو مالك النفع والضر . « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ
اللَّهِ » أى فمن فضله وإحسانه « ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ » أى لاتتضرعون
إلا إليه ، لعلكم أنه لا يقدر على كشفه إلا هو سبحانه . والجوار : رفع الصوت . يقال :
جأر إذا أفرط فى الداء والتضرع ، وأصله صياح الوحش .

« ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » أى بنسبة
النعمة إلى غيره ورؤيتها منه . وكذا بنسبة الضر إلى الغير ، وإحالة الذنب فى ذلك عليه ،

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] .

والاستعانة في رفعه به . وذلك هو كفران النعمة ، والغفلة عن المنعم المشار إليهما بقوله :
 « لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ » أى من نعمة الكشف عنهم . واللام للعاقبة والصورورة
 « فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى وبال ذلك الكفر . وفيه إشعار بشدة الوعيد ، وأنه
 إنما يعلم بالمشاهدة ، ولا يمكن وصفه ، فلذا أبهم .

وللقاشاني وجه آخر قال : أو فسوف تعلمون ، بظهور التوحيد ، أن لا تأثير لغير الله في
 شيء . ثم بين تعالى من مثالب المشركين قوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا
 كُنتُمْ تَفْتَرُونَ)

[٥٧] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)

« وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ » . أى لآلهتهم التى لا علم لها لأنها جاد « نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ »
 أى من الزرع والأنعام وغيرها تقربا إليها « تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ » أى :
 من أنها آلهة يُتَقَرَّبُ إليها . ومرة نظير الآية في سورة الأنعام في قوله سبحانه (١) « وَجَعَلُوا لِلَّهِ
 مِثْلًا دَرًا مِنْ الْحَرِثِ وَأَلْأَنعَمَ نَصِيبًا » الآية ، فانظر تفصيلها ثمّت « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ
 سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » هذا بيان لعظيمة من عظائمهم ، وهو جعلهم الملائكة الذين
 هم عباد الرحمن بنات لله ، فنسبوا له تعالى ولدا ولاولد له . واجترأوا على التفوه بمثل ذلك وعلى نسبة
 أدنى القسمين له من الأولاد ، وهو البنات . وهم لا يرضونها لأنفسهم لأنهم يشتهون الذكور ،
 أى يختارونهم لأنفسهم ويأثقون من البنات . وقد نزهه مقامه الأقدس عن ذلك بقوله (سُبْحَانَهُ) و
 أى عن إفكهم وقولهم . وفيه تعجيب من جراتهم على التفوه بهذا المنكر من القول ،
 ومن مقاسمتهم لجلاله بالاستثثار كما قال سبحانه (٢) « أَأَكْفُرُ الْكَرُّ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذَا

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٦] . (٢) [٥٣ / النجم / ٢١ و ٢٢] .

قِسْمَةُ ضَيْرَى) وقال تعالى (١) (أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ثم أشار إلى شدة كراهتهم للإناث ، بما يمثل عظم تلك النسبة إلى الجنب الأقدس وفضاعتها ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

[٥٩] (يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيَسْكُتُ عَلَىٰ هُونٍ

أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ » أى صار أو دام النهار كله « مُسْوَدًّا »

أى متغيراً من الغم والحزن والغيظ والكراهة التى حصلت له عند هذه الإشارة . وسواد الوجه وبياضه يعبر به عن المساءة والمسرة ، كنايةً أو مجازاً . « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مشتد الغيظ على امرأته لأنه ، بزعمه ، حصل له منها ما يوجب أشد الحياء حتى أنه « يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ » أى يستخفى منهم « مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ » أى من أجله وخوف التعيير به . ثم يفكر فيما يصنع به ، وهو قوله تعالى « أَيَسْكُتُ عَلَىٰ هُونٍ » أى محدثاً نفسه متفكراً فى أن يتركه على هوان وذلل ، لا يورثه ولا يعتنى به ، ويفضل ذكر ولد له عليه « أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ » أى يخفيه ويدفنه فيه حياءً « أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى حيث يجعلون الولد ، الذى هذا شأنه من الحقارة والهون عندهم ، لله تعالى وتقدس . ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف . وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥١-١٥٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى مثل من ذكرت مساوئهم « مَثَلُ السَّوْءِ » أى صفات الذل من الحاجة إلى الأولاد وكراهة الإناث ووأدهن ، خشية الإملاق ، المناهى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ . ووضع الموصول موضع الضمير ، للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » أى الوصف العالى الشأن ، وهو الغنى عن العالمين . والكمال المطلق والتقدس عن سمات المخلوقين : « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

ثم أخبر تعالى عن حلمه بخلقهم ، مع ظلمهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى آجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

[٦٢] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ)

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ » أى بكفرهم ومعاصيهم التى منها ما عدد من المساوئى المقدمة « مَا تَرَكَ عَلَيْهَا » أى على الأرض المدلول عليها بالناس ، ويقول تعالى : « مِنْ دَابَّةٍ » أى لأهلكها بالمرّة بشؤم ظلم الظالمين « وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى آجَلٍ مُّسَمًّى »

أى وقت معين تقتضيه الحكمة . يستغفر منهم من يستغفر فيغفر له ، ويصرّ من يصرّ فيزداد عذاباً « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ » أى المسمى « لَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ » أى ينسبون إليه « مَا يَكْرَهُونَ » أى من البنات ومن الشركاء . وهم يأفكون من الأولى كما يكرهون مشاركة أحد لهم فى مألمهم . وهو تكرير لما سبق ، ثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى :

« وَتَصِفُ أَسِنَّتَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى » أى يجعلون لله ذلك ، مع دعواهم أن لهم العاقبة الحسنى عند الله ، إن كان ثم معاد . كما قصه تعالى عنهم بقوله ^(١) (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُوَّ لِلْحُسْنَى) يعنى جمّع هؤلاء بين عمل السوء وتمنّى المحال ، بأن يجازوا على ذلك حسناً .

وقد روى أنه وجد فى أحد أحجار الكعبة ، لما جدّدت ، مكتوباً (تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتِ . أجل . كما يجتنى من الشوك العنب) و (أَنَّ لَهُمُ) الخ بدل من (الكذب) أو بتقدير بأن لهم .

قال الشهاب : قوله تعالى (وَتَصِفُ أَسِنَّتَهُمُ الْكَذِبَ) من بليغ الكلام وبديعه كقولهم : (عينها تصف السحر) أى ساحرة . وقدها يصف الهيف ، أى هيفاء . قال أبو العلاء المعرى ^(٢) :

سَرَىٰ بَرَقُ الْمَعْرَةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلاَلَا

(١) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٢) البيت الأربعون من قصيدته التى مطلعها :

أَعْنُ وَخَرِ الْقَلَاصِ كَشَفَتْ حَالَا وَمِنْ عِنْدِ الظُّلَامِ طَلَبْتُ مَا لَا

(بعد وهن) أى بعد طائفة من الليل . و (معرّة النعمان) بالشام . و (رامة) موضع

بعينه . يقول : لما حللنا برامة مغرباً ، نظرنا إلى برق سرى من جانب الشام من صوب =

ثم ردّ كلامهم وأثبت ضده بقوله سبحانه « لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ »
 أى معجلون إليها ومقدّمون . من (الفرط) وهو السابق إلى الورد . يقال: أفرطته فى طلب
 الماء إذا قدمته . أو متروكون منسيون فى النار . من (أفرطته) بمعنى تركته ونسيته ، على
 ما حكاه الفراء . كقوله تعالى^(١) : (فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) وقرأ
 نافع (مُفْرَطُونَ) بكسر الراء . اسم فاعل من (أفرط) إذا تجاوز أى متجاوز الحد
 فى معاصى الله . وقرأ أبو جعفر بكسر الراء المشددة من (فرط فى كذا) إذا قصر . ويقرب
 من الآية ما قص عنهم فى قوله تعالى^(٢) (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّمَّا مِنْ بَعْدِ ضَرِّ آءِ مَسَّتْهُ
 لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّى إِنَّ لىٰ عِنْدَهُ وَلِّحُسْنَىٰ ،
 فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) وقال تعالى^(٣) (وَدَخَلَ
 جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
 قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا) .

ثم ذكر تعالى نعمته فى إرسال الرسل وتكذيب أممهم ، ليقامى صلوات الله عليه بهم
 بقوله سبحانه :

= معرفة النعمان ، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف السلال ، أى يشكو ضعفه ، لأنه
 قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .
 انظر شرح التنوير على سقط الزند ، بالصفحة رقم ٢٣ من الجزء الأول (طبعة بولاق
 عام ١٢٨٦ هـ) .

(١) [٧ / الأعراف / ٥١] . (٢) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٣) [١٨ / الكهف / ٣٥ و ٣٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ
فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
[٦٤] (وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ » أى من
الكفر والتكذيب والعناد « فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ » أى قرينهم ، يُغْوِيهِمْ . أو المراد باليوم يوم
القيامة . والولى بمعنى الناصر . وجعله ناصراً فيه ، مع أنهم لا ينصرون ، مبالغة في نفيه ،
وتهمهم ، على حدّ (عنا به السيف) « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » * وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ
لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ « أى فالتقرّر أنّ هو الفرقانُ الفاصل بين الحق والباطل ، وكل
ما يتنازع فيه « وَهُدًى » أى للقلوب « وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ثم أشار إلى عظيم قدرته
في آياته الكونية الدالة على وحدانيته ، إثرَ قدرته في إحياء القلوب الميتة بالكفر ، بما أنزله
من وحيه وهدايه ورحمته ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَاللّٰهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)
[٦٦] (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ
فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)
« وَاللّٰهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » أى

بالنبات والزرع، بعد جذبها وبيسها «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أى هذا التذكير، ويعقلون وجه دلالة «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تُمْسِكُكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ» وهو ما فى الكرش من الفضل «وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرَّيْنِ» أى سهل المرور فى حلقهم .

يَبين تعالى آيته فى الأنعام بما ذكر، ليستدل به على واحدانيته وانفراده بالالوهية . وليستدل به أيضاً على الحشر . فإن العشب الذى يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والتراب . فقلب الطين نباتاً وعشباً ، ثم تبدله دماً فى جوف الحيوان ، ثم تحويله إلى لبن ، أعظم عبرة على قدرته تعالى على قلب هذه الأجسام الميتة من صفة إلى صفة . وإنما ذكر الضمير فى بطونه هنا ، وأنته فى سورة المؤمنين ، لكون الأنعام اسم جمع ، فيذكر ويفرد ضميره ، باعتبار لفظه . ويؤنث ويجمع باعتبار معناه . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ،
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

«وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» . بيان لآيته تعالى فى الثمرات المذكورة ، ومنته فى المشروب منها والمطعموم . (السَّكْرُ) مصدر سمي به الخمر . فهو بمعنى السكر كالرشد والرشد . قال الفراء : السكر الخمر نفسها . والرزق الحسن الزبيب والتمر وما أشبههما ، ولا يقال : الخمر محرمة ، فكيف ذكرها الله فى معرض الإنعام ؟ لأن هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة . فكان نزول هذه الآية فى الوقت الذى كانت الخمر فيه غير محرمة . وأجاب الرازى بجواب ثان .

وهو : أنه لاجابة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع . وخطب الشركين بها . والخمر من أشربتهم . فهي مففعة في حقهم .
قال : ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية أيضاً على تحريمها . وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب أن لا يكون السكر رزقاً حسناً . ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال : الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة . وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن كثير : دلت الآية على التسوية بين المسكر المتخذ من الفخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب الجمهور .

وفي (فتح البيان) : قد حمل السكر جماعة من الحنفية على مالا يسكر من الأنبذة ، وعلى مذهب ثلثاه بالطبخ حتى يشتد إلى حد السكر . كما في (الكشف) .

قالوا : إنما يمتن الله على عباده بما أحله لا بما حرمه عليهم . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر . انتهى .

وليس هذا موضع بسط ذلك . قال ابن كثير : وقد ناسب ذكر العقل ههنا في قوله تعالى : (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فإنه أشرف ما في الإنسان . ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأثربة المسكرة صيانة لعقولها . انتهى .

ولما بين تعالى أن إخراج الألبان من النعم ، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعقاب ، دلائل قاهرة وبيّنات باهرة ، على أن لهذا العالم إلهاً واحداً قادراً مختاراً حكماً .. أرشد إلى آيته الساطعة في النحل أيضاً ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[٦٩] (ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ، يَخْرُجُ مِنْهَا طَائِفَةٌ شَرِبَتْهُ خُتِلَفَ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » المراد من الوحي الإلهام والهداية إلى بنائها تلك البيوت العجيبة المسدسة ، من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض ، مما لا يمكن مثله للبشر إلا بأدوات وآلات . وقد أرشدها تعالى إلى بنائها بيوتاً تأوى إليها في ثلاثة أمكنة : الجبال . والشجر . وبيوت الناس ، حيث يعرشون أى يبنون العروش ، جمع (عرش) وهو البيت الذى يستظل به كالعرش . وليس للنحل بيت فى غير هذه الأمكنة : الجبال والشجر وبيوت الناس . وأكثر بيوتها ما كان فى الجبال وهو المتقدم فى الآية ثم فى الشجر دون ذلك ثم فى الثالث أقل .

فالنحل إذاً نوعان : جبلية تسكن فى الجبال والفيافي لا يتعمدها أحد من الناس . وأهلية تأوى إلى البيوت وتتعهد فى الخلایا . ومن بدیع الإلهام فيها اتخاذها البيوت قبل المرعى . فهى تتخذها أولاً . فإذا استقر لها بيت خرجت منه ، فرعت . وأكلت من الثمرات . ثم أوت إلى بيوتها . وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : « ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ » أى من كل ثمرة تشبهها ، حلوها ومرها . فالعموم عرفى ، أو لفظ (كل) للتكثير . أو هو عام مخصوص بالعادة . ولو أبقى الأمر على ظاهره لجاز . لأنه لا يلزم من الأمر بالأكـل من جميع الثمرات ، ألاكل منها . لأن الأمر للتخلية والإباحة .

لطيفة : إنما أوثر (من) في قوله تعالى (مَنْ أَعْجَبَالِ) الخ ، على (في) دلالة على معنى التبعية . وأن لا تبنى بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ، ولا في كل مكان منها .
نبه عليه الزمخشري .

قال الناصر : ويتبين هذا المعنى الذي نبه عليه في تبعية (من) المتعلقة باتخاذ البيوت . بإطلاق الأكل . كأنه تعالى وَكَلَّ الأكل إلى شهوتها واختيارها . فلم يحجر عليها فيه ، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض . لأن مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمرار مشتهاها منه . وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع . ولهذا المعنى دخلت (ثم) لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت ، والإطلاق لها في تناول الثمرات . كما تقول راع الحلال فيما تأكله ، ثم كل أى شئ شئت . فتوسط (ثم) لتفاوت الحجر والإطلاق . فسبحان اللطيف الخبير .

وقوله تعالى « فَاسْأَلْكُمْ سُبُلَ رَبِّكُمْ ذُلًّا » أى الطرق التى ألهمك وأفهمك فى عمل العسل . فالسبل مجاز عن طرق العمل وأنواعها أو على حقيقتها . أى إذا أكلت الثمار فى المواضع النائية فاسلكى راجعة إلى بيوتك ، سبل ربك ، لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها . و (ذللاً) جمع ذلول ، حال من (السبل) أى مذلة ذللها الله لك وسهلها . فهى تسلك من هذا الجو العظيم . والبرارى الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة . ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة . وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ » استئناف ، عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من عجيب صنعه تعالى ، تعديداً للنعم ، وتنبيها على العبر ، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة من هذا الحيوان الضعيف . وسمى العسل شراباً ، لأنه يشرب مع الماء وغيره « مُخْتَلَفٌ أَلْوَنُهُ » أى فمه أبيض وأصفر وأحمر ، لاختلاف ما يؤكل من الثور أو مزاجها « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » لأنه من جملة الأشفية والأدوية فى بعض الأمراض . وله دخل فى أكثر ما به الشفاء والمعالجين . وقل

ممعجون من المعاجين ، لم يذكر الأطباء فيه العسل . وقد قام الآن مقامه السكر ، لكثرة النسبة إليه . وفي الصحيحين^(١) عن أبي سعيد الخدري ، رضى الله عنه ، أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال : اسقه عسلاً . فذهب فسقاه عسلاً فقال : يا رسول الله ! سقيته عسلاً ما زاده إلا استطلاقاً . قال : اذهب فاسقه عسلاً فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال : يا رسول الله ! ما زاده إلا استطلاقاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلاً . فذهب فسقاه عسلاً فبرأ .

قال ابن كثير . قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات . فلما سقاه عسلاً وهو حارّ تحللت فأسرعت في الاندفاع ، فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره ، وهو مصالحة لأخيه . ثم سقاه فازداد التحليل والدفع . ثم سقاه فكذلك . فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرّة بالبدن ، استمسك بطنه ، وصالح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته عليه الصلاة والسلام . انتهى .

وفي (الغاية) للشهاب هنا ، قصة عن طبقات الأطباء ، فيها تأييد لقصة الأعرابي فانظرها .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فيعتبرون ويستدلون على وحدانيته سبحانه ، وانقراده بالوحيته . وأنه هو الذى ألهم هذه الدواب الضعيفة فعلت مساقط الأنداء ، من وراء البيداء ، فتقع على كل حرارة عبقة ، وزهرة أنفة ، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضاها ، وتلفظه شرباً .

(١) أخرجه البخارى في : ٧٦ - كتاب الطب ، ٤ - باب الدواء بالعسل ، وقول الله

تعالى : (فيه شفاء للناس) حديث ٢٢٥١ .

وأخرجه مسلم في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث رقم ٩١ (طبعنا) .

قال الحجة الغزالي (في الإحياء) : انظر إلى النحل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا . وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل . وجعل أحدهما ضياءً والآخر شفاءً . ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها من النجاسات والأقدار ، وطاعتها لواحد من جملة ما هو أكبرها شخصاً وهو أميرها ، ثم ما سخر الله لأمرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقول منها على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة - لقضيت من ذلك العجب إن كنت بصيراً في نفسك ، وفارغاً من هم بطنك وفرجك ، وشهوات نفسك في معاداة أقرانك ، وموالاته إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك ، وانظر إلى بنيانها بيتاً من الشمع ، واختيارها من جميع الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبنى بيتها مستديراً ولا مربباً ولا مخمساً بل مسدساً لخاوية في الشكل المسدس ، يقصر فهم المهندس عن درك ذلك . وهو أن أوسع الأشكال وأحوالها المستدير وما يقرب منه . فإن المربع تخرج منه زوايا ضائعة . وشكل النحل مستدير مستطيل . فترك المربع حتى لا تبقى الزوايا فارغة . ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة . فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراسة . ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير . ثم تتراص الجملة منه بحيث لا تبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس . وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل ، على صغر جرمه ، ذلك . لطفاً به وعناية بوجوده فيما هو محتاج إليه . لينها عيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه . وفي طبعه أنه يهرب بعضه من بعض ويقاتل بعضه بعضاً في الخلايا ويلسع من دنا من الخلية . وربما هلك الملسوع . وإذا أهلك شيء منها داخل الخلايا أخرجه الأحياء إلى خارج . وفي طبعه أيضاً النظافة . فلذلك يخرج رجليه من الخلية لأنه منتن الريح . وهو يعمل زمانى الربيع والخريف . والذي يعمل في الربيع أجود . والصغير أعمل من الكبير . وهو يشرب من الماء ما كان صافياً عذبا . يطلبه حيث كان . ولا يأكل من العسل إلا قدر شبعة . وإذا قلّ العسل في الخلية ، قذفه بالماء ليكثر ، خوفاً على نفسه من نقاده لأنه إذا نفذ أفسد النحل بيوت الملوك وبيوت الذكور . وربما قتلت ما كان منها هناك .

قال حكيم من اليونان لتلامذته : كونوا كالنحل في الخلايا . قالوا : وكيف النحل في الخلايا ؟ قال : إنها لا تترك عندها بطالاً إلا نفقة وأبعدته وأقصته عن الخلية . لأنه يضيق المكان ، ويفنى العسل ، ويعلم النشيط الكسل .

والنحل يساخ جلدّه كالحيات . وتوافقه الأصوات اللذيذة المطربة ، ويضره السوس . ودواؤه أن يطرح له في كل خلية كف ملح . وأن يفتح في كل شهر مرة . ويدخن بأخشاء البقر . وفي طبعه أنه متى طار من الخلية ، يرعى ثم يعود ، فتعود كل نحلة إلى مكانها لا تخطئه . كذا في (حياة الحيوان) .

وذكر الإمام الغزالي أيضاً في كتاب (الحكمة في خلق المخلوقات) : أن الله تعالى جعل للنحل رئيساً يتبعه وتهتدى به فيما تناله من أقواتها . فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه ، قتل أحدهما الآخر . وذلك لمصلحة ظاهرة ، وهو خوف الافتراق . لأنهما إذا كانا أميرين ، وسلك كل واحد منهما فجاً ، افرق النحل خلفهما . ثم إنها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار . فيستحيل في أجوافها عسلاً . فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد ، من شراب فيه شفاء للناس . كما أخبر سبحانه وتعالى . وفيه غذاء وملاذ العباد . وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بني آدم . فهي مثل ما يفضل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها . وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس . ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع في أرجلها ، لتوعى فيه العسل وتحفظه . فلا تسكاد تجدد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الأجناس . فانظر في هذه الذبابة ، هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل ؟ أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانتها في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها ! ثم انظر لخروجها نهراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ، ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ،

ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعدا عن مواضع العسل . وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه .

قال أبو السعود : ولما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل ، أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته فيما بين ذلك . وقد ضبطوا مراتب العمر في أربع : الأولى سنّ النشوء والنماء . والثانية سنّ الوقوف وهي سن الشباب . والثالثة سنّ الانحطاط القليل وهي سن الكهولة . والرابعة سن الانحطاط الكبير وهي سن الشيخوخة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ

لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

[٧١] (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي

رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

« وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ » أى أنشأكم من العدم « ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى

أَرْدَلِ الْعُمُرِ » أى أضعفه وأردئه وهو الهرم . وقوله تعالى « لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا »

اللام للصيرورة والعاقبة . أى فيصير ، إن كان عالما ، جاهلا . فيريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم إلى الجهل ، أنه قادر على إحيائه بعد إماتته .

قال في (العناية) : وكونه غير عالم بعد علمه ، كذاية عن النسيان . لأن الناسي يعلم

الشيء ثم ينساه ، فلا يعلم بعد ما علم . أو العلم بمعنى الإدراك والتعقل ، والمعنى لا يترق في إدراك عقله وفهمه ؛ لأن الشاب في الترقى ، والشيخ في التوقف والنقصان .

وفي (الكشف) : ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية في النسيان . وأن يعلم شيئا ثم

يسرع في نسيانه ، فلا يعلمه إن سئل عنه . وقيل لثلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً ، وقيل لثلا يعلم زيادة علم على علمه الأول . و (شيئاً) منصوب على المصدرية أو المفعولية . وجوز فيه التنازع بين (يعلم) و (علم) وكون مفعول (علم) محذوفاً لقصد العموم . أى لا يعلم شيئاً ما بعد علم أشياء كثيرة .

« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ » أى : جعلكم متفاوتين فيه ، فرزقكم أفضل مما رزق ممالئكم ، وهم بشر مثلكم « فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا » أى فى الرزق ، وهم الملاك « بِرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ » أى بمعطيتهم إياه « فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ » أى فيستووا مع عبيدهم فى الرزق .

والآية مثل ، ضرب للذين جعلوا له تعالى شركاء . أى أنتم لاتسبون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم . ولا تجعلونهم فيه شركاء . ولا ترضون ذلك لأنفسكم . فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء فى الإلهية والتعظيم ؟ كما قال فى الأخرى ^(١) (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَّكُمْ مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) الآية .

« أَفَنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » أى فيشركون معه غيره وهو المنعم عليهم . أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ما أنعم بها عليهم . فإنه لا نعمة على العالم أجل من إقامة الحجج وإيضاح السبل بإرسال الرسل .

(١) [٣٠ / الروم / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

[٧٣] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٧٤] (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » أى فى جنسكم وشكلكم إناثا أزواجا لتأنسوا بها وتحصل المودة والألفة والرحمة « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً » أى بنات وأولاد أولاد « وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ » وهو منفعة الأصنام وشفاعتها « وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ » أى فى إضافة نعمه إلى الأصنام، أوفى تحريم ما أحل لهم « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا » أى من مطر أو نبات و(شيئا) نصب على المفعولية من (رزق) إن كان مصدرا. وإن جعل اسما للرزوق فـ (شيئا) بدل منه بمعنى قليلا . و (من السموات) متعلق بـ (يملك) على كون الرزق مصدرا . أو هو صفة لـ (رزقا) « وَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى أن يتملكوه . أو لا استطاعة لهم أصلا . أو الضمير للمشركين . أى ولا يستطيعون ، مع أنهم أحياء متصرفون ، فكيف بالجماد ؟

« فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ » أى فلا تجعلوا له أندادا وأمثالا . والضرب للمثل فيه معنى الجعل . والأمثال جمع (مثل) بكسر فسكون على هذا ، وقيل جمع (مثل) بفتحتين والآية استعارة تمثيلية للإشراك به . حيث جعل المشرك به الذى يشبهه بخلقه ، بمنزلة ضارب المثل .

فإن المشبه المخذول يشبه صفة بصفة ، وذاتاً بذات . كما أن ضارب المثل كذلك . فكأنه قيل : ولا تشركوا . وعدل عنه لما ذكر ، دلالة على التعميم في النهي عن التشبيه وصفاً وذاتاً . وفي لفظة (الأمثال) لمن لا مثال له ، نعت عظيم على سوء فعلهم . كذا في (شرح الكشاف) .

« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أي يعلم قبح ما تشركون وأنتم لا تعلمونه . ولو علمتموه لما جراتم عليه ، فهو تعليل للنهي . أو يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه . فدعوا رأيكم وقياسكم دون نصه . ولما نهاهم عن ضرب المثل الفعلي وهو الإثراك ، عقبه بالكشف لذي البصيرة ، عن حالهم في تلك الغفلة ، وحال من تابِعهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »
يعنى أن مثل هؤلاء في إشراكهم ، مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حر مالك يتصرف في ماله كيف يشاء . ولا مساواة بينهما . مع أنهما سيان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى . فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات . وإيثار قوله : (وَمَنْ رَزَقْنَاهُ) الخ على (مالكاً) للتنبيه على أن ما بيده ، هو من فضل الله ورزقه ، وعلى تذكيه الإنفاق منه في السر والجهر ، ليكون عاملاً بأمر الله فيه .

وقوله تعالى (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ) أى على ما هدى أوليائه وأنعم عليهم من التوحيد . أو الحمد كله له لا يستحقه شيء من الأصنام . أو الحمد لله على قوة هذه الحجة وظهور المحجة . وأكثرهم لا يعلمونها ، مع أنها فى غاية ظهورها ونهاية وضوحها .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا » أى مثلاً آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه أوضح « رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ » أى أخرس « لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ » أى مما يقدر عليه المنطق المفسح عما فى نفسه « وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ » أى ثقل على من يلى أمره ، لعدم اهتمامه بإقامة مصالح نفسه « أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ » أى حيث يرسله فى أمر لا يأتى بنجحه وكفاية مهمه « هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ » أى ومن هو بليغ منطق ذو كفاية ورشد لينفع الناس ، بحثهم على العدل الشامل لجميع الفضائل .

« وَهُوَ » أى فى نفسه مع ما ذكر من نفعه العام « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى على سيرة صالحة ودين قويم ، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعى وأسهله .

قال الأزهري : ضرب تعالى مثلاً للصنم الذى عبدوه وهو لا يقدر على شيء ، فهو كَلٌّ على مولاه . لأنه يحمله إذا ظعن فيجوله من مكان إلى مكان . فقال الله تعالى : هل يستوى هذا الصنم الكل ، ومن يأمر بالعدل ؟ استفهام معناه التوبيخ ، كأنه قال لا تسوا بين الصنم الكل وبين الخالق جل جلاله . انتهى .

وإليه أشار الزمخشري بقوله : وهذا مثل ضربه الله لنفسه ، ولما يفيض على عباده ويشملهم مع آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدينية ، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع . انتهى .

وناقش الرازي في حمله على الصنم بأن الوصف بالرجل وباليد وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع ، يمنع من حملها على الوثن . وكذا الوصف في الثاني بأنه على صراط مستقيم ، يمنع من حمله على الله تعالى . انتهى .

وقد يقال في جوابه بأن الأوصاف الأول ، وإن كانت ظاهرة في الإنسان (والأصل في الإطلاق ما يتبادر وهو الحقيقة) إلا أن المقام صرفها إلى الوثن . لأن الآيات في بيان حقارة ما يعبد من دونه تعالى ، وكونه لا يصلح للألوهية بوجه ما ، لما فيه من صفات النقص . وأما الوصف في قوله (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فكقوله تعالى^(١) : (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فصح الحمل .

ثم رأيت للإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) ما يؤيد ما اعتمدناه حيث قال ، في بحث أمثال القرآن ، في هذين المثليين ما صورته :

فالمثل الأول . يعني قوله تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا) الآية ، ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان . فالله سبحانه هو المالك لكل شيء . ينفق كيف يشاء على عبده سرّاً وجهراً وليلاً ونهاراً . يمينه ملأى لا يغيضها نفقة . سحاء الليل والنهار . والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء إلى ويعبدونها من دونه ، مع هذا التفاوت العظيم والفرق البين ؟ هذا قول مجاهد وغيره .

وقال ابن عباس : هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه حسناً فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرّاً وجهراً . والكافر بمنزلة عبد مملوك

(١) [١١ / هود / ٥٦] .

عاجز لا يقدر على شيء . لأنه لاخير عنده . فهل يستوى الرجلان عند أحد من العقلاء؟ والقول الأول أشبه بالمراد . فإنه أظهر في بطلان الشرك ، وأوضح عند المخاطب ، وأعظم في إقامة الحجة وأقرب نسباً بقوله ^(١) : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ثم قال : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ) ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقاً حسناً . والكافر المشرك كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء . فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه . فذكره ابن عباس منبهاً على إرادته . لا أن الآية اختصت به . فتأمله فإنك تجده كثيراً في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن . فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التى لا معنى لها غيره ، فيحكيه قوله . وأما المثل الثانى ، فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضاً . فالصنم الذى يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق . بل هو أبكم القلب واللسان . قد عدم النطق القلبى واللسانى ، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة . وعلى هذا فأينما أرسلته لا يأتيتك بخير . ولا يقضى لك حاجة ، والله سبحانه حتى قادر متكلم بأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم . وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد . فإن أمره بالعدل ، وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له ، راض به أمر لعباده به ، محب لأهله لا يأمر بسواه ، بل تنزه عن ضده الذى هو الجور والظلم والسفه والباطل . بل أمره وشرعه عدل كله . وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه . وهم المجاورون له عند يمينه ، على منابر من نور . وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعى الدينى والأمر القدرى الكونى . وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه . كما في الحديث الصحيح ^(٢) : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك . فقضاؤه

(١) [١٦ / النحل / ٧٣ و ٧٤] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٩١

من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) .

هو أمره السكوني^(١) (إِنَّمَا أَمْرُهُوَ إِذْ آتَاكَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ) فلا يأمر إلا بحق وعدل . وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل . وإن كان في المقضى المقدّر ما هو جور وظلم . فالفضاء غير المقضى . والقدر غير المقدّر . ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم وهذا نظير قول رسوله شعيب^(٢) : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وقوله (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) نظير قوله (نَاصِيَتِي بِيَدِكَ) وقوله (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) نظير قوله (عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ) . فالأول ملّكه . والثاني حمده . وهو سبحانه له الملك وله الحمد . وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضى أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل . فهو على الحق في أقواله وأفعاله . فلا يقضى على العبد بما يكون ظالماً به ولا يأخذ بغير ذنبه . ولا ينقصه من حسناته شيئاً . ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئاً . ولا يؤاخذ أحداً بذنب غيره ، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة . فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله .

قال محمد بن جرير الطبري^(٣) : وقوله : (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) يقول : إن ربى على طريق الحق يجازى الحسن من خلقه بإحسانه والسيء بإساءته . لا يظلم أحداً منهم ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به .

ثم حكى عن مجاهد من طريق شبيل بن أبي نجيح عنه (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) قال : الحق . وكذلك رواه ابن جريج عنه .

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء الثانى عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وقالت فرقة : هي مثل قوله ^(١) (إِنْ رَبَّكَ آيَا لِمِرْصَادٍ) وهذا اختلاف عبارة . فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وقالت فرقة : في الكلام حذف تقديره : إن ربي يحكمكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها ، فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر . وقد فرق سبحانه بين كونه أمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم . وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم ، فقد أصابوا .

وقالت فرقة أخرى : معنى كونه على صراط مستقيم أن مَرَدَّ العباد والأمر كلهما إلى الله لا يفوته شيء منها . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك . وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه ، فهو حق .

وقالت فرقة أخرى : معناه كل شيء تحت قدرته وقهره في ملكه وقبضته . وهذا وإن كان حقاً فليس هو معنى الآية . وقد فرق شعيب بين قوله ^(٢) : (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) وبين قوله ^(٣) : (إِنْ رَزَقْنَاهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فهما معنيان مستقلان . فالقول قول مجاهد ، وهو قول أئمة التفسير . ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه . وقال جرير ^(٤) يمدح عمر بن عبد العزيز :

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ إِذَا عَوَّجَ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٍ
وقد قال تعالى ^(٥) : (مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

(١) [٨٩ / الفجر / ١٤] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .

(٣) من قصيدة مطلعها :

أَلُمْتُ وَمَارَقَفْتُ بَأَن تَلُوِي
وَقَلْتُ مَقَالََةَ الْخَطَلِ الظَّلُومِ
يمدح بها هشام بن عبد الملك .

انظر الصفحة رقم ٥٠٧ من الديوان . (٤) [٦ / الأنعام / ٣٩] .

وإذا كان سبحانه هو الذى جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم فى أقوالهم وأفعالهم ، فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم فى قوله وفعله . وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره ، فصراطه الذى هو سبحانه عليه ، هو ما يقتضيه حمده وكأله ومجده من قول الحق وفعله ، وبالله التوفيق .

وفى الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء : إنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . وقد تقدم ما فى هذا القول وبالله التوفيق . انتهى بحروفه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

الآية إما جواب لاستعجالهم ما يوعدون ، أو لاستبطائهم الساعة . أو لبيان كآله فى العلم والقدرة ، تعريضاً بأن معبوداتهم عريّة منهما . فأشار إلى الأول بقوله (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه . أو غيبهما هو يوم القيامة . فإن علمه غائب عن أهلها ، لم يطلع عليه أحد منهم ، وأشار إلى الثانى بقوله (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) و (الساعة) الوقت الذى تقوم فيه القيامة . و (اللمح) النظر بسرعة . أى كرجع الطرف من أعلى الحديقة إلى أسفلها (أو هو أقرب) من ذلك ، أى أسرع زماناً . بأن يقع فى بعض من زمانه . وفيه من كآله تقرير قدرته تعالى ما لا يخفى . وقوله : (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تعليل له ، إشارة إلى أن مقدوراته تعالى لا تنهاه ، وأن ما يدكر بعض منها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٩] (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا » عطف على قوله تعالى : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) منتظم معه في سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وقوله تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ) وقوله تعالى (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ) أفاده أبو السعود . و (شَيْئًا) منصوب على المصدرية . أو مفعول (تعلمون) والنفي منصب عليه . أى لا تعلمون شيئاً أصلاً من حق النعم وغيره .

« وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ » أى فقدر كون به الأصوات « وَالْأَبْصَرَ » فتحسون المرئيات « وَالْأَفْئِدَةَ » أى العقول « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى لتصرفوها فيما خلقت له من التوحيد والاعتبار بها والمشى على السنن الكونية . ثم نبه تعالى على آيته في خلقه الطير بقوله « أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ » أى مذلات « فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ » أى ما يمسكهن في الجوّ من غير تعلق بمادة ولا اعتماد على جسم ثقیل ، إلا هو سبحانه . « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » قال الحجة الغزاليّ في الحكمة في خلق المخلوقات ، في حكمة الطير ، في هذه الآية ، ما مثاله :

اعلم رحمك الله؛ أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضى الخفة للطيران . ولم يخلق فيه ما يثقله . وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه . فقسم لكل عضو منه ما يناسبه . فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك، انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به .

نخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله ، وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه ، واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض وهي خف فيه . أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه . وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغني به عن الريش في الحر والبرد . وكان من الحكمة ، خلقه على هذه الصفة . لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغني عن مواضع فيها الطين والماء . فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببالله وتلويثه . فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران . وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها . إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعى في البراري ولا في البحار حتى ينكب على صدره . وكثيراً ما يمان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ، ليزداد مطلبه عليه سهولة . ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أنقله عنقه واختل رعيه . وخلق صدره ودائرته ملفوفاً على عظم كهيئة نصف دائرة ، حتى يخرق في الهواء بغير كلفة ، وكذلك رءوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران . وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما يقتضى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك . فمنه مخالب للتقطيع خص به السكاوير وما قوته اللحم . ومنه عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً . ومنه معتدل اللقط وأكل الخضر . ومنه طويل المنقار جعله صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونة ، ما هي في العظم ، لكثرة الحاجة إلى استعماله . وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان . وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منسوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الإتقان لأجل الريش . وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد . ومعمونة متخللة الهواء للطيران . وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبتته وأتقنه ، لكثرة دعاء الحاجة إليه . وحمل في سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له . وجعل في ريشه من الحكمة ، أن البمل لا يفسده والأدران لا تؤسجه . فإن أصابه ماء كان أيسر انتفاض

يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته . وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته . وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه . فلولاه لما مات به الأجنحة في حال الطيران يميناً وشمالاً . فكان له بمنزل رَجُل السفينة الذي يعدل بها سيرها . وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته . ولما كان طعامه ينتلعه بلعاً بلا مضغ ، جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدينة . وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً . وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحناً يستغنى به عن المضغ وثقل الأسنان . واعتبر ذلك بحب العنب وغيره . فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق في أجواف الطير . ثم إنه خلقه ببيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران . فإنه لو خلقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وتموت عن النهوض للطيران . أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة ؟ انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى نعمته على البشر ليستدل به على وحدانيته ، بقوله ، عطفاً على ما مرّ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَثًا وَمَتًّا إِلَىٰ حِينٍ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا » أى موضعاً تسكنون فيه وتأوون إليه لما لا يحصى من وجوه منافعكم « وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا » أى بُيُوتاً أخرى وهى الخيام والفساطيط والقباب المتخذة من الجلود نفسها ، أو من الوبر والصوف

والشعر أيضاً . فإنها من حيث كونها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها .
أو الجلود مجاز عن المجموع « تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ » أى تجدونها
خفيفة المحمل وقت ترحالكم ووقت نزولكم في مراحلكم . لا يثقل عليكم ضربها . أو هي
خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً . قيل : والأول أولى . لأن ظهور المنة في خفتها
إنما يتحقق في حال السفر . وأما المستوطن فغير مثقل « وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا »
أى وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز « أَكْثَنًا وَمَتَمًا إِلَىٰ حِينٍ »
الأثاث ما يتخذ للاستعمال بلبس أو فرش . والمتاع ما يتخذ للتجارة . وقيل لها بمعنى .
ومعنى (إِلَىٰ حِينٍ) أى إلى أن تقضوا منه أوطاركم . أو إلى أن يبلى وينفى . أو إلى
أن تموتوا .

تنبيه :

استدل بالآية على طهارة جلود المأكولات وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، إذا خرجت
في الحياة أو بعد التذكية . واستدل بعموم الآية من أباحها مطلقاً ولو من غير مذكاة . كذا
في (الإكليل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا
وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ،
كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ » أى من الشجر والجبال والأنية وغيرها « ظِلَالًا » أى
أفياء تستظلون بها من حر الشمس « وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا » أى بيوتاً ومعاقل
وحصوناً تستترون بها « وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ » جمع سربال وهو كل

ما يلبس من القطن والكتان والصوف ونحوها . وإنما خص الحرّ ، اكتفاءً بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر . أولاً لأن الوقاية من الحر أهم عند العرب ، لشدته بأكثر بلادهم ، وخصوصاً قطّان الحجاز وهم الأصل في هذا الخطاب . قيل : يبعده ذكر وقاية البرد سابقاً في قوله ^(١) : (لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) وهو وجه الاختصار على الحرّ هنا ، لتقدم ذكر خلافه « وَسَرَابِيلٌ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ » كالدرع من الحديد والزرّد ونحوها . التي يتقى بها سلاح العدو في الحرب « كَذَلِكَ يُثِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ » أى إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية ، فتسلموا وجوهكم إليه تعالى ، وتؤمنوا به وحده .

قال أبو السعود : وإفراد النعمة ، إما لأن المراد بها المصدر ، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شئ قليل . وقرئ (تَسْلِمُونَ) بفتح اللام أى من العذاب أو الجراح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ)

[٨٣] (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ)

[٨٤] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى بعد هذا البيان وهذا الامتنان « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ » أى التى عدت ، وأنها بخلقه « ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا » أى بعبادتهم غير النعم بها وقولهم هى من الله ، ولكنها بشفاعة آلهتنا « وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ » .

(١) [١٦ / النحل / ٥]

ثم أخبر تعالى عن شأنهم في معادهم بقوله :

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته من إيمان وكفر فيها بلغها « ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى فى الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ، كقوله ^(١) : (هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى لا يطلب منهم العتبي . أى إزالة عتب ربهم وغضبه . (والعتبي) بالضم الرضا وهو الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضى العاتب . يقال : استعقبه أعطاه العتبي بالرجوع إلى مسرته . والعتب لومك الرجل على إساءة كانت له إليك . والمرء إنما يطلب العتاب من خصمه لينزيل ما فى نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع إلى الرضا عنه ، فإذا لم يطلب العتاب منه ، دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

[٨٦] (وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ

كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » أى يؤخرون « وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ » يعنى أوثانهم التى عبدوها « قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ » أى أربابا أوعبدوها « فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ » أى أجابوهم بالكذب فى تسميتهم شركاء وآلهة ، تنزيها لله عن الشرك . أو بالكذب فى دعواهم أنهم حملوهم على عبادتهم .

قال أبو مسلم الأصفهاني : مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على هذه الأصنام . وظنوا

(١) [٧٧ / الرسائل / ٣٥ و ٣٦] .

أَن ذَٰلِكَ يَنْجِيهِم مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَوْ يَنْقُصُ مِنْ عَذَابِهِمْ . فَعِنْدَ هَٰذَا تَكْذِبُهُمْ تِلْكَ الْأَصْنَامُ .
وهذه الآية كقوله تعالى (١) : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ
إِلَى يَوْمِ الْفِتْمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً
وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) وقال تعالى (٢) (وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيَكُونُوا
لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَأَقْبُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَأَقْبُوا » أى وألقى الذين ظلموا « إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ » أى الاستسلام لحكمه

بعد إياهم فى الدنيا « وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

أى مِنْ أَنَّ لله شركاء ، وأنهم يشفعون لهم عند الله تعالى . فإن قيل : قد جاء إنكارهم
كقوله تعالى (٣) : (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ) والجواب :
(كما قال القاشانى) : إن ذلك بحسب المواقف . فالإنكار فى الموقف الأول وقت قوة
هيئات الرذائل وشدة شكيمة النفس فى الشيطنة وغاية البعد عن النور الإلهى ، للاحتجاب
بالحجب الغليظة والغواشى المظلمة حتى لا يعلم أنه كان يراه ويطلع عليه . ونهاية تكدر
نور الفطرة حتى يمكنه إظهار خلاف مقتضاه ، والاستسلام فى الموقف الثانى بعد مرور أحقاب
كثيرة من ساعات اليوم ، الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، حين زالت الهيئات ورقّت ،
وضعفت شرائع النفس فى رذائلها ، وقرب من عالم النور ، لركة الحجب ولمعان نور فطرته
الأولى ، فيعترف وينقاد . هذا إذا كان الاستسلام والإنكار لنفوس بعينها . وقد يكون
الاستسلام للبعض الذين لم ترسخ هيئات رذائلهم ولم تغلظ حجبهم ولم ينطق نور استعدادهم .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٦٥] . (٢) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

والإنكار لمن رسخت فيه الهيئات وقويت وغلبت عليه الشيطنة واستقرت ، وكشف الحجاب وبطل الاستعداد ، والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)

[٨٩] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ » أى يضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا كفرهم بصددهم غيرهم عن الإيمان ، كقوله تعالى ^(١) (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْنَوْنَ عَنْهُ) وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم . كما قال تعالى ^(٢) : (لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) .

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وهو نبيهم « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ » أى اذكر ذلك اليوم ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع . وما يلحق الكافرين فيه من عنى كونهم تراباً ، لهول المطلع .

وقد ذكر ذلك فى آية النساء فى قوله تعالى ^(٣) (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ

(١) [٦ / الأنعام / ٢٦] . (٢) [٧ / الأعراف / ٣٨] .

(٣) [٤ / النساء / ٤١ و ٤٢] .

لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا). وقوله تعالى «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ» مستأنف . أو حال بتقدير (قد). قال الرازي : وجه تعلق هذا الكلام بما قبله ، أنه تعالى لما قال (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ) بيّن أنه أزاح عنهم فيما كلفوا . فلا حجة لهم ولا معذرة .

وقال ابن كثير في وجه ذلك : إن المراد ، والله أعلم ، إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك ، سائلك عن ذلك يوم القيامة (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)^(١) ، (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٢) ، (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ . فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ، قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ)^(٣) وقال تعالى^(٤) (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا) أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال ، وهو متجه حسن . انتهى .

و (التبيان) من المصادر التى بنيت على هذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه . أى تبيناً لكل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سياتى وكل حلال وحرام ، وما الناس محتاجون إليه فى أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم (وَهُدًى) أى هداية لمن استسلم وانقاد لسلامة فطرته إلى كماله (وَرَحْمَةً) أى له بتبليغه إلى ذلك الكمال بالتربية والإمداد ، ونجاته من العذاب ، وبشارة له بالسعادة الأبدية . وقوله تعالى :

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣] .

(٣) [٥ / المائدة / ١٠٩] . (٤) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ « أى فيما نزله تنبيهاً لكل شيء » بِالْعَدْلِ « وهو القسط والتسوية في الحقوق فيما بينكم . وترك الظلم وإيصال كل ذي حق إلى حقه » وَالْإِحْسَنِ « أى التفضل بأن يقابل الخير بأكثر منه ، والشر بأن يعفو عنه » وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ « أى إعطاء القرابة ما يحتاجون إليه » وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ « أى عما فحش من الذنوب وأفرط فبحها كالزنى » وَالْمُنْكَرِ « أى كل ما أنكره الشرع » وَالْبَغْيِ « أى العدوان على الناس » يَعِظُكُمْ « أى بما يأمركم وينهاكم » لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ « أى تَتَعَذَّبُونَ بمواعظ الله ، فتعملون بما فيه رضا الله تعالى .

روى ابن جرير عن ابن مسعود^(١) : إن أجمع آية في القرآن ، خير وشر ، هذه الآية . وروى الإمام أحمد^(٢) : أن عثمان بن مظعون مرّ على النبي ﷺ وهو جالس بفناء بيته . فكشّر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : ألا تجلس ؟ فقال : بلى . فجلس . ثم أوحى إليه هذه الآية فقرأها عليه . قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم .

ولما نلت الآية على أكنم بن صيف قال لقومه^(٣) : إني أراه يأمر بكمكارم الأخلاق وينهى

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٣ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣١٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)
والحديث رقم ٢٩٢٢ (طبعة المعارف) وانظر نص الحديث فإن فيه فوائد .

(٣) انظر الصفحة رقم ٥٨٢ من الجزء الثاني من تفسير ابن كثير (طبعة ١٩٣٧) .

عن ملائمتها . فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذنباً . وعن عكرمة ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له : يا ابن أخي ! أعد عليّ . فأعادها . فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر .

وقد نقل أن بني أمية كانوا يسبون عليّاً ، كرم الله وجهه ، في خطبهم . فلما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أسقط ذلك منها وأقام هذه الآية مقامه . وهو من أعظم مآثره .

قال الناصر : ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهنات ، لاحظ التطبيق بين ذكر النهي عن البغي فيها ، وبين الحديث الوارد في أن المناصب لعلّ باغ . حيث يقول عليه الصلاة والسلام ^(١) لعمار (وكان من حزب عليّ) : تقتلك الفئة الباغية . فقتل مع عليّ يوم صفين . انتهى . ولما فيها أيضاً من العدل والإحسان إلى ذوى القربى ، وكونها أجمع آية لاندراج ما ذكر فيها . والله أعلم .

ثم بين تعالى أمره بالوفاء بالعهد والميثاق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

(١) أخرجه البخارى في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٦٣ - باب التعاون في بناء المسجد ،

حديث رقم ٢٩٥ .

وأخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشراف الساعة ، حديث رقم ٧٠ (طبعتنا) .

روى ابن جرير عن بريدة قال^(١) : نزلت في بيعة النبي ﷺ . كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام ، فأمروا بالوفاء بهذه البيعة وأن لا ينقضوها بعد توكيدها بالآيمان . أى لا يحملنكم قلة المؤمنين وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام . وظاهر أن العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ، مما يلتزمه المرء باختياره . كاللبيعة على الإسلام . وعهد الجهاد وما التزمه من نذر وما أكده بحلف . وعلى هذا ، فتخصيص اليمين بالذكر ، للتنبيه على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية . و(التوكيد والتأكيذ) ، لغتان فصيحتان . والأصل الواو ، والهمزة بدل منها . والواو فى قوله (وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) للحال من فاعل (تَنْقُضُوا) أو من فاعل المصدر وإن كان محذوفاً . ومعنى (كَفِيلًا) شهيداً رقيباً . و (الجمل) مجاز . فإن من حلف به تعالى وهو مطلع عليه فكأنه جعله شاهداً . قال الشهاب : ولو أبقي (الكفيل) على ظاهره ، وجعل تمثيلاً لعدم تخلصهم من عقوبته ، وأنه يسلمهم لها كما يسلم الكفيل من كفله ، كما يقال (من ظلم فقد أقام كفيلًا بظلمه) تنبيهاً على أنه لا يمكنه التخلص من العقوبة كما ذكره الراغب - لكان معنى بليغاً جداً . وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » كالتفسير لما قبله . وفيه ترغيب وترهيب .

تنبيه :

فى الآية الحث على البرّ فى الأيمان . وجلى أنها فيما فيه طاعة وبرّ وتقوى . وأما فيما عدا ذلك ، فالخير فى نقضها . وقد دل عليه ما ثبت عن النبي ﷺ فى الصحيحين^(٢) أنه قال : إني ، والله ! إن شاء الله ، لأحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها . (وفى رواية : وكفرت عن يميني) . فالحديث فى معنى ، والآية فى معنى آخر . فلا تعارض ، كما وهم . وقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٧ - كتاب الأيمان ، حديث ١٠٧ - (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ
أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ، إِنْهَا يَبْلُوكُمْ
اللَّهُ بِهِ ۖ وَلَيُنْظِرَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا » تأكيد لوجوب الوفاء
وتحريم النقض. أى لا تكونوا فى نقض الأيمان كالمرأة التى انحطت على غزلها، بعد أن أحكمته
وأبرمته ، فجعلته أنكاثاً ، أى أنقاضاً ، جنوناً منها وحقاً .

فى التمثيل إشارة إلى أن ناقض يمينه خارج من الرجال الكامل ، داخل فى زمرة النساء .
بل فى أذهانهم ، وهى الخرقاء .

وقوله تعالى «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ» حال من الضمير فى (ولا تكونوا)
أى لا تكونوا مشابهيين لامرأة هذا شأنها ، حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة بينكم
«أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ» أى سبب أن تكون جماعة ، كقريش ، هى أزيد عدداً
وأوفر مالاً من جماعة كالمؤمنين «إِنْهَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ ۖ» أى يعاملكم معاملة من يختبركم
بكونهم أربى ، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتهم من
أيمان البيعة لرسول الله ﷺ ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم ، وقلة المؤمنين
وفقرهم وضعفهم ؟ « وَلَيُنْظِرَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى فيتميز
الحق من المبطّل ، بما يظهر من درجات الثواب والعقاب . وهو إنذار وتحذير من مخالفة
ملة الإسلام .

تنبيه :

قال أبو على الزجاجي ، من أئمة الشافعية : فى هذه الآية أصل لما يقوله أصحابنا ،
من إبطال الدور . لأن الله تعالى ذم من أعاد على الشيء بالإفساد بعد إحكامه . نقله فى
(الإكلیل) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى حنيفة مسلمة « وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا ، سؤال تبكيت ومجازاة ، لاستفسار وتفهم . وهو المنفى فى غير هذه الآية . أو فى موقف دون موقف كما مر . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَّ أَقْدَامُكُمْ بَعْدَ بُيُوتِهِمْ)

« وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ » تصريح بالذهى عنه ، بعد أن نهى عنه ضمناً ، لأخذه فيما تقدم قيماً للمنهى عنه ، تأكيذاً عليهم ومبالغة فى قبج المنهى « فَتَرِلَّ أَقْدَامُكُمْ بَعْدَ بُيُوتِهِمْ » أى فتزل أقدامكم عن محجة الحق ، بعد رسوخها فيه « وَتَذُوقُوا السُّوءَ » أى ما يسوءكم فى الدنيا « بِمَا صَدَدْتُمْ » أى بصددكم عن الوفاء ، أو بصددكم غيركم « عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » أى فى الآخرة .

لطيفة :

تنكير (قدم) للإيدان بأن زلل قدم واحدة عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ؟ . وأشار فى (البحر) إلى نكتة أخرى : قال : الجمع تارة يلاحظ فيه المجموع من حيث هو مجموع فيؤتى بما هو له مجموعاً . وتارة يلاحظ فيه كل فرد فرد فيفرد ماله كقوله ^(١) : (وَأَعْتَدَتْ

لَهُنَّ مُتَّكَئَاتٌ) أى لكل واحدة منهن متكئة . ولما كان المعنى : لا يفعل هذا كل واحد منكم ، أفرد (قَدَمٌ) مراعاة لهذا المعنى . ثم قال (وَتَذُقُوا) مراعاة للفظ الجمع . قال الشهاب : هذا توجيه للإفراد من جهة العربية ، فلا ينافى النكتة الأولى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » أى لا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً من الدنيا يسيراً . وهو ما كانت قريش يعدّونهم ويمنّونهم ، إن ارتدوا « إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى من إظهاركم فى الدنيا وإثابتكم فى الآخرة « إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من ذوى العلم والتمييز . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » تعليل للخيرية بطريق الاستئناف . أى ما عندكم مما تتمتعون به ، يفرغ وينقص . فإنه إلى أجل محدود محصور مقدر متناهٍ ، وما عنده تعالى من ثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع له . فإنه دائم لا يحول ولا يزول « وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ » أى على أذى المشركين ومشاق الإسلام « بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى بجزاء أحسن من أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » هذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحا . وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله ، من ذكر أو أنى ، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت ، بأن يحياه الله تعالى حياة طيبة .

قال المهايى : أى فيتلذذ بعمله فى الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه ، ولا يبطل تلذذه إعساره . إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته . والكافر لا يهنا عيشه بالمال والجاه ؛ إذ يزداد حرصا وخوف فوات . ويجزون بالأحسن فى الآخرة . فلا يقال لهم : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا . بل يكمل جزاء أعمالهم الأدنى بحيث يلحق بالأعلى . انتهى . وعندى أن الحياة الطيبة هى الحياة التى فيها تلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان والرغبة فى الموعود والرضا بالقضاء . وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له . والاستكانة إلى معبود واحد . والتنور بسر الوجود الذى قام به ، وغير ذلك من مزاياه المقررة فى مواضعها . هذا فى الدنيا . وأما فى الآخرة ، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

[٩٩] (إِنَّهُ وَلَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[١٠٠] (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ وَلَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ

عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلِّطْنَاهُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ .

لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين ، وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن أو الإنس يثير الشبهات بوساوسه . ويفسد القلوب بدسائسه . أمر ﷺ بأن يستعيز بالله ويلتجئ إليه ، عند تلاوة القرآن ، من وسوسته . لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة ، فيحتاج إلى الاستعانة عليه بالله واللياذ بجواره منه . وقد بينت آية (١) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أن هذه عادة الشيطان ، إثر ما يتلوه كل نبي على أمته من الأحكام المتجددة التي يوحى بها لسعادة البشر ، أنه يحول عنها الأنظار ويسعى لهدم ما أقيمت لأجله . وإن الله يحكم آياته وينسخ شبه الشيطان ، ليحق الحق ويبطل الباطل . فلما كانت هذه عادته ، ولها من الأثر ما لها ، احتيج إلى الاستعاذة به تعالى منها ، عند قراءة الوحي ونشر تعاليمه .

ثم بين تعالى أن أثر وسوسته إنما يكون فيمن له سلطان عليهم . أى تسلط وولاية من أوليائه المتبعين خطواته . وأما الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم ، فصبروا على السكاره ولم يبالوا بما يلقون في سبيل الجهاد بالحق من العثرات ، فليس له عليهم سلطان . فهم يضادون أمانيه ويهدمون كل ما يلقيه . لأن إيمانهم يفيدهم النور الكاشف عن مكره ، والتوكل على الله يفيدهم التقوية بالله ، فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره . و (الرجيم) من أوصاف الشيطان الغالبة . أى الملعون المرجوم باللعنة أو المطرود أو المرجوم بالسكواكب . والضمير في (به) لربهم والباء للتعدي . أوللشيطان والباء للسببية . أى بسببه وغروره ووسوسته . ورجح باتحاد الضائر فيه . وأشار بعضهم إلى أن المعنى أشركوه في عبادة الله تعالى ، وكاه مما يحتمله اللفظ الكريم ويصح إرادته .

تنبيه :

في الآية مشروعية الاستعاذة قبل القراءة ، وهو شامل لحالة الصلاة وغيرها . وقال قوم بوجودها لظاهر الأمر . وسرها في غيره عليه السلام التحصن به تعالى أن لا يلبس الشيطان القراءة وأن لا يمنع من التدبر والتذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٠٢] (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » .

التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى . والأكثر على أن المعنى نسخ آية من القرآن لفظاً أو حكماً بآية أخرى غيرها ، لحكمة باهرة أشير إليها بقوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) من ناسخ قضت الحكمة أن يتبدل المنسوخ الأول به . وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين . كآية موسى وعيسى وغيرها ، من الآيات الكونية الآفاقية ، بآية أخرى نفسية علمية . وهي كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدرکها العقل إذا تنبه لها وجرى على نظامه الفطري . وذلك لاستعداد الإنسان وقتئذ ، لأن يخاطب عقله ويستصرخ فهمه ولبه . فلم يؤت من قبل الخوارق الكونية ويدهش بها كما كان لمن سلف . فبدلت تلك بآية هو كتاب العلم والهدى من نبي أمي لم يقرأ ولم

يكتب . وكون الكتاب بين الصدق قاطع البرهان ناصع البيان بالنسبة لمن أوتي العلم ورزق الفهم . وهذا التأويل الثاني يرجحه على الأول ، أن السورة مكية . وليس في المكيّ منسوخ بالمعنى الذى يريدونه . وللبحث تفصيل فى موضع آخر . وقد أشرنا إلى ذلك فى آيتين من سورة البقرة فى قوله تعالى^(١) (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا الْخُ ، وقوله تعالى^(٢) (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) والمقصود أنه تعالى ، لما رحم العالمين وجعل القرآن مكان ما تقدم ، نسبوا الموحى إليه به إلى الافتراء ، ردّاً للحق ، وعناداً للهدى ، وتولياً للشيطان ، وتعبداً لوسوسته ، وما ذاك إلا لجهلهم المتناهى ، كما قال : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) واعتراض قوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) لتوبيخ الكفرة والتنبية على فساد رأيهم .

ثم أمره تعالى بأن يصدع بالحق فى شأنه بقوله (قُلْ نَزَّلَهُ) أى القرآن المدلول عليه بالآية (رُوحُ الْقُدُسِ) يعنى جبريل عليه السلام . أضيف إلى القدس وهو الطهر . كما يقال (حاتم الجود وزيد الخير وخبر السوء ورجل صدق) والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والخبر السيئ والرجل الصادق . وإنما أضافوا الموصوف إلى مصدر الصفة للمبالغة فى كثرة ملابسته له واختصاصه به . والمقدس المطهر من الأدناس البشرية . وإضافة (الرب) إلى ضميره صلوات الله عليه فى قوله تعالى (مِنْ رَبِّكَ) للدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية . وقوله (بِالْحَقِّ) أى متلبساً بالحق الثابت الموافق للحكمة التى اقتضاها دور عصره ، وقوله تعالى (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا) أى على الحق ونبذ وساوس الشياطين . وفى قوله تعالى : (وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) تعريض بمحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم .

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٦] .

(١) [٢ / البقرة / ٢٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » .

يخبر تعالى عن المشركين في قولهم غير ما نقل عنهم قبل من المقالة الشنعاء ، وكذبهم وبهتهم أن الرسول إنما يعلمه هذا الذي يتلوه من القرآن ، بشر . يعنون رجلاً أعجمياً كان بين أظهرهم يقرأ في الكتب المتقدمة . ربما يتحدث معه النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً . وإنما لم يصرح باسمه للإيذان بأن مدار خطبهم ليس بنسبته صلوات الله عليه إلى التعلم من شخص معين بل من البشر ، كائناً من كان . ثم أشار تعالى وضوح بطلان بهتهم ، بأن لسان الرجل الذي ينسبون إليه التعليم أعجمي غير بين . وهذا القرآن الكريم لسان عربي مبين . ذو بيان وفصاحة . ومن أين للأعجمي أن يدوق بلاغة هذا التنزيل ، وما حواه من العلوم ، فضلاً أن ينطق به ، فضلاً أن يكون معلماً له ! وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[١٠٥] (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ

هُمْ الْكَذِبُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تهديدهم على كفرهم بالقرآن ، بعدما ما ط شبهتهم ورد طعنهم فيه . وقوله تعالى : « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » رد لقولهم إنما أنت مفتر . وقلب للأمر عليهم ، ببيان

أنهم هم المفترون لاهو . يعنى إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ، لأنه لا يخاف عقاباً يرده عنه ؛ وقوله تعالى « وَأَوْ لَّسِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ » إشارة إلى الذين لا يؤمنون ، ويدخل فيهم قريش دخولاً أولياً . أى الكاذبون فى الحقيقة ونفس الأمر ، أو الكاملون فيه . لأنه لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى ، والطمع فيها بأمثال هاتيك الأباطيل . ولا يخفى ما فى الحصر ، بعد القصر ، من العناية بمقامه صلوات الله عليه . وقد كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً . معروفاً بالصدق فى قومه ، لا يشك فى ذلك أحد منهم . بحيث لا يدعى بينهم إلا (الأمين محمد) . ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم^(١) أبا سفيان عن تلك المسائل التى سألها ، من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فيما قال له : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويذهب فيكذب على الله تعالى .

تنبيه :

فى هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأخش الفواحش . والدليل عليه أن كلمة (إنمأ) للحصر . والمعنى أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله ، وإلا من كان كافراً . وهذا تهديد فى النهاية . وروى^(٢) أن النبي ﷺ قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم قرأ هذه الآية . أفاده الرازى . وقوله تعالى :

(١) أخرجه البخارى فى : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا أبو اليمان الحكم بن

نافع ، والحديث طويل ينبغى الوقوف عليه .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٥٦ - كتاب ما يكره من الكلام ، حديث ١٩

(طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[١٠٧] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[١٠٨] (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ أَبْصَارُهُمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

[١٠٩] (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ أَبْصَارُهُمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

لما بين تعالى فضل من آمن وصبر على أذى المشركين ، في المحاماة عن الدين ، تأثره ببيان مالردة وإثارة الضلال على الهدى ، من الوعد الشديد ، بهذه الآيات . واستثنى المكره المطمئن القلب بالإيمان بالله ورسوله . فإنه إذا وافق المشركين بلفظ ، لإيلاء قوى وإيذاء شديد وتهديد بقتل ، فلا جناح عليه . إنما الجناح على من شرع بالكفر صدرًا أى طاب به نفساً واعتقده ، استجاباً للحياة الدنيا الفانية ، أى إثارة لها على الآخرة الباقية ، فذلك الذى له

من الوعيد ما بينته الآيات السكرية ، من غضب الله عليهم أولاً . وعذابه العظيم لهم ، وهو عذاب النار ثانياً . وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثاً . ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها . فلم يفتح لهم طريق الفهم . وعلى سمعهم وأبصارهم بسدّ طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب . فلم يؤثر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن من فيض العلم وإشراق النور . ولا من طريق الظاهر بطريق التعليم والتعلم والاعتبار من آثار الصنع . وخامساً بكونهم هم الغافلين ، بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه . وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب . وجلّى ، أن كل نقمة من هذه الخمس ، على انفرادها ، من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات . فكيف بها كلها !

قال الرازى : ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشتري بطاعاته سعادات الآخرة . فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسارته . فلماذا قال : (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أى الذين ضاعت دنياهم التى استنفدوا فى تحصيلها وسعهم ، وأتلفوا فى طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة فى شيء إلا فى وبال التحسرات .

تنبيهات :

الأول : (مَنْ) فى قوله تعالى (مَنْ كَفَرَ) موصول مبتدأ خبره (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) وقوله (إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ) استثناء مقدم من حكم الغضب . وقوله (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) رجوع إلى صدر الآية وحكمها ، بأسلوب مبين لمن كفر ، موضح له . بمثابة عطف البيان أو عطف التفسير . وهذا الوجه من الإعراب لم أره لأحد ، ولا يظهر غديره لمن ذاق حلاوة أسلوب القرآن .

الثانى : استدل بالآية على أن المكروه غير مكلف . وأن الإكراه يبيح التلطف بكلمة

الكفر ، بشرط طمأنينة القلب على الإيمان . واستدل العلماء بالآية على نفي طلاق السكره وعتاقه ، وكل قول أو فعل صدر منه . إلا ما استثنى . أفاده السيوطي في (الإكليل) .

الثالث : روى عن ابن عباس^(١) ؛ أنها نزلت في عمار بن ياسر حين عذّبه المشركون حتى يكفر بالنبي ﷺ . فوافقهم مكرهاً . ثم جاء معتذراً . قال ابن جرير^(٢) : أخذ المشركون عماراً فعذّبه . حتى قاربهم في بعض ما أرادوا . فشكا ذلك إلى النبي ﷺ . فقال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان . قال ﷺ : إن عادوا فعدّ .

وقال ابن إسحاق^(٣) : إن المشركين عذّوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين . فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش . ورمضاء مكة إذا اشتد الحرّ . يفتنونه عن دينهم . فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه . ومنهم من يَصْلُبُ لهم ويعصمه الله منهم . وكان بلال رضي الله عنه عبداً لبعض بني جُمَح . يخرج أمة بن خاف ، إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة . ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول (وهو في ذلك البلاء) : أحدى . أحدى . حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، رضي الله عنهم ، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة . فيمرّ بهم رسول الله ﷺ . فيقول : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوا وهي تآبى إلا الإسلام .

(١) انظر تفسير الطبري ، الصفحة رقم ١٨١ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٨٢ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) و صفحة ٣٣٩ من الجزء

الأول (طبعة الحلبي) .

قال سعيد بن جبیر : قلت لابن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم . والله ! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجمعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر على أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة . حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجعل ليربهم فيقولون له : هذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداء منهم ، مما يبلغون من جهده .

وقد ذكر ابن هشام^(١) في (السيرة) في بحث (عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة) غرائب في هذا الباب ، فانظروه .

قال ابن كثير : ولهذا اتفق العلماء على أن المكروه على الكفر يجوز له أن يوالى ، إبقاء لهجته . ويجوز له أن يأبى . كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، وهو يقول : أحدٌ . أحدٌ . ويقول : والله ! لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها . رضى الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى ، لما قال له مسيلة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي ، أحد الصحابة ؛ أنه أسرته الروم . فجاءوا به إلى ملكهم . فقال له : تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي . فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ، ما فعلت . فقال : إذا أقتلك . فقال : أنت وذاك . فأمر به فصلب . وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأُتزل .

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٣٣٩ من الجزء الأول

(طبعة الحلبي) .

ثم أمر بقدرٍ فأُحميت . وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح . وعرض عليه فأبى . فأمر به أن يلقى فيها . فرفع بالكرة ليلقى فيها فبكى . فطمع فيه ودعاه فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة . تلقى في هذا القدر الساعة . فأُحببت أن يكون لي ؛ بعدد كل شعرة في جسدي ، نفس تعذب هذا العذاب في الله .

وفي بعض الروايات ؛ أنه سجنه ومنعه الطعام والشراب أياماً . ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه . ثم استدعاه فقال : ما منكم أن تأكل ؟ فقال أما هو فقد حلّ لي . ولكن لم أكن لأشمتك في . فقال له الملك : فقبّل رأسي وأنا أطلقك وأطلق جميع أسارى المسلمين . قال ، فقبّل رأسه . فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة . وأنا أبدأ . فقام فقبّل رأسه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا

إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

بيان للذين كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين في قومهم ، وافقوهم على الفتنة ظاهراً ، ثم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهاليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وجاهدوا الكافرين وصبروا على مشاق الجهاد . أخبر تعالى أن هؤلاء من بعد الفتنة المذكورة ، أي إجابتهم إليها ، (لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) فيغفر لهم ما فرط منهم . ويرحمهم بالجزاء الحسن .

والجاء في قوله (لِلَّذِينَ) متعلق بالخبر على نية التقديم والتأخير ، والخبر (إِنَّ) الأولى . والثانية مكررة للتأكيد . أو للثانية وخبر الأولى مقدر ، وشمل قوله (هَاجَرُوا)

من هاجر إلى الحبشة من مكة فراراً بدينه من الفتنة . ومن هاجر بعد إلى المدينة كذلك . كما
شمل قوله (جَاهِدُوا) في بث الحق ونشر كلمة الإيمان والدفاع عنه . أو قاتلوا في سبيل الله .
ولأجل هذا الاحتمال في الفعلين ، قيل : الآية مدنية ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » منصوب بـ (رحيم) أو بـ (اذكر) ،
واليوم يوم القيامة . ومعنى (تُجَادِلُ) أى تحاج وتسعى في خلاصها . لا يهملها إلا ذاتها
وشأنها . ولا يغنى عنها مال ولا أب ولا ابن ولا شئ « مَّا » « وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ »
أى من خير وشر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » في ذلك . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[١١٣] (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)
« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * » وَلَقَدْ
جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » اعلم أنه لما هدد الكفار
بالوعيد الشديد في الآخرة ، أنذرهم بنقمته في الدنيا أيضا بالجوع والخوف . ومعنى

قوله تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً) أى جعل القرية التى ههذه حالها مَثَلًا لكل قوم أنعم الله عليهم . فأبطرهم النعمة . فسكفروا وتولوا . فأنزل الله بهم نعمته . فيدخل فيهم أهل مكة دخولاً أولياً ، أو لقوم معينين ، وهم أهل مكة . والقرية إما مقدره بهذه الصفة غير معينة ، إذ لا يلزم وجود المشبه به . أو معينة من قرى الأولين . وقد ضمن (ضَرَبَ) معنى (جعل) و (مَثَلًا) مفعول ثانٍ و (قَرْيَةً) مفعول أول .

قال أبو السعود : وتأخير (قرية) مع كونها مفعولاً أول ، لثلا يحول المفعول الثانى بينها وبين صفتها وما يترتب عليها . إذ التأخير عن الكل مغلّ بتجاذب أطراف الفظم وتجاوبها . ولأن تأخير ماحقه التقديم مما يورث النفس ترقباً لوروده ، وتشوقاً إليه . لاسيما إذا كان فى المقدم ما يدعو إليه . فإن المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ماهو مثل . فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن . والمراد بالقرية أهلها مجازاً ، أو بتقدير مضاف . ومعنى كونها (ءَامِنَةٌ مُّطْمَئِنَّةٌ) أنه لايزعجها خوف ، و (الرغد) الواسع . و (الأنعم) جمع نعمة .

وفى قوله تعالى : (فَأَذْأَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) شبه أثر الجوع والخوف وضررها المحيط بهم ، باللباس الغاشى للابس . فاستعير له اسمه ، وأوقع عليه الإذاقة المستعارة ، لمطلق الإيصال ، المنبئة عن شدة الإصابة ، بما فيها من اجتماع إدراكى اللامسة والذائقة ، على نهج التجريد . فإنها لشيوع استعمالها فى ذلك ، وكثرة جريانها على الألسنة ، جرت بجرى الحقيقة .

قال ابن كثير : هذامثل أريد به أهل مكة . فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف . كما قال تعالى ^(١) (وَقَالُوا إِنَّا نَنْتَبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّا فِيهَا) .

شَيْءٍ رَزَقًا مِّن لَّدُنَّا) وهكذا قال لهننا و(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا) أى هَنِئًا سَهْلًا (مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنعَمَ اللَّهُ) أى جحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم . كما قال تعالى (١) : (أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ أَقْرَارُ) ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافيهما فقال : (فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجي إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها من كل مكان . وذلك أنهم استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوا إلا خلافة . فدعا (٢) عليهم بسبع كسبع يوسف . فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم . فأكلوا العلهز (هو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحر) . وقوله (وَالْخَوْفِ) وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوته وسراياه وجيوشه . وجعل كل ما لهم في دمار وسفال . حتى فتحها الله عليهم . وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ . الذى بعثه الله فيهم منهم . وامنن به عليهم فى قوله (٣) : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ..) الآية ، وقوله تعالى (٤) : (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا، قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَسُولًا)، وقوله (٥) : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) إلى قوله : (وَلَا تَكْفُرُونِ) وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمانًا . ورزقهم بعد العيلة . وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم . انتهى .

- (١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨ و ٢٩] . (٢) أخرجه البخارى ، تعليقاً ، فى : ٨٠ كتاب الدعوات ، ٥٨ - باب الدعاء على المشركين ، عن ابن مسعود .
(٣) [٣ آل عمران / ١٦٤] . (٤) [٦٥ الطلاق / ١٠] .
(٥) [٢ / البقرة / ١٥١] .

ثم بين تعالى ضلال المشركين في تحريم ما أحل الله من البحائر والسوائب وغيرها ،
مفصلاً ما حرمه مما ليس فيه كانوا يجرمون به أهليهم ، وهو مأذون بأكله ، كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

« فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى من الحُرث والأَنعام « حَلَلًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أى تريدون عبادته فاستحلوها ، فإن عبادته فى تحليلها .
واشكروه فإنه النعم المتفضل بذلك وحده .

ثم ذكر ما حرمه عليهم ، مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ
بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » أى
ذبح على اسم غيره تعالى : « فَمَنِ اضْطُرَّ » أى أجهد إلى ما حرم الله « غَيْرَ بَاغٍ
وَلَا عَادٍ » أى متمدد قدر الضرورة وسدّ الرمق « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى
فَلَا يُؤَاخِذُهُ بِذَلِكَ .

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية . فأغنى إعادته .

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرّموا بمجرد ما وصفوه
واصطاحوا عليه من الأسماء بأرائهم ، فى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها ، مما كان
شرعاً لهم ابتدعوه فى جاهليتهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[١١٧] (مَتَّعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم ، بالحل والحرام في قولكم (ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله . ف (الكذب) مفعول (تقولوا) وقوله : (هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ) بدل من (الكذب) واللام صلة للقول . كما يقال : لا تقتل للنبيذ إنه حلال ، أى فى شأنه وحقه . فهى للاختصاص . وفيه إشارة إلى أنه مجرد قول باللسان ، لاحكم مصمم عليه . أو (هَذَا حَلَالٌ) مفعول (تقولوا) و (الكذب) مفعول (تصف) واللام فى (لِمَا تَصِفُ) تعليلية و (ما) مصدرية . ومعنى تصف تذكر . وقوله : (لِّتَفْتَرُوا) بدل من التعليل الأول . أى لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف ألسنتكم الكذب ، أى لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة . وليس بتكرار مع قوله : (لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) لأن هذا لإثبات الكذب مطلقاً ، وذلك لإثبات الكذب على الله . فهو إشارة إلى أنهم لتمرهم على الكذب ، اجترأوا على الكذب على الله ، فنسبوا ما حللوه وحرموه إليه . وعلى هذا الوجه - كون الكذب مفعول (تصف) - فى وصف ألسنتهم الكذب مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب ، لجملة عين الكذب . ترقى عنها إلى أن خيل أن ماهية الكذب كانت مجهولة ،

حتى كشف كلامهم عن ماهية الكذب وأوضحها ، ف (تصف) بمعنى توضح . فهو بمنزلة الحدِّ والتعريف الكاشف عن ماهية الكذب . فالتعريف في الكذب للجنس . كأنَّ ألسنتهم إذا نطقت كشفت عن حقيقته . وعليه قول المعري^(١) :

سَرَى بَرْقُ الْمَرْوَةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَأْمَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

ونحوه (نهاره صائم) إذا وصف اليوم بما يوصف به الشخص ، لكثرة وقوع ذلك الفعل فيه . و (وجهها يصف الجمال) لأن وجهها لما كان موصوفاً بالجمال الفائق ، صار كأنه حقيقة الجمال ومنبعه ، الذي يعرف منه . حتى كأنه يصفه ويعرفه ، كقوله :

أُضْحَتْ يَمِينُكَ مِنْ جُودٍ مَصَوَّرَةٍ لَا بَلْ يَمِينُكَ مِنْهَا صُورَ الْجُودِ

فهو من الإسناد المجازي . أو نقول : إن وجهها يصف الجمال بلسان الحال . فهو استعارة مكنية . كأنه يقول : ما بى هو الجمال بعينه . ومثله وارد في كلام العرب والعجم . هذا زبدة ما فى (شروح الكشف) .

وما فى الآية أبلغ من المثال المذكور ، لما سمعت . أفاده فى (العناية) . واللام فى (لَتَفْتَرُوا) لام الصيرة والعاقبة المستعارة من التعليلية . إذ ما صدر منهم ليس لأجل هذا ، بل لأغراض أخر يترتب عليها ما ذكر . وجوز كونها تعليلية ، وقصدهم لذلك غير بعيد . وفى قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ ...) الآية ، وعيد شديد بعدم ظفرهم وفوزهم بمطلوب يعتد به لافى الدنيا ولا فى الآخرة . أما فى الدنيا ، فلأن ما يفترون لأجله متاع قليل ينقطع عن قريب . وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم ، كما قال^(٢) : (نُمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يدخل فى الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعى

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفاحة ٣٨٢١ (هذا الجزء) .

(٢) [٣١ / لقمان / ٢٤] .

أو حلال شيئاً مما حرم الله . أو حرّم شيئاً مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهّيه .
أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل . فلم أزل أخاف
الفتيا إلى يومى هذا .

قال فى (فتح البيان) : صدق رحمه الله . فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى
بخلاف ما فى كتاب الله ، أو فى سنة رسول الله ﷺ . كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأى المقدمين
له على الرواية . أو الجاهلين بعلم الكتاب والسنة .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول : إن الله أمر بكذا أو نهى عن
كذا . فيقول الله عز وجل : كذبت . أو يقول : إن الله حرم كذا أو أحلّ كذا : فيقول
الله له : كذبت .

قال ابن العربي : كره مالك وقوم أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام فى المسائل
الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه . ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا
وكذا ، ونحو ذلك .

ولما ذكر تعالى ما حرّمه علينا من الميتة والدم الخ ، بين ما كان حرّمه على اليهود فى شريعتهم
مما ليس فيه أيضاً شيء مما حرّمه المشركون ، تحقيقاً لافتراءهم بأن ما حظروه لا سند له فى
شريعة سابقة ولا لاحقة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١١٩] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا » يعنى اليهود « حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ » أى

في سورة الأنعام في قوله تعالى^(١): (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا . . .) الآية «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ»
أى فيما حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أى فاستحقوا ذلك . كقوله^(٢)
(فَيَظْلِمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) وقد سلف لنا ما ذكره في تفسيرها مما يجي هنا ، فتذكر . قالوا : فى الآية تنبيهه
على الفرق بينهم وبين غيرهم فى التحريم . فإن هذه الأمة لم يحرم عليها إلا ما فيه مضرة لها .
وغيرهم قد يحرم عليهم ما لا ضرر فيه ، عقوبة لهم بالمنع ، كاليهود . ثم بين تعالى عظيم فضله
فى قبول توبة من تاب من العصاة بقوله : «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ
تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا» أى العمل فيما بينهم وبين ربهم «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا»
أى التوبة «لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» ثم نوه تعالى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، دعاه لهم
إلى سلوك طريقته فى التوحيد ، ورفض الوثنية ، وتبرئة لقماته ، مما كانوا يفترون عليه ،
بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[١٢١] (شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ، أُجْتَبِهُ وَهُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً» أى إماما يقتدى به ، كقوله تعالى^(٣) : (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
إِمَامًا) أو كان وحده أمة من الأمم ، لاستجاعه كالات لا توجد فى غيره «قَانِتًا لِلَّهِ» أى
خاشعاً مطيعاً له ، قائماً بما أمره «حَنِيفًا» أى مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق «وَلَمْ
يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ» أى قائماً بشكر نعم الله عليه ، مستعملاً لها على

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٦] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٠] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

الوجه الذى ينبغى ، كقوله تعالى^(١) (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به « أَجْتَبَنَاهُ » أى اختاره واصطفاه للنبوّة « وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، على شرع مرضى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَأَيَّدْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

[١٢٣] (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« وَأَيَّدْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً » أى من الذكر الجليل . كما قال^(٢) (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) ومن الصلاة والسلام عليه ، كما قال^(٣) (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) ومن تمتيعه بالحظوظ ليمتقوى على القيام بحقوق العبودية « وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ » أى فى عالم الأرواح « لَمِنَ الصَّالِحِينَ » أى المتكئين فى مقام الاستقامة ، بإيفاء كل ذى حق حقه ، الذين لهم الدرجات العليا فى الجنة .

« ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أى بعد هذه الكرامات والحسنات التى أعطيناها إياه فى الدارين ، شرفناه وكرمناه بأمرنا ، باتباعك إياه فى التوحيد وأصول الدين التى لا تتغير فى الشرائع . كأمر المبدأ والمعاد والحشر والجزاء وأمثالها . لا فى فروع الشريعة وأوضاعها وأحكامها . فإنها تتغير بحسب المصالح واختلاف الأزمنة والطبائع ، وما عليه أحوال الناس من العادات والخلائق . قاله القاشانى . وفى (الإكليل) استدلل أصحابنا بهذه الآية على وجوب الختان ، وما كان من شرعه ، ولم يرد به ناسخ .

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] . (٢) [١٩ / مريم / ٥٠] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١٠٨ و ١٠٩] .

لطيفة :

قال الزمخشري : في (ثم) هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ ، وإجلال محله ، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم ﷺ من الكرامة ، وأجل ما أوى من النعمة ، اتباع رسول الله ﷺ ملته ، من قبل أنها دات على تباعد هذا النعت في المرتبة ، من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها .

قال الناصر : وإنما تفيد ذلك (ثم) لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان . ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة ، بحيث يكون المعطوف على رتبته وأشمخ محلاً مما عطف عليه . فكأنه بعد أن عدّد مناقب الخليل عليه السلام ، قال تعالى : وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبة ، وأبعد رفعة ، وهو أن النبي ﷺ الأُمِّي ، الذي هو سيد البشر ، متبع لملة إبراهيم ، مأمور باتباعه بالوحى ، متلوّاً أمره بذلك في القرآن العظيم . ففي ذلك تعظيم لهما جميعاً . لكن نصيب النبي ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر . على ما مهدناه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ » يعنى اليهود ، فرض عليهم تقديسه وإراحة أنفسهم ودوابهم فيه من الأعمال . فاعتدوا فيه واحتالوا لحله .

قال القاشانى : أى ما فرض عليك ، إنما فرض عليهم . فلا يلزمك اتباع موسى في ذلك ، بل اتباع إبراهيم ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى بالمجازاة على اختلافهم ، يعنى إفسادهم وزيفهم عن طريق الحق . ثم بين تعالى أدب الدعوة إلى دينه الحق ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

« اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ » أى بالمقالة المحكمة الصحيحة . وهو الدليل الموضح للحق ، المزيح للشبهة « وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » أى العبر اللطيفة والوقائع الخفيفة ، ليحذروا بأسه تعالى « وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى جادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة ، من الرفق واللين وحسن الخطاب ، من غير عنف . فإن ذلك أبلغ في تسكين لهم . وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى عليك البلاغ والدعوة بالصفة المبينة فلا تذهب نفسك ، على مَنْ ضَلَّ منهم ، حسرات ، فإنه ليس عليك هُدَاهُمْ . لأنه هو أعلم بمن يبق على الضلال وبمن يهتدى إليه . فيجازى كلا منهما بما يستحقه . أو المعنى : اسلك في الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة . فإن الله تعالى هو أعلم بحال من لا يعزى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب . وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جليل . فما شرعه لك في الدعوة ، هو الذى تقتضيه الحكمة . فإنه كاف في هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلّ قوله تعالى : (وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) على الحث على الإنصاف في المناظرة ، واتباع الحق ، والرفق والمداواة ، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل ، وأن لا غرض سواه .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)

«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ»
أى الزموا سيرة العدالة، لا تجاوزوها. فإنها أقل درجات كمالكم. فإن كان لكم قدم في الفتوة، وعرق راسخ في الفضل والكرم والمروءة ، فتركوا الانتصار والانتقام ممن جنى عليكم ، وعارضوه بالعفو مع القدرة ، واصبروا على الجناية ، فإنه (لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) ألا تراه كيف أكدّه بالقسم واللام في جوابه ، وترك المضمّر إلى المظهر حيث ما قال (لَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) بل قال (لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) للتسجيل عليهم بالمدح والتعظيم بصفة الصبر . فإن الصابر ترقى عن مقام النفس وقابل فعل نفس صاحبه بصفة القلب . فلم يتسكدر بظهور صفة النفس . وعارض ظلمة نفس صاحبه بنور قلبه . فكثيراً ما يندم ويتجاوز عن مقام النفس . وتنكسر سورة غضبه فيصالح . وإن لم يكن لكم هذا المقام الشريف ، فلا تعاقبوا المسيء بسورة الغضب ، بأكثر مما جنى عليكم ، فتظلموا ، أو تتورطوا بأبجح الرذائل وأخفها . فيفسد حالكم ويزيد وبالكم على وبال الجاني . أفاده القاشاني .

تنبيهات :

الأول : في (الإكليل) : قال ابن العربي : في الآية جواز المماثلة في القصاص . خلافاً لمن قال : لا قود إلا بالسيف . ويستدل بها لمسئلة الظفر . كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين والنخعي ؛ أنهما استدلا بها عليها . ولفظ النخعي : سئل عن الرجل يخون الرجل ثم يقع له في يده الدراهم ؟ قال : إن شاء ذهب من دراهمه بمثل ما خانه . ثم قرأ هذه الآية . ولفظ ابن سيرين : إن أخذ منكم رجل شيئاً ، فخذوا مثله .

قال ابن كثير: وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم، واختاره ابن جرير. فعمومها يشمل العدل في القصاص والمائلة في استيفاء الحق .

الثاني - قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة . وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أخذ ، حين قتل حمزة رضي الله عنه ومُثل به . فقال رسول الله ﷺ : لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله ! لئن أظهرنا الله عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط . فأنزل الله الآية هذه ، إلى آخر السورة .

قال الحافظ ابن كثير : هذا مرسل وفيه مبهم لم يسم . ورواه الحافظ البزار من وجه آخر موصولاً عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، حين استشهد. فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه . وقد مُثل به . فقال : رحمة الله عليك . إن كنتَ لما علمتُ، لو صولاً للرحم فعولاً للخيرات . والله لولا حزنٌ من بعدك عليك ، لسرتني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع (أو كلمة نحوها) . أما والله ! على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك . فنزلت هذه الآية . فكفر رسول الله ﷺ . يعني عن يمينه ، وأمسك عن ذلك .

قال ابن كثير : وهذا إسناد فيه ضعف . لأن صالحاً (أحد رواه) هو ابن بشير المريّ، ضعيف عند الأئمة . وقال البخاريّ : هو منكر الحديث . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه عن أبي بن كعب ، قال : لما كان يوم أُحُد قتل من الأنصار ستون رجلاً ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم . فلما كان يوم الفتح قال رجل : لاتعرف قريش بعد اليوم . فنادى أن رسول الله ﷺ قد آمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً . ناساً سماءهم . فنزلت الآية . فقال رسول الله ﷺ : نصبر ولا نعاقب .

أقول : بمعرفة ما قدمنا من معنى سبب النزول - في مقدمة التفسير - يعلم أن لا حاجة إلى الذهاب إلى أنها مدنية ألحقت بالسورة - ولا إلى ردّ ما روى من هذه الآثار. إذ به يتضح عدم التنافي . والتقاء الآثار مع الآية . فتذكره .

الثالث : قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن . فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما في قوله تعالى ^(١) (وَجَزَّاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) ثم قال ^(٢) (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) الآية . وقال ^(٣) (وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ) ثم قال ^(٤) (فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ) انتهى .

ثم أكد تعالى الأمر بالصبر ، ليقوى الثبات والاحتمال ، لكل ما يلاقيه في سبيل الحق ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)

[١٢٨] (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)

« وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ » أى بمعونته وتوفيقه « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى على الكافرين ، أى على كفرهم وعدم هدايتهم « وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » أى فى ضيق صدر مما يَمْكُرُونَ من فنون المكائد « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » . لتلليل لما قبله . أى فإنه تعالى كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك بهم . لأنه تعالى مع التقين والمحسنين بالمعونة والنصر والتأييد ، فيحفظهم ويكلوهم ويظهرهم على أعدائهم . قال ابن كثير :

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٠] . (٢) [٥ / المائدة / ٤٥] .

هذه معية خاصة كقوله تعالى^(١) (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتِي مَعَكُمْ فَتَبَتُّوا الَّذِينَ ءَامَنُوا) وقوله لموسى وهرون^(٢) (لَا تَخَافَا ، إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى^(٣) (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) وقوله^(٤) (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَافِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) .

قال أبو السعود : تكرير الموصول للإيدان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه، من غير أن تكون إحداها تنمة للأخرى . وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث . كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة فيهم . وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية . والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين ، وهو عليه الصلاة والسلام داخل في زميرتهم دخولاً أولياً . وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شابعه . عبر عنهم بذلك ، مدحاً لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلتين . وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتراء الأمة به ، كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما ، عند التعزية بأبيه العباس :

اصبر نكن بك صابرينَ فَإِنَّمَا صَبِرُ الرَّعِيَةِ عِنْدَ صَبْرِ الرَّاسِ
وبعد هذا البيت :

خَيْرٌ مِنَ الْعَبَاسِ أَجْرُكَ بَعْدَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَاسِ
قال ابن عباس : ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي .

وعن هَرَم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار : أوص . قال : إنما الوصية من المال ، فلا مال لي . وأوصيكم بخواتيم سورة النحل ...

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٤) [٥٨ / المجادلة / ٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

وتسمى سورة بنى إسرائيل وسورة سبحان ، ولم يحك خلاف فى كونها مكية . نعم استثنى بعضهم منها: ^(١) (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) وآية ^(٢) (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَحُنَاكَ) إلى قوله تعالى (إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) وآية ^(٣) (قُلْ لِّإِنِّ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ) الآية وقوله ^(٤) (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا ...) الآية ، وقوله ^(٥) (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ) لما ذكره فى أسباب نزولها . ويأتى البحث فى ذلك إن شاء الله تعالى ، وآياتها مائة وإحدى عشرة .

(١) [١٧ / الإسراء / ٨٥] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٧٣] .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٨٨] . (٤) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٥) [١٧ / الإسراء / ١٠٧] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ۖ لِنُرِيَهُ وَمِنَ الْأَيْتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) «سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ۖ لِنُرِيَهُ وَمِنَ الْأَيْتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» .

يعجد تعالى نفسه بقوله (سُبْحَنَ) ويزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله ، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره . وقوله تعالى (الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أى سيره منه ليلاً . و (أسرى) بمعنى (سرى) يقال : أسراه وأسرى به وسرى به . فهزمة (أسرى) ليست للتعدي . ولذا عدى بالباء . و فرق بعضهم بين أسرى وسرى بالمبالغة فى (أسرى) لإفادة السرعة فى السير ولذا أوثر على (سرى) .

والإمراء سير الليل كله ، كأسرى ، فقوله تعالى (لَيْلًا) للتأكيد أو للتجريد عن بعض القيود . مثل : أسعفت مرأته . مع أن الإسعاف قضاء الحاجة . أو للتنبيه على أنه المقصود بالذكر . وقد استظهره الناصر فى (الانتصاف) قال : ونظيره فى أفراد أحد ما دل عليه اللفظ المتقدم مضموماً لغيره ، قوله تعالى ^(١) (لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية ، وكذلك المفرد . فأريد التنبيه على أن أحد المعنيين ، وهو التثنية ، مراد مقصود ، وكذلك أريد الإيقاظ ، لأن الوجدانية هى المقصودة فى قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) ولو اقتصر على قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ) لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له . والغرض من الكلام ليس إلا إثبات الوجدانية .

(١) [١٦ / النحل / ٥١] .

وقيل سرّ قوله (لَيْلًا) إفادة تقليل الوقت الذي كان الإسراء والرجوع فيه . أى أنه كان في بعض الليل أخذاً من تنكيره . فقد نقل عن سيبويه أن الليل والنهار إذا عُرِّفاً كانا معياراً للتعميم ، فلا تقول أُرقت الليل ، وأنت تريد ساعة منه ، إلا أن تقصد المبالغة . بخلاف المنكر فإنه لا يفيد ذلك . فلما عدل عن تعريفه هنا ، علم أنه لم يقصد استغراق السرى ، وهذا هو المراد من البعضية . وجوز بعضهم أن يكون (أسرى) من (السراة) وهى الأرض الواسعة . وأصله من الواو . أسرى مثل أجبل وأتهم ، أى ذهب به فى سراًة من الأرض ، وهو غريب . وفى تخصيص الليل لإعلام بفضلته لأنه وقت السر والنجوى والتجلى الأسمى ، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل . والمراد (بعبدته) خاتم أنبيائه محمد ﷺ . وفى ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة ، من التشريف والتبويه والتنبيه على اختصاصه به عزّ وجلّ وانقياده لأوامره - ما لا يخفى .

والعبد ، لغةً ، الإنسان مطلقاً والمملوك والعبودية الذل والخضوع والرق والطاعة ، كالعبادة والعبودة .

قال ابن القيم فى (طريق الهجرتين) : أكمل الخلق أكلهم عبودية . وأعظمهم شهوداً . لِقَرِّهِ وضرورته وحاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه ضرورة عين . ولهذا كان من دعائه ﷺ : أصليح لى شأنى كله ولا تسكنى إلى نفسى طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك .

ثم قال : ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأرفعهم عنده منزلة ، لتكميله مقام العبودية والفقر . وكان يقول : أيها الناس ! ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى . إنما أنا عبد . وكان يقول ^(١) : لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم . إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله . وذكره سبحانه بسمّة العبودية فى أشرف مقاماته : مقام

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٤٨ - باب وأذْكُرْ فى الْكِتَابِ

الإسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدى . فقال (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا) وقال ^(١) (وَأَنَّهُ وَلَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) وقال ^(٢) (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) وفي حديث الشفاعة : أن المسيح يقول لهم : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال ذلك بكمال عبوديته لله ، وبكمال مغفرة الله له . انتهى .

وقوله تعالى (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) يعنى مسجد مكة المكرمة . سمي حراماً ، كبلده ، لكونه لا يحل انتهاكه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره ولا كلئه . وقوله سبحانه (إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا) هو مسجد بيت المقدس ، وكان يعرف بهيكل سليمان لأنه الذى بناه وشيده (والأقصا) بمعنى الأبعد . سمي بذلك لبعده عن مكة ، وقوله تعالى (الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ) أى جوانبه بركات الدين والدنيا . لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيمهم ومنمى الزروع والثمار . فاكنتفتة البركة الإلهية من نواحيه كلها . فبركته إذن مضاعفة ، لكونه فى أرض مباركة ، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى . والمساجد بيوت الله . ولكونه متعبداً الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم ، فبورك فيه ببركتهم وبنعمهم أيضاً .

وقد قيل فى خصائص (الأقصا) : إنه متعبداً الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، ومعراجهم إلى السموات العلى والمشهد الأسمى . بيت نوره الله به فى الآيات المفصلة ، وتليت فيه السكتب الأربعة المنزلة . لأجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليتيسر فتحه على من وعدوا به ويقرب . وهو قبلة الصلاة فى الملتين ، وفى صدر الإسلام بعد الهجرتين . وهو أولى القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين . لا تشد الرحال ^(٣) بعد المسجدين إلا إليه ،

(١) [٧٢ / الجن / ١٩] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣] .

(٣) حديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، الخ . أخرجه البخارى فى : =

ولا تعقد الخناصر بعد المواطنين إلا عليه . انتهى . ومن فضائله ما رواه الإمام أحمد^(١) والنسائي والحاكم وصححه ، عن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً . فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة .
سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه .

وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه .

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد - يعني بيت المقدس - خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك .

وروى أن ابن عمر كان إذا دخله لا يشرب من مائه . تجريداً لقصد الصلاة .

وقال الشيرازي في (عرائس البيان) : كان بداية المعراج الذهاب إلى الأقصى . لأن هناك الآيات الكبرى من أنوار تجليه تعالى لأرواح الأنبياء وأشباههم . وهناك بقربه طور سيناء وطورزيتا ومقام إبراهيم وموسى وعيسى في تلك الجبال ، مواضع كشف الحق . لذلك قال (بَرَكْنَا حَوْلَهُ) . انتهى .

والالتفات في (بَرَكْنَا) لتعظيم ما ذكر . لأن فعل العظيم يكون عظيماً . لا سيما إذا عبر عنه بصيغة التعظيم . والفككة العامة تنشيط السامعين .

= ٢٠ - كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٦ - باب مسجد بيت المقدس ، حديث ٣٧٩ ، عن أبي سعيد الخدري .

وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤١٥ (طبعتنا) .

(١) من حديث طويل عن عبد الله بن عمرو ، أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة

رقم ١٧٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٦٤٤ (طبعة المعارف) .

وأخرجه النسائي في : ٨ - كتاب المساجد ، ٦ - باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه .

وقوله تعالى (لِنُرِيَهُ وَمِنْ أَیَّتِنَا) إشارة إلى حكمة الإسراء . أى لکی نری محمداً صلى الله علیه وسلم من آیاتنا العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل ، مسيرة شهر ، ومشاهدة بيت المقدس وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية .

قيل : أراد تعالى أن يريه صلى الله علیه وسلم من الآيات الحسية بعد ما أراه الآيات العقلية . لأن الآيات الحسية أكبر في قطع الشبهة ودفع الوسوس من العقلية . إذ لا يشك أحد فيما كان سبيل معرفته الحس والعيان . وقد تعترض الشبهة والوسوس في العقلیات . لأنه لا يشك أحد في نفسه أنه هو . فشاء عز وجل أن يري رسوله آيات حسية فتدفع المنصفين إلى قبولها والإيمان بها والإقرار له بالرسالة . إذ ليس ذلك عمل سحر ولا افتراء ولا أساطير الأولين ، كذا يستفاد من (التأويلات) لأبي منصور .

وما أحسن ما قاله ابن إسحق^(١) : كان في مسراه صلى الله علیه وسلم وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله في قدرته وسلطانه . فيه عبرة لأولى الأبواب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق . وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين . فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد . حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد . انتهى .

وقوله تعالى : (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أى السميع لأقوال عباده وأفعاله فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

تنبيهات :

الأول : دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء ، وهو سير النبي صلى الله علیه وسلم إلى بيت المقدس ليلاً . وأما العروج إلى السموات وإلى ما فوق العرش فهذه الآية لا تدل عليه .

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢٦٣ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم . والكلام عليه ثمة .

الثانية : ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قاله الزهري وابن سعد وغيرهما . وبه جزم النووي ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه . وقال : كان في رجب سنة اثنتى عشرة من النبوة .

وفي (إنسان العيون) : أن تلك الليلة كانت ليلة سبع عشرة . وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الأول ، وقيل : ليلة تسع وعشرين خلت من رمضان ، وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الآخر ، وقيل : من رجب واختار هذا الأخير ، الحافظ عبد الغنى المقدسى قال : وعليه عمل الناس . والله أعلم .

الثالث : في (زاد المعاد) لابن القيم : كان الإسراء مرة واحدة وقيل : مرتين ، مرة يقظة ومرة مناماً . وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله (ثم استيقظت) . وبين سائر الروايات . ومنهم من قال : بل كان هذا مرتين : مرة قبل الوحي لقوله في حديث شريك (وذلك قبل أن يوحى إليه) ومرة بعد الوحي كما دلت عليه سائر الأحاديث . ومنهم من قال : بل ثلاث مرات : مرة قبل الوحي ومرتين بعده . وكل هذا خبط وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل ، الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات ، جعلوه مرة أخرى . فكلمة اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع . والصواب الذى عليه أئمة النقل ؛ أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة . ويأجبا لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً ! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى يصير خمساً ، ثم يقول أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى . ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها عشراً عشراً ؟ ! .

الرابع : قال القاضي عياض ، عليه الرحمة ، في (الشفا) : اختلف السلف والعلماء هل كان إسراء بروحه أو جسده على ثلاث مقالات : فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى . وإلى هذا ذهب معاوية . وحكى عن

الحسن (والشهور عنه خلافة) وإليه أشار محمد بن إسحق . وحجتهم قوله تعالى ^(١) (وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي آرَيْنَاكَ) وما حكوا عن عائشة : ما فقدت جسد رسول الله ﷺ وقوله (بينا أنا نائم) . وقول أنس : (وهو نائم في المسجد الحرام) وذكر القصة . ثم قال في آخرها : (فاستيقظ وأنا بالمسجد الحرام) .

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسرائ بالجسد وفي اليقظة . وهذا هو الحق ، وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حبة البدرى وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبيرة وقتادة وابن المسيب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج . وهو دليل قول عائشة . وهو قول الطبري وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين . وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس . وإلى السماء بالروح : واحتجوا بقوله (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ...) الآية فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التمعج فيه بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبي وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه . قال هؤلاء : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ في المدح . ثم اختلفت هاتان الفرقتان : هل صلى ببيت المقدس أم لا ؟ في حديث أنس وغيره صلواته فيه . وأنكر ذلك حذيفة وقال : والله ! ما زال عن ظهر البراق حتى رجعا .

ثم قال القاضي عياض : والحق في هذا والصحيح ، إن شاء الله ، أنه إسرائ بالجسد والروح في القصة كلها . وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل ، إلا عند الاستحالة ، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة . إذ لو كان مناماً لقال (روح عبده) ولم يقل (بعده) وقوله ^(٢) (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) ولو كان

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٢) [٥٣ / النجم / ١٧] .

مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة . ولما استبعده الكفار ولا كذبوه . ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتنوا به . إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر . بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته ، إلى ما ذكر في الحديث ، من ذكر صلاته بالأنبياء بيت المقدس في رواية أنس (أوفى السماء) على ماروى غيره . وذكر مجيء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد . ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه في فرض الصلاة ومراجعتهم مع موسى في ذلك .

وفي بعض هذه الأخبار : فأخذ ، يعني جبريل ، بيدي ، فخرج بي إلى السماء إلى قوله : ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام . وأنه وصل إلى سدرة المنتهى ، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره . قال ابن عباس : هي رؤيا عين رآها النبي صلى الله عليه وسلم ، لارؤيا منام .

وعن الحسن فيه بيناً أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهمزني بعقبه فقممت فجلست فلم أركب شيئاً . فعدت لمضجتي . ذكر ذلك ثلاثاً ، فقال في الثالثة : فأخذ بعصدي فجرتني إلى باب المسجد ، فإذا بدابة . وذكر خبر البراق .

وعن أم هانئ : ما أسرى رسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي تلك الليلة . صلى العشاء الآخرة ونام بيننا . فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ . فلما صلى الصبح وصلينا قال : يا أم هانئ ! لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه . ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون . وهذا بين في أنه بجسمه .

وعن أبي بكر (من رواية شداد بن أوس عنه) أنه قال للنبي ﷺ ليلة أسرى به : طلبتكم يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجدك . فأجابه : أن جبريل حمله إلى المسجد الأقصى .

وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : صليت ليلة أسرى بي في مقدم المسجد ثم دخلت الصخرة - وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة . فتحمل على ظاهرها .

وعن أبي ذر رضي الله عنه . عن النبي ﷺ : فرج سقف بيتي وأنا بحكمة ، فنزل جبريل ثم أخذ بيدي فخرج بي .

وعن أنس : أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم . وعن أبي هريرة : لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي . فسألتني عن أشياء لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لي أنظر إليه . ونحوه عن جابر .

وقد روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإسراء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها .

ثم قال القاضي عياض (في إبطال حجج من قال إنها نوم) . احتجوا بقوله (وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا إِلَّا فُسْهًا) (رؤيا) . قلنا : قوله (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) يردّه لأنه لا يقال في النوم (أسرى) .

وقوله (فِتْنَةً لِلنَّاسِ) يؤيد أنها رؤيا عين وإسراء شخص . إذ ليس في الحلم فتنة ولا يكذب به أحد . لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من السكون في ساعة واحدة في أقطار متباعدة . على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية . فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قصة الحديبية وما وقع في نفوس الناس من ذلك . وقيل غير هذا .

وأما قولهم : إنه قد ستمها في الحديث مناماً ، وقوله في حديث آخر : بين النائم واليقظان . وقوله أيضاً : وهو نائم . وقوله : ثم استيقظت - فلا حجة فيه . إذ يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم . أو أول حمله والإسراء به وهو نائم . وليس في الحديث أنه كان نائماً في القصة كلها إلا ما يدل عليه (ثم استيقظت وأنا في المسجد الحرام) فلعل قوله (استيقظت) بمعنى أصبحت . أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته . ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله . وإنما كان في بعضه . وقد يكون قوله (استيقظت وأنا في المسجد الحرام) لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض ، وخامر بطنه من

مشاهدة الملا الأعلى ، وما رأى من آيات ربه الكبرى . فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام . ووجه ثالث ؛ أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه . ولكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر . ورؤيا الأنبياء حق . تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم . وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من هذا . قال : تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله ، ولا يصح هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء ، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات .

ووجه رابع ، وهو أن يعبر بالنوم ههنا عن هيئة النائم من الاضطجاع . ويقويه قوله في رواية عبد بن حميد عن همام : (بينا أنا نائم وربما قال مضطجع) وفي رواية هذبة عنه (بينا أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجع) . وقوله في الرواية الأخرى (بين النائم واليقظان) فيكون سمي هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالباً . وذهب بمضمهم إلى أن هذه الزيادات من النوم وذكر شق البطن ودنو الرب ، الواقعة في هذا الحديث ، إنما هي من رواية شريك عن أنس . فهي منكورة من روايته . انتهى كلام عياض . وبقيت له بقية من شاء فليراجعها .

الخامس : جملة الأقوال في الإسراء والمعراج ، على ما حكاه ابن القيم في (زاد المعاد) ، ستة : بروحه وجسده وهو الذي صححوه . وقيل : كان ذلك مناماً . وقيل بل يقال أسرى به ولا يقال يقظة ولا مناماً . وقيل كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة وإلى السماء مناماً ، وقيل : كان الإسراء مرتين ، مرة يقظة ومرة مناماً . وقيل بل أسرى به ثلاث مرات . وكان ذلك بعد البعث بالاتفاق . وأما ما وقع في حديث شريك أن ذلك قبل أن يوحى إليه ، فقيل هو غلط ، وقيل : الوحي هنا مقيد وليس بالوحي المطلق الذي هو مبدأ النبوة . والمراد قبل أن يوحى إليه في شأن الإسراء ، فأسرى به فجأة من غير تقدم إعلام . وقد قدمنا أن عائشة ومعاوية والحسن ، نقل الأكثرون عنهم ؛ أنها رؤيا منام ، وكذا حكى ابن جرير عن حذيفة .

إلا أن ابن القيم نبه على دققة غريبة . قال رحمه الله : نقل ابن إسحق عن عائشة ومعاوية أنهما قالوا : إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده . ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك . ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال : كان الإسراء مناماً ، وبين أن يقال : كان بروحه دون جسده . وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقولوا كان مناماً وإنما قالوا : أسرى بروحه ولم يفقد جسده . وفرق بين الأمرين . فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة . فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء ، أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض . وروحه لم تصعد ولم تذهب . وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال . والذين قالوا عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان : طائفة قالت : عرج بروحه وبدنه ، وطائفة قالت : عرج بروحه ولم يفقد بدنه . وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً . وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسرى بها وعرج بها حقيقة . وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة في صعودها إلى السموات سماء سماء ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فتقف بين يدي الله عز وجل . فيأمر فيها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض . فالذي كان لرسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكل مما يحصل للروح عند المفارقة . ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم . لكن لما كان رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد ، حتى شق بطنه وهو حي لا يتألم ؛ كذلك عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة . ومن سواه ، ﷺ ، لا تنال ذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة . فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان . وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك في حال الحياة ثم عادت . وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء . ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق وتعلق به . بحيث يرد السلام على من سلم عليه . وبهذا التعلق رأى موسى قائماً يصلي في قبره ، ورآه في السماء السادسة ، ومعلوم أنه لم يعرج بموسى من قبره ثم رد إليه ، وإنما ذلك مقام روحه واستقرارها ، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها . فرآه يصلي في قبره ورآه في السماء السادسة . كما أنه ﷺ في أرفع مكان في الرفيق الأعلى مستقراً هناك .

وبذنه في ضريحه غير مفقود . وإذا سلم عليه المسلم ، ردَّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ولم يفارق الملائكة الأعلى . ومن كثف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هذا ، فليتنظر إلى الشمس في علوِّ محلها وتعلقها وتأثيرها في الأرض ، وحياة النبات والحيوان بها . هذا ، وشأن الروح فوق هذا . فلها شأن وللأبدان شأن . وهذه النار تسكون في محلها ، وحرارتها تؤثر في الجسم البعيد عنها . مع أن الارتباط والتعلق الذي بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتم . فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف .

فَقُلْ لِلْعَمِيقِ الرَّمْدِ إِيَّاكَ أَنْ تَرَى سَنَا الشَّمْسِ فَاسْتَغْشَى ظِلَامَ اللَّيْلِ لِيَا
انتهى كلام ابن القيم .

وقال العلامة سعدى (حواشى البيضاوى) : والمراج بروحه في اليقظة - وهو الذى أشار إليه ابن القيم - خارق أيضاً للعادة . انتهى .

وتعقب العلامة القنوى له : بأنه نوع مراقبة وانسلاخ ، والذى ذهب إليه الصوفية ساقط . لأنه فوقه بكثير . بل غيره كما تبين قبل . وبالجملة ، فالذى فهمه الأكثرون من قول عائشة ومعاوية وحذيفة والحسن ؛ أن ذلك رؤيا منام . وما ذكره ابن القيم من أنه إسراء بالروح - فيحتمله اللفظ المأثور عنهم .

ونظيره قول بعضهم : إن ذلك كان أمراً إعجازياً . والحقيقة أنه كشف روحانى . وقد قرروا في عدم استحالة كونه يقظة بالروح والجسم ؛ أن خالق العالم قادر على كل الممكنات . وحصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسده ﷺ ممكن . فوجب كونه تعالى قادراً عليه . وغاية ما في الباب أنه خلاف العادة . والمعجزات كلها كذلك . وفي (العقائد النسفية وحواشيه) : الخرق والالتئام على السموات جائز . لأن الأجسام كلها متماثلة في تركيبها من الجواهر الفردة ، فيصح على كل ما يصح على الآخر . فالأجسام العنصرية قابلة للخرق والالتئام . وكذا الأجسام الفلكية . والله تعالى قادر على الممكنات كلها . فيكون قادراً على الخرق في السموات ، لأنه ممكن فيها . وفي الرازى براهين آخر . فانظرها .

جاء في كتاب (إظهار الحق) أن بعض أهل الكتاب مارى في المعراج ، فَبَسَّكَتَ بأن صعود الجسم المنصرى إلى الأفلاك صرّحت به التوراة الموجودة لديهم في (أخنوخ) . وأنه نقل حياً إلى السماء لثلا يرى الموت . كما في الفصل الخامس من سفر التسكوين . وصرّحت في صعود (إليا) في الفصل الثاني من سفر الملوك . وفي إنجيل مرقس في الفصل السادس عشر التصريح برفع المسيح عليه السلام إلى السماء . انتهى .

أقول : أخنوخ هو إدريس عليه السلام المنوّ به في قوله تعالى ^(١) (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) وإيليا نبيُّ أرسل إلى آحاب أحد ملوك اليهود الكفرة ، الذين شهبوا عبادة بعل وغيره من الأصنام بالسامرة . وتسمى الآن : سِبْسِطِيَّة : من قسم الأرض المقدسة . زعموا أنه ظهرت على يد إيليا خوارق باهرة . وأنه قتل سدنة بعل وهدم مذبحه . إلى أن ارتفع في مركبة نارية وخيل نارية نحو السماء . جانب نهر الأردن في بطاح أريحا . شاهده خليفة الإشاع النبيّ بعده . كذا في تاريخ الكتاب المقدس ، و (إيليا) هو إلياس ، و (الإشاع) هو اليسع المذكوران في القرآن المجيد . وقد نوّه بالأول في سورة الصافات بقوله تعالى ^(٢) (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ...) الآيات

السادس - قيل : إن المسجد الأقصى في زمن الإسراء كان خراباً . بشهادة التاريخ . وذلك لأن سليمان عليه السلام بناه على مكان الصخرة . ثم خرب وألقيت على الصخرة زبالة البلد عناداً لليهود . وبقي كذلك حتى فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس . انظر (تاريخ أبي الفدا) وغيره . فكيف أطلق عليه اسم المسجد ؟ وأجيب : بأن المسجد في حال هدمه يسمى مسجداً . باعتبار ما كان عليه وما وضع له . كما أطلق المسجد على حرم مكة . وهو لم يكن يومئذ مسجداً . وإنما كان بيتاً للأصنام .

(١) [١٩ / مريم / ٥٧] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٢٣-١٢٦] .

لكن إبراهيم وإسماعيل ، لما بنيا الكعبة للعبادة الصحيحة ، كما بنى سليمان هيكله هذا لها ، سمي مسجداً بهذا الاعتبار . أو يقال : إنه أطلق عليهما اسم المسجد للإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهما . وهو كونهما مسجدين للمسلمين .

السابع : في التفاضل بين ليلة القدر وليلة الإسراء . سئل الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية رضى الله عنه ، عن رجل قال : ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر : بل ليلة القدر أفضل . فأيهما المصيب ؟

فأجاب : أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، إن أراد به أن تكون الليلة التي أسرى فيها بالنبي ﷺ ونظارها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر ، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر . فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين ، وهو معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام . هذا إذا كانت ليلة الإسراء يعرف عنها . فكيف ولم يقدّم دليل معلوم لا على شهرها ولا عشرها ولا على عينيها ؟ بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة ، ليس فيها ما يقطع به ، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة ، التي يظن أنها ليلة الإسراء ، بقيام ولا غيره . بخلاف ليلة القدر فإنه قد ثبت في الصحيحين ^(١) عن النبي ﷺ أنه قال : من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وفي الصحيحين ^(٢) عنه :

- (١) أخرجه البخاري في : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ، ١ - باب فضل ليلة القدر وقول الله تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ... الخ ، حديث رقم ٣٣ ، عن أبي هريرة . وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، الحديث رقم ١٧٥ (طبعنا) .
- (٢) أخرجه البخاري في : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ، ٣ - باب تحرى ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر ، حديث رقم ١٠٢٥ ، عن عائشة . وأخرجه مسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث رقم ٢١٩ (طبعنا) .

تَحْرُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ . وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ .
فَإِنَّهُ نَزَلَ فِيهَا الْقُرْآنُ .

وإن أراد أن الليلة المعينة التي أسرى فيها بالنبي ﷺ ، وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها ، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة ، فهذا صحيح . وليس إذا أعطى الله نبيه ﷺ فضيلة في مكان أو زمان ، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة . هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إناعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إناعامه عليه .
بأنزال القرآن ليلة القدر ، وغير ذلك من النعم التي أنعم عليه . والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور ومقادير النعم التي لا تعرف إلا بوحى . ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم .
ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه نقل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها . لاسيما على ليلة القدر . ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها . ولهذا لا يعرف أى ليلة كانت . وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ .
ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان بعبادة شرعية . بل غار حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي ، وكان يتحراه قبل النبوة ، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة ، مدة مقامه بمكة . ولا خص اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها . ولا خص المكان الذي ابتدئ فيه الوحي ولا الزمان بشيء . ومن خص الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات ، لأجل هذا وأمثاله ، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مراسم وعبادات . كيوم الميلاد ويوم التعميد وغير ذلك من أحواله . وقد رأى عمر بن الخطاب جماعة يتبادرون مكاناً يصلّون فيه . فقال : ما هذا ؟ قالوا : مكان صلى فيه رسول الله ﷺ .
فقال أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . فمن أدركته فيه الصلاة فليصل ، وإلا فليمض . وقد قال بعض الناس : إن ليلة الإسراء في حق النبي ﷺ أفضل من ليلة القدر . وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء . فهذه

الليلة في حق الأمة أفضل لهم . وليلة الإسراء في حق رسول الله ﷺ أفضل له . انتهى .
نقله الشمس ابن القيم (في زاد المعاد) .

الثامن : قال الشمس ابن القيم (زاد المعاد) . اختلف الصحابة : هل رأى النبي ﷺ ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصَحَّ عن ابن عباس أنه رأى ربه . وصَحَّ عنه أنه قال : رآه بفؤاده . وصَحَّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك وقالوا : إن قوله تعالى ^(١) : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ) إنما هو جبريل . وصَحَّ عن أبي ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور . كما قال في لفظ آخر : رأيت نوراً . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمى اتفاق الصحابة على أنه لم يره . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس الله روحه : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا . ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربي تبارك وتعالى . ولكن لم يكن هذا في الإسراء ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح . ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله وقال : نعم ، رآه حقاً . فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد . ولكن لم يقل أحمد إنه رآه بعيني رأسه . ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه . ولكن قال مرة : رآه ، ومرة قال : رآه بفؤاده . فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه . وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك . وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى ^(٢) (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ) ثم قال ^(٣) (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) والظاهر أنه مستنده ، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئى جبريل . رآه مرتين في صورته التي خلق عليها . وقول ابن عباس هذا ، هو مستند الإمام أحمد في قوله : رآه بفؤاده . والله أعلم .

(١) [٥٣ / النجم / ١٤ و ١٣] .

(٢) [٥٣ / النجم / ١١] .

(٣) [٥٣ / النجم / ١٣] .

التاسع : قال الجاحظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه (التنوير في مولد السراج المنير) - بعد ذكره حديث الإسراء من طريق أنس - وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلى وابن مسعود وأبي ذرٍّ ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قُرط وأبي حَبَّة وأبي ليلي الأنصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء وصهيب الرومي وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم ، أجمعين ، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره ، على ما وقع في المسانيد . وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة . فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون . وأعرض عنه الزنادقة والملحدون . انتهى .

وقد نقل الرازي عن بعض المعتزلة رده لجل فيه - ساقها - صعب عليهم دركها . ولا إشكال فيها في الحقيقة بحمده تعالى . ولكن هم وأمثالهم ممن ضعفت عنايتهم بفن الحديث وغلب عليهم فنّ المعقول . وَلَقَدْ فَاتَهُمْ بسبب ذلك خير كثير . وليس في الأحاديث الصحيحة ما يناقض المفعول أو الواقع ، بوجه ما ، يعلم ذلك الراسخون ، وفوق كل ذي علم عليم . وقد بقى ممن رواه من الصحابة . غير من تقدم - سهل بن سعد وعبد الله بن حوالة الأزدي وعبد الله بن أسعد بن زراراة وأبو الدرداء وعبد الله بن عمر . وأما من رواه من التابعين مرسلاً فكثير . منهم الحسن بن الحسين عليهما السلام وكعب ومحمد بن الحنفية وعروة وسفيان الثوري والوليد بن مسلم وعبد الرحمن بن أبي ليلى وآخرون . كما يعلم من مراجعة (الدر المنثور) للحافظ السيوطي .

وأما طريقه في الصحيحين . فقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : إنها تدور على أنس بن مالك مع اختلاف أصحابه عنه . فرواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة . وليس في أحاديث المعراج أصح منه . ورواه الزهري عنه عن أبي ذر . ورواه شريك بن أبي نمر وثابت البناني عنه عن النبي ﷺ بلا واسطة . وفي سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر . اهـ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا)

[٣] (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

« وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » .

قال ابن كثير : لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه . فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن . وقال الرازي : لما ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه محمداً ﷺ بأن أسرى به ، ذكر في هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذي آتاه . وقال الشهاب في (العناية) : عقت آية الإسراء بهذه ، استطراداً بجامع أن موسى عليه الصلاة والسلام أعطى التوراة بمسيره إلى الطور وهو بمنزلة معراجيه . لأنه صرح ثمة التكليم ، وشرف باسم التكليم مدججاً فيه تفاوت ما بين الكتابين ومن أنزل عليه . وإن شئت فوازن بين (أسرى بعبده) . و (آتينَا موسى) . وبين (هدى لبني إسرائيل) . و (يهدى للتي هي أقوم) . و (الواو) استثنائية أو عاطفة على جملة (سبحانه الذي أسرى) الخ لا على (أسرى) ، لبعده وتكلفه . وضمير (وجعلناه) للكتاب أو لموسى و (لبني إسرائيل) متعلق بـ (هدى) أو بـ (جعلناه) ، وهي تمليلية .

وقوله : (أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا) أي ولياً ومعبوداً تكونون إليه أموركم . لأنه تعالى أنزل على كل نبي أرسله ، أن يعبد وحده لا شريك له ، وقد قرئ (أَلَّا يَتَّخِذُوا)

بالياء على الغيبة على حذف لام التعليل . والتقدير : جعلناه هدى لثلاث يتخذوا . وقرئ بالتاء على الخطاب . وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن (أن) بمعنى أى . وهى مفسرة لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهى .
الثانى : أن (أن) زائدة ، أى قلنا : لاتتخذوا .

الثالث : أن (لا) زائدة ، والتقدير : مخافة أن تتخذوا . والوكيل الموكول إليه . أى المفوض إليه الأمور ، وهو الرب . (ففعل) بمعنى مفعول . و (دون) بمعنى غير . و (من) زائدة . أو تبعيضية . وقوله : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) نصب على الاختصاص أو النداء . وفيه تهديد وتنبيه على المنة . والإنعام عليهم فى إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح فى السفينة . وإيحاء إلى علة النهى . كأنه قيل : لاتشركوا به فإنه المنعم عليكم والمنجى لكم من الشدائد . وأنهم ضعفاء محتاجون إلى لطفه . وفى التعبير بـ (الذرية) الغاب إطلاقها على الأطفال والنساء ، مناسبة تامة لما ذكر . وذكر حملهم فى السفينة ، للإشارة إلى أنه لم يكن لهم حينئذ وكيل يتكلمون عليه سوا . وقوله (عَبْدًا شَكُورًا) أى لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذى ينبغى . وفيه إيحاء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره ، وحث للذرية على الاقتداء به . وقيل : إنه استطراد .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)

[٥] (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا)

« وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ » أى كتاب اللوح المحفوظ ، أى حكمنا فيه « لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ » يعنى أرض فلسطين بيت المقدس التى بارك الله حولها . والإفساد بالكفر والمعاصى .

قال السمين : فى تعدية (قضينا) بـ (إلى) تضمينه معنى أنفدنا . أى أنفدنا إليهم بالقضاء المحتوم . ومتعلق القضاء محذوف . أى بفسادهم . وقوله (لَتُفْسِدُنَّ) جواب قسم محذوف مؤكد لمعنى القضاء ، أو جواب لقوله : (وَقَضَيْنَا) لأنه ضمن معنى القسم . ومنه قولهم (قضاء الله لأفعلن كذا) فيجرون القضاء والقدر مجرى القسم ، فيتلقيان بما يتلقى به القسم . و (مرتين) أى إفسادتين . منصوب على أنه مصدر (لتفسدن) من غير لفظه . وعدل عنه ، لأن ثنية المصدر وجمعه ليس بمطرد : « وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا » أى ولتستكبرن وتمتظمن عن طاعة الله تعالى ، أو لتظلمن الناس « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا » أى موعود أولى المرتين ، أى وما وعدوا به فى المرة الأولى ، يعنى وعد المؤاخذه على أولى المفسدين : « بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى ذوى قوة وبطش فى الحرب ، شديد « فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ » ترددوا خلال أما كنكم ومحالكم للقتل والسبي والنهب « وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا » أى مَقْضِيًّا لا صارف له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)

[٧] (إِنِ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)

[٨] (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم ، وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا . وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)

« ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ » أى بعد هذه المؤاخذة الشديدة ، ردنا ، عند توبتكم ، لكم الغلبة التى كانت لكم فى الأصل ، عليهم « وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا » أى قومًا ورهطًا . جمع (نفر) أو اسم جمع له . وأصله من ينفر مع الرجل من قومه . وقوله تعالى « إِنِ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » بمثابة التعليل لما قبله . أى فعلنا ذلك لتعلموا أنكم إن أحسنتم توبتكم وأعمالكم ، أحسنتم لأنفسكم ، بإبقاء الغلبة لها والإمداد بالأموال والبنين وتكثير النفير (وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) أى فإساءتكم ضارة لها بغلبة الأعداء وسلب الأموال والبنين والنفير « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ » أى مؤاخذة المرة الآخرة وعقوبتها . وقوله تعالى « لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ » متعلق بجواب (إِذَا) المحذوف . أى بعثناهم ليسوءوا وجوهكم ، أى ذواتكم بالإذلال والقهر .

قال الشهاب: عدت المساءة إلى الوجوه، وإن كانت عليهم، لأن آثار الأعراض النفسانية إنما تظهر في الوجه . كمنضارة الوجه وإشراقه بالفرح . وكلوحه وسواده بالخوف والحزن .

فالوجه ، بمعنى الذات ، مجاز مرسل ، أو استعارة تبعية . وقيل : الوجه بمعنى الرؤساء . وهو تكلف . واختير هذا على (لَيْسُوا وَكُمُ) مع أنه أخصر وأظهر ، إشارة إلى أنه جمع عليهم ألم النفس والبدن ، المدلول عليه بقوله (وَلِيَتَّبِعُوا) . انتهى .

وقوله تعالى « وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ » أى الأقصى « كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا » أى يدمروا « مَا عَلَوْا تَبْيِيرًا » أى عظيمًا فظيعًا ، والتبئير : التدمير . وكل شيء كسره وفتته فقد تبرته . ثم أشار إلى أن فعله تعالى ليخلصوا توبتهم وأعمالهم بقوله « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ » أى إذا أخلصتم للإنباء ، وأحسنتم الأعمال ، وأقمتم الكتاب وما نزل إليكم ، لأنكم علمتم من سنته تعالى أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفعه إلا بتوبة . ولذا قال « وَإِنْ عُدْتُمْ » أى بعد هذه التوبة والإنباء إلى الاستكبار « عُذْنَا » أى إلى تسليط الأعداء وسلب الأموال والأولاد فى الدنيا .

« وَجَعَلْنَا » أى يوم القيامة « جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » أى محبسًا وسجنًا يحصرهم فى العذاب والحerman عن الثواب .

قال الشهاب : إن كان - (حصيرًا) - اسمًا للمكان فهو جامد لا يلزم تذكيره وتأنيثه . وإن كان بمعنى حاصر أى محيطًا بهم ، وفعل بمعنى فاعل ، يلزم مطابقتها . فإما لأنه على النسب . كلاين وتامر . أو لملحه على (فاعيل) بمعنى (مفعول) . أو لأن تأنيث جهنم غير حقيقى أو لتأويلها بذكر . انتهى .

وقيل : حصيرًا ، أى بساطا كما يبسط الحصير . مثل قوله تعالى ^(١) : (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ) فهو تشبيه بليغ . والحصير بهذا المعنى بمعنى محصور لخصر بعض طاقاته على بعض . كما قاله الراغب .

(١) [٧ / الأعراف / ٤١] .

تنبيه :

روى أن بنى إسرائيل كان الأمر مستتباً لهم في فلسطين إلى موت سليمان عليه السلام . فلما ملك ابنه بعده ، وذلك قبل المسيح بما ينيف على تسعمائة سنة ، وقع من الاختلال في عهده ما أفضى إلى تقريره عبادة الأوثان . فعوجل ، بعد خمس سنين من ملكه بأخذ ملك مصر بيت المقدس وسلب كنوز هيكلها (المسجد الأقصى) ونهب ما فيها . ولما ساء تصرفه تمرد عليه شعبه وخلعوا طاعته . فانقسمت مملكته إلى قسمين : أحدهما دعى مملكة يهوذا وهى المؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين ، بقيا خاضعين لابن سليمان .

وثانيهما : دعى مملكة إسرائيل وهى المؤلفة من بقية الأسباط العشرة . وكان أول ملك على مملكة إسرائيل رجل يقال له يرعام . خاف من رجوع رعاياه إلى طاعة ابن سليمان إذا صعدوا إلى أورشليم في الأعياد الاحتفالية ليعبدوا الله في الهيكل ويقربوا ذبائحهم هناك . فأقام في مملكته عجابين من ذهب . وأمر رعيته بعبادتهما . ورتب لهم أعياداً احتفالية وكهنة . وقامت حروب هائلة بين ملوك هاتين الطائفتين . وكان يتخللها من الملوك من ينزع عبادة الأوثان . إلا أنه لا يلبث الحال حتى يأتى ملك آخر فيعيد الوثنية . واستمرت مملكة إسرائيل نحواً من مائتين وخمسين سنة . وفى نهاية أمرهم عظمت خطيئاتهم فسلط عليهم ملك أشور ، ففتح السامرة - بلدهم - وسباهم إلى أشور وانقرضت مملكة العشرة الأسباط ولم يسمع ذكرهم بعد . ثم أرسل ملك أشور قوماً من بلاده وأسكنهم مدن السامرة ليعمروها مع من بقى من أهلها . وأرسل معهم كهناً من اليهود ليقم لمن بقى طقوسهم . فعادوا إلى شركهم وعبادة الأوثان مع الله تعالى . وأما مملكة يهوذا فبقيت بعد انقراض مملكة إسرائيل ما ينيف على عشرين سنة . وفى أواخر أيامها قام فيها ملك شرير . فزحف إليه ملك بابل نبوخذناصر (بختنصر) فسبى قسماً من شعبه ، وكان السبى الأول .

ثم قام ، بعد ذلك الملك الشرير ، ابنه . فسار على طريقة أبيه . فعاد إليه ملك بابل المذكور

واستأسره هو وآله ورؤساءه وقسما من الشعب . وسلب الهيكل . وكان هذا السبي الثاني بعد ثمانى سنين من الأول .

ثم قام فيهم ملك أشرُّ ممن تقدم - وهو آخر ملوكهم - وفي أيامه حاصر ملك بابل المذكور أيضا بيت المقدس ، وأسره إلى بابل ، وأحرق المدينة والهيكل ، وسبي كل شعب يهوذا ، ماعدا مساكين الأرض ، إلى بابل . وهذا هو السبي الثالث والأخير .

وهكذا انقرضت هذه المملكة . وكانت إقامتهم في بابل سبعين سنة . ثم أطلقوا من الأسر فعادوا إلى بيت المقدس . وجددوا عمارتها وقيام الهيكل . وبقيت اليهود تحت تسلط ملوك فارس إلى أن ظهر الإسكندر الكبير . وغلبت اليونان الفرس وجاء الإسكندر إلى سورية فدخل بنو إسرائيل تحت حكم اليونان . وبعد وفاة الإسكندر انقسم ملكه إلى أربعة أقسام :

منها مملكة سورية ومصر . وكانت بينهما حروب متصلة . والإسرائيليون ، لما كانوا بينهما ، كانوا تارة تحت تملك مصر وأخرى تحت تسلط سورية . واتفق في خلال ذلك أن رفض كثير من اليهود الديانة اليهودية ، وتمسكوا بديانة اليونانيين .

ثم استولى الرومانيون على فلسطين . وجرت حروب هائلة بينهم وبين اليهود ، أفضى الأمر إلى تسلط الرومانيين عليهم . وتمسكوا بيت المقدس . وهدم تيطس ، أحد ملوكهم ، الهيكل إلى أساسه . وأحرق كتب اليهود وتشتت أمرهم ، ولم يبق لهم ملك ولا رئاسة بعده . وزعموا أن ذلك بعد رفع المسيح بنحو أربعين سنة . وزعموا أن الهيكل تراجع للعمارة ورمم ، إلى أن سارت هيلانة ، أم قسطنطين ، إلى القدس وبنت كنيسة على القبر ، الذي يزعم النصارى أنه قبر المسيح . وخربت الهيكل وأمرت أن تلقى فيه قامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة مزبلة . وبقي كذلك حتى قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفتح القدس . فأمر بتنظيفه وبني في قبائه مسجداً ، إلى أن ملك الوليد بن عبد الملك ، فجدد بناءه على أساسه القديم وبني قبة الصخرة .

وتفصيل هذه الماجريات معروفة في كتب التاريخ . ونحن لم نورد ما أوردناه على أنه تفسير للآية . لأنها بإيجازها غنية عنه ، وفي تفسيرنا لألفاظها كفاية في فهمها ، إلا أن أكثر المفسرين تطرفوا لبعض ماجريات اليهود هنا ، فنقحنا منها أحسن ما حرره المؤرخون المتأخرون ، إيضاحاً لأفعالهم التي أشارت إليها الآيات الكريمة .

وقد قدمنا في سورة يوسف ؛ أنه ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هي الآيات في العبر تجلت في سياق الوقائع . ولذلك لم تذكر قصة بتفاصيلها . وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما قال تعالى^(١) (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

ثم بين تعالى مزية التنزيل الكريم التي فاق بها سائر ما أنزل ، بقوله سبحانه :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » أي للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها . أو للملة ، أو للطريقة .

قال الزمخشري : وأما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف . لما في إبهام الموصوف بحذفه ، من نخامة تفقد مع إيضاحه .

« وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » أي يبشر المخلصين في إيمانهم ، وهم الذين يعملون الصالحات كلها ، ويجتنبون السيئات ؛ أن لهم في الدنيا والآخرة ثواباً وافراً .

(١) [١٢ / يوسف / ١١١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

[١١] (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)

« وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى بالبعث والجزاء على الأعمال « أَعتَدْنَا لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا » أى فى الآخرة ، وهو عذاب النار .

« وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ » أى مثل دعائه بالخير « وَكَانَ الْإِنْسَانُ

عَجُولًا » قال أبو السعود : الآية بيان لحال المهدي إثر بيان حال الهادي . وإظهار لما بينهما

من التباين . والمراد بالإنسان الجنس ، أسند إليه حال بمض أفراده . أو حكى عنه حاله فى بعض

أحيائه . فالمعنى ، على الأول : أن القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذى لاخيره فوفقه من الأجر

الكبير . ويحذره من الشر الذى لاشر وراءه من العذاب الأليم ، وهو - أى بمض منه وهو

الكافر - يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور ، إما بلسانه حقيقة كدأب من قال ^(١)

(اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ومن قال ^(٢) (فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) إلى غير ذلك مما حكى

عنهم - وإما بأعمالهم السيئة المفضية إليه ، الموجبة له مجازاً ، كما هو ديدن كلهم . وقوله

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) يعنى بالإنسان من أسند إليه الدعاء المذكور من أفراده . عجولاً

يسارع إلى طلب ما يخطر بباله ، متعامياً عن ضرره . أو مبالغاً فى العجلة يستعجل العذاب

وهو آتيه لا محالة . ففيه نوع تهكم به . وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم ، تحمل العجولية

على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الأعمال .

وعلى الثانى : أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير . وهو فى بعض أحيائه ، كما عند

الغضب ، يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر . وكان الإنسان بحسب جبلته

عجولاً ضجراً لايتأنى إلى أن يزول عنه مايعتره . أو يدعو بما هو شر وهو بحسبه خيراً . وكان

(١) [٨ / الأتقال / ٣٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ٧٠] .

الإنسان عجولاً غير متبصر لا يتدبر في أموره حق التدبر ليتحقق ماهو خير حقيق بالدعاء به ، وما هو شر جدير بالاستعاذة منه . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى بعض وجوه الهداية في القرآن ، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية ، التي كل منها برهان نيرٌ لا ريب فيه . ومنهاج بين لا يضل من ينتحيه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ » أى جعلناهما ، بهيئتهما وتعاقيهما واختلافهما في الطول والقصر ، علامتين تدلان على أن لهما خالفاً حكيمًا . « فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ » أى بجعلها مظلمة . « وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » أى مضيئة لتمييز الأشياء المحسوسة . والإضافة فيهما إما بيانية ، أى الآية التي هي الليل ، والآية التي هي النهار . وإما حقيقية . وآية الليل والنهار نيرٌ أهما . والمراد بحجوه القمر خلقه مطموس النور في نفسه ، أو نقص ما استفاده من الشمس شيئاً فشيئاً إلى المحاق . وجعل الشمس مبصرة إبداعها مضيئة بالذات . ذات أشعة تبصر بها الأشياء ؛ فالإسناد في (مبصرة) مجازى إلى السبب العادى ، أو تجوز بعلاقة السبب . وقوله تعالى « لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ » متعلق بـ (جعلنا) أى لتطلبوا في النهار رزقاً منه سبحانه ، بالانتشار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار . « وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » أى الحساب المتعلق بما في ضمن السنين من الأشهر والليالي والأيام ، أو الحساب الجارى في المعاملات ، كالبيع والإيجارات . وفي العبادات ، أى لتعرف مضي الآجال المضروبة لذلك . إذ لولاه لما علم أحد حسابان الأوقات ولتعطلت الأمور .

قال السيوطي في (الإكليل) : هذه الآية أصل في علم المواقيت والهيئة والتاريخ . وفي الآية لف ونشر غير مرتب . انتهى .

وقوله تعالى : «وَكُلَّ شَيْءٍ» أى مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم «فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً» أى بيناه في القرآن بيانا بليغاً لا التباس معه . كقوله تعالى ^(١) «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ» فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم ظهوراً بديناً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ وَفِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا)

[١٤] (أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

[١٥] (مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ،

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)

«وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ وَفِي عُنُقِهِ» أى ألزمناه عمله الصادر منه باختياره خيراً وشرّاً ، بحيث لا يفارقه أبداً . بل يلزمه لزوم الطوق في العنق ، لا ينفك عنه بحال .

قال الطبري ^(٢) : المعنى : وكل إنسان ألزمناه ما قضى أنه عامله ، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله ، ، في عنقه لا يفارقه . وإنا قوله (أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ وَفِي عُنُقِهِ) مثل لما كانت العرب تتعامل به أو تتشائم من سواخ الطير وبوارحها . اهـ .

(١) [١٦ / النحل / ٨٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال ؛ وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خيرٍ أو إلى شرٍّ ، اعتبروا أحوال الطير : وهو أنه يطير بنفسه أو يحتاج إلى إزعاجه . وإذا طار فهل يطير متيامناً أو متياسراً أو صاعداً إلى الجو ، إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ، ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة . فلما كثر ذلك منهم ، سُمي الخير والشر بالطائر ، تسمية للشئ باسم لازمه .

قال الطبري^(١) : فأعلمهم جل ثناؤه ، أن كل إنسان منهم قد أزمه ربه طائرُه في عنقه ، نحساً كان ذلك الذي أزمه من الطائر وشقاء يورده سعيراً ، أو كان سعداً يورده جنان عدن . وإنما أضيف إلى العنق ولم يضاف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد ، قيل لأن العنق هو موضع السمات وموضع القلائد والأطوق وغير ذلك مما يزين أو يشين . فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة ببني آدم وغيرهم من ذلك ، إلى أعناقهم . وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق . كما أضافوا جنائيات أعضاء الأبدان إلى اليد ، فقالوا : ذلك بما كسبت يداه . وإن كان الذي جرّ عليه لسانه أو فرجه . فكذلك . قوله (أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) وحاصله - كما قاله الرازي - أن قوله : (فِي عُنُقِهِ) كناية عن اللزوم . كما يقال (جعلت هذا في عنقك) أي قللتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به . ويقال (قللتك كذا وطوقتك كذا) أي صرفته إليك وألزمته إياك . ومنه (قلده السلطان كذا) أي صارت الولاية ، في لزومها له ، في موضع القلادة ومكان الطوق . ومنه يقال (فلان يقلد فلاناً) أي يجعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه . وقوله تعالى « وَنُخْرِجْ لَهُ وُ » أي نظهر له « يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أي البعث للجزاء على الأعمال « كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا » أي يحده مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته . ويقال له « أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » أي شهيداً بما عملت .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

قال القاشاني : (كِتَابًا) هيكلاً مصوراً يصور أعماله (يُلْقِمُهُ مَنْشُورًا) لظهور تلك الهيئات فيه بالفعل مفصلة ، لامطوياً كما كان عند كونها فيه بالقوة . يقال له (أَقْرَأْ كِتَابَكَ) أى اقرأه قراءة المأمور الممثل لأمرٍ مطاع يأمره بالقراءة . أو تأمره القوى المللكوتية . سواء كان قارئاً أو غير قارئٍ . لأن الأعمال هناك ممثلة بهيئاتها وصورها ، يعرفها كل أحد . لاعلى سبيل الكتابة بالحروف فلا يعرفها الأعمى (كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيًّا) لأن نفسه تشاهد ما فعلته لازماً بإياها ، نصب عينها ، مفصلاً لا يمكنها الإنكار .

وقوله تعالى «مَنْ أِهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۚ» قال أبو السعود : فذلك لما تقدم من بيان كون القرآن هادياً لأقوم الطرائق ، ولزوم الأعمال لأصحابها . أى من اهتدى بهدائيه ، وعمل بما فيه تضاعيفه من الأحكام ، وانتهى عما نهاه عنه ، فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه ، لا تمخطاه إلى غيره ممن لا يهتدى «وَمَنْ ضَلَّ» أى عن الطريقة التى يهده إليها «فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا» أى وبال ضلاله عليها ، لا على من عداه ممن لم يباشره . فقوله «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» مؤكد لما قبله للاهتمام به .

قال أبو السعود : أى لا تحمل نفس حاملة للوزر ، وزر نفس أخرى ، حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها . ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم . بل إنما تحمل كل منهما وزرها . وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ وَفِي عُنُقِهِ) وأما ما يدل عليه قوله تعالى ^(١) (مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ وَنَصِيبٌ مِّنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ وَكِفْلٌ مِّنْهَا) . وقوله تعالى ^(٢) (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) من حمل الغير وزر الغير ، وانتفاعه بحسنته ، وتضرره بسيئته ، فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه ، وتضرر بسيئته . فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له . وإنما الذى يصل إلى من يشفع ، جزاء شفاعته ، لاجزاء

(١) [٤ / النساء / ٨٥] . (٢) [١٦ / النحل / ٢٥] .

أصل الحسنة والسيئة . وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين . وما يحمله المضلون ، إنما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال .

وإنما خصّ التأكيّد بالجملة الثانية قطعاً للأطباع الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق ، فالتبعية على أسلافهم الذين قلدوهم . انتهى .

وقوله تعالى « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » بيان للعناية الربانية ، إثريان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدي من ثمرات هدايته ، وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها . أى : وما صح وما استقام منا ، بل استحال في سنتنا المبينة على الحكم البالغة ، أن نعذب قوماً حتى نبعث إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق ، ويردعهم عن الضلال ، لإقامة الحجة وقطعاً للعذر . والعذاب أعمّ من الدنيوى والأخروى ، لقوله تعالى (١) (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ) . وقال تعالى (٢) (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهُمَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) وكذا قوله (٣) (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقال تعالى (٤) (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى لا يعذب قوماً عذاب استئصال ، ولا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسل . قال قتادة :

(١) [٢٠ / طه / ١٣٤] . (٢) [٦٧ / الملك / ٩٠٨] .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٧١] . (٤) [٣٥ / فاطر / ٣٧] .

إن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يتقدم إليه بنجر أو بيّنة . ولا يعذب أحداً إلا بذنبه .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَإِذْ آأَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا)

« وَإِذْ آأَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا » بيان لوقوع التعذيب بعد الرسالة . وأنه إنما كان للتمرد على الرسل والتفكك عن منهمجهم . وقد تدل الآية على أن التعذيب المتقدم مراد به الهلاك الدنيوي لا تحصارها فيه . والمعنى : إذا أردنا أن نعذب قومًا عذاب استئصال (أمرنا مترفيها) يعنى متنعميها، بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم (ففسقوا فيها) بمخالفة أمره تعالى والخروج عن طاعته (فحق عليها القول) فوجب عليها ، بمعصيتهم وفسقهم وطغيانهم، وعيد الله الذى أوعد من كفر به وخالف رسله ، من الهلاك بعد الإعذار والإنذار بالرسول والحجج . (فدمرناها تدميرًا) أى تخربناها تخريباً لا يكتنه كنهه ولا يوصف . وأهلكنا من كان فيهما من أهلها إهلاكا هائلا . كما جرى لبيت المقدس، لما انحرف اليهود عن شرعتهم، على ما قدمنا بيانه . وإنما خص المترفين ، وهم الجبارون والملوك والرؤساء ، بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل ، لأنهم الأصل فى الخطاب والباقي تبع لهم . ولأن توجه الأمر إليهم أكد . وإنما حذف مفعول (أمرنا) لظهور أن المراد به الحق والخير . لاسيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدى إليه . وفى إثارة (القرية) على أهلها زيادة تهويل وتفظيع ، إشارة إلى التنكيل بهم بهدم صروحهم ودورهم ، وطمس أثرهم ، وهو أوجع للقلب وأنكى للعدو . ولذلك أتى إثره بالمصدر المؤكد فقال : (تدميراً) أى كلياً بحيث لم يبق لهم زرع أو زرع .

قال القاشاني : إن لكل شيء في الدنيا زوالاً . وزواله بحصول استعداد يقتضي ذلك . وكما أن زوال البدن بزوال الاعتدال ، وحصول انحراف يبعده عن بقاءه وثباته ، فكذلك هلاك المدينة وزوالها بحدوث انحراف فيها عن الجادة المستقيمة التي هي صراط الله وهي الشريعة الحافظة للنظام . فإذا جاء وقت إهلاك قرية ، فلا بد من استحقاقها للإهلاك . وذلك بالفسق والخروج عن طاعة الله . فلما تعلق إرادته بإهلاكها ، تقدمه أولاً بالضرورة فسق مترفيها من أصحاب الترف والتنعيم بطراً وأشرأ بنعمة الله ، واستعمالاً لها فيما لا ينبغي . وذلك بأمر من الله وقدر منه ، لشقاوة كانت تلزم استعداداتهم . وحينئذ وجب إهلاكهم .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ » أي وكثيراً ما أهلكنا من الأمم الكافرة من بعد زمن نوح ، كعاد وثمود وفرعون ، ممن قصت أنباؤهم في القرآن العظيم ومن لم تقص . و (القرون) جمع قرن يطلق على الزمن المعين وعلى أهله المقترنين فيه . وعلى كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد . وخص (نوح) ولم يقل (من بعد آدم) لأنه أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب . ففيه تهديد وإنذار للمشركين .

« وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » أي لا يخفى عليه شيء منها . فيدرك سرها وعلمها وسيجازي عليها .

والآية تدل - كما قال الزمخشري : - على أن الذنوب هي أسباب الهلكة ، وذلك لأنه لما عقب إهلاكهم بعلمه بالذنوب علماً أتم ، دل على أنه جازاهم بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)

[١٩] (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » .

أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل ويسعى ، وإياها يبتغى . لا يوقن بمآد ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله ، عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد . أى ما نشاءه من بسط الدنيا عليه أو تقتيرها لمن أراد الله أن يفعل به ذلك . أو من إهلاكه بما يشاء تعالى من عقوباته المعجلة . ثم يصلى جهنم فى الآخرة مذموماً على قلة شكره لمولاه ، وسوء صنيعه فيما سلف له . مدحوراً مطروداً من الرحمة ، مبعداً مقصياً فى النار . ومن أراد الآخرة وإياها طلب ، ولها عمل عملها الذى هو طاعة الله وما يرضيه عنه ، فأولئك كان عملهم مشكوراً بحسن الجزاء .

تنبيه :

قال القفال رحمه الله : هذه الآية داخلية فى معنى قوله (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ وَفِي عُنُقِهِ) فالآية الأولى تشير إلى من جعل طائر نفسه شؤماً . والثانية لمن جعله بمنأى وخيراً . وفى قوله تعالى : (وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا) أى ما يحق ويليق بها من الأعمال الصالحة ، تبين لقوله : (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ) بأن إرادتها هو بالسعى والنصب فى مغالبة الباطل وإعلاء شأن الحق مع التلبس بالإيمان الصحيح ، بفعل المأمور واجتناب المنهى عنه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (كَلَّا نُمَدِّ هَآؤُلَآءِ وَهَآؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

[٢١] (أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

[٢٢] (لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا)

« كَلَّا نُمَدِّ » أى كل واحد من الفريقين . وقوله : « هَآؤُلَآءِ وَهَآؤُلَآءِ » بدل من (كلا) « مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ » أى فضله . فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمد واستيفائهما الأجل ، ما كتب لهما . ثم تختلف بهما الأحوال بعد المات ، وتفرق بهما بعد الورود المصادر . ففريقٌ مريدى العاجلة ، إلى جهنم مصدرهم . وفريقٌ مريدى الآخرة ، إلى الجنة مأبهم « وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » أى ممنوعاً لا يمنع من عاصٍ لعصيانه . والجملة كالتعليل لشمول الإمداد للفريقين « أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » أى فى الرزق فى الدنيا « وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » لأن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ثم أشار تعالى إلى ما به تنال درجات الآخرة من البراءة من الشرك ، ومن الاعتصام بالإيمان وشعبه ، بقوله « لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا » أى لا تجعل معه شريكاً فى عبادته فتصير مذموماً ملوماً على الشرك ، مخذولاً من الله ، يكلك إلى ذاك الشريك ولا ينصرك (وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ) (١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

[٢٤] (وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

«وَقَضَىٰ رَبُّكَ» أى أمر امرأه مقطوعاً به «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»
أى : وبأن تحسنوا بالوالدين إحساناً . قال القاشانى : قرن سبحانه وتعالى إحسان الوالدين بالتوحيد وتخصيصه بالعبادة ، لكونهما مناسبين للحضرة الربوبية ، لتربيتهما إياك عاجزا صغيراً ضعيفاً لا قدرة لك ولا حراك بك . وهما أول مظهر ظهر فيه آثار صفات الله تعالى من الإيجاد والربوبية . والرحمة والرأفة بالنسبة إليك ، ومع ذلك فإنهما محتاجان إلى قضاء حقوقهما ، والله غنى عن ذلك . فأهم الواجبات بعد التوحيد ، إذاً ، إكرامهما والقيام بحقوقهما ما أمكن «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا» وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» فى هذا من المبالغة فى إكرام الوالدين وبرها ما لا يحفى . و(إِمَّا) هى (إن) الشرطية زيدت عليها (ما) تأكيداً لها . و(أَحَدُهُمَا) فاعل (يبلغن) و(كِلاهُمَا) عطف عليه . ومعنى (عِنْدَكَ) هو أن يكبرا ويمعجزا ، وكانا كلاً على ولدهما ، لا كافل لهما غيره ، فهما عنده فى بيته وكنفه . وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وصبراً . وربما تولى منهما ما كانا يقولان منه ، فى حال الطفولة . فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال . حتى لا يقول لهما ، إذا أضجره ما يستقذر منهما ، أو يستثقل من مؤنهما : (أف) فضلاً عما يزيد عليه . أفاده الزخشرى .

وقوله (وَلَا تَهْرُؤْهُمَا) أى تزجرهما عما لا يعجبك ، بغلظة (وَقُلْ لَهُمَا) بدل التأنيف والنهر (قَوْلًا كَرِيمًا) أى حسناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما . ومعنى قوله (وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ) تَذَلَّلْ لهما وتواضع . وفيه استعارة مكنية وتخييلية . فشبّه الذل بطائر تشبها مضمرا ، وأثبت له الجناح تخميلا ، والخفض ترشيحاً . و (خفضه) ما يفعله إذا ضم أفرأخه للتربية . أو استعارة تصريحية في المفرد وهو الجناح ، والخفض ترشيح . و (الجناح) الجانب كما يقال (جناحا العسكر) وخفضه مجاز . كما يقال (لئن الجانب) و (منخفض الجانب) وإضافة الجناح إلى الذل للبيان . لأنه صفة مبيّنة . أى جناحك الدليل . وفيه مبالغة لأنه وصف بالمصدر . فكانه جعل الجناح عين الذل . أو التركيب استعارة تمثيلية . فيكون مثلاً لغاية التواضع . وسر ذكر الجناح وخفضه ، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس . و (مِنْ) من قوله تعالى (مِنْ الرَّحْمَةِ) ابتدائية على سبيل التعليل . أى من فرط رحمتك لهما ، وعطفك عليهما ، لسكبرها وافتقارها اليوم ، إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس . وافتقار المرء إلى من كان مفقرأ له ، غاية في الضراعة والمسكنة . فيرحمه أشد رحمة . كما قال الخفاجي :

يا من أتى يسأل عن فاقتي ، ما حال من يسأل من سائله ؟

ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجاً إلى عامله .

وقوله تعالى (وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) أى رب ! تعطف عليهما برحمتك ومغفرتك ، كما تعطفنا على صغري ، فرحمانى وربيانى صغيراً حتى استقلت بنفسى ، واستغنيت عنهما . قال الزمخشري : أى لا تسكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لهما ، وادعُ الله بأن يرحمهما رحمة الباقية . واجعل ذلك جزاء لرحمتكما عليك فى صغرك وتربيتكما لك . والكاف للتعليل . أى لأجل تربيتكما لى .

قال الطيبي : الكاف لتأكيد الوجود . كأنه قيل : رب ارحمهما رحمة محققة مكشوفة لا ريب فيها كقوله ^(١) (مِثْلَ مَا أَنَا أَنْكُمُ نَنطِقُونَ) . وهو وجه حسن .

(١) [٥١ / الذاريات / ٢٣] .

تنبيه :

استحب بعض السلف أن يدعو المرء لوالديه في أواخر التشهد قبيل السلام ، لأنه وقت فاضل . وقد جمعتُ من الأدعية الماثورة للوالدين المتوفيين أو أحدهما ، جملة ضممتها لكتابي (الأوراد الماثورة) . لا أزال أدعو لهما بها في السحر أو بين أذان الفجر وإقامة صلاته ، لما أرى من مزية هذا الوقت على غيره . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ، إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا)

[٢٦] (وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا)

[٢٧] (إِنْ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا)

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ » أى ضمائرکم من قصد البر إلى الوالدين والعقوق « إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ » أى قاصدين للصلاح والبر دون العقوق « فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ » أى التوابين الرجاعين إليه تعالى بالندم عما فرط منهم ، والاستقامة على المأمور « غَفُورًا » أى لهم ما اكتسبوا . ولا يخفى ما فى صدر الآية من الوعد لمن أضمر البر . والوعيد لمن أضمر الكراهة والاستئثار والعقوق .

قيل : الآية استئناف يقتضيه مقام التأكيد والتشديد . كأنه قيل : كيف يقوم بحقوقهم وقد تبدر بوادر ؟ فقيل : إذا بنيتم الأمر على الأساس ، وكان المستمر ذلك ، ثم اتفقت بادرة من غير قصد إلى المساءة ، فلطف الله يحجز دون عذابه . ويجوز - كما قال الزخشرى - أن يكون هذا عامًا لكل من فرط منه جناية ثم تاب منها . ويندرج تحته الجانى على أبويه ، التائب من جنايته ، لوروده على أثره . ثم وصّى تعالى بغير الوالدين من الأقارب ، بعد الوصية

بهما ، بقوله سبحانه : « وَءَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ » أى من صلته وحسن المعاشرة ، والبرّ له بالإتفاق عليه .

قال المهاجى : لم يقل (القريب) لأن المطلق ينصرف إلى الكامل . والإضافة ، لما كانت لأدنى الملابس ، صدق (ذو القربى) على كل من له قرابة ما . « وَالْمَسْكِينِ » أى الفقير من الأبعد . وفى الأقارب مع الصدقة صلة الرحم . « وَأَبْنَى السَّبِيلِ » أى المسافر المنقطع به . أى أعنه وقوّه على قطع سفره . ويدخل فيه ما يعطاه من حمولة أو معونة أو ضيافة . فإن ذلك كله من حقه « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا » أى بوجه من الوجوه ، بالإتفاق فى محرم أو مكروه ، أو على من لا يستحق ، فتحسبه إحساناً إلى نفسك أو غيرك . أفاده المهاجى . وفى (الكشاف) : كانت الجاهلية تنحر إبلها وتتيأسر عليها ، وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها . فأمر الله بالنفقة فى وجوهها ، مما يقرب منه ويؤلف .

« إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » أى أمثالهم فى كفران نعمة المال بصرفه فيما لا ينبغى . وهذا غاية المذمة لأنه لاشتر من الشيطان . أو هم إخوانهم أتباعهم فى المصادقة والإطاعة . كما يطيع الصديق صديقه والتابع متبوعه ، أو هم قرناؤهم فى النار على سبيل الوعيد . والجملة تعليل المنهى عنه عن التبذير ، ببيان أنه يجعل صاحبه مقروناً معهم . وقوله « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا » من تنمة التعليل . قال أبو السعود : أى مبالغاً فى كفران نعمته تعالى . لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوَى ، إلى غير ما خلقت له من أنواع المعاصى ، والإفساد فى الأرض ، وإضلال الناس ، وحلهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم ، وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به . وتخصيص هذا الوصف بالذكر ، من بين سائر أوصافه القبيحة ، للإيذان بأن التبذير ، الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غير مصرفها ، من باب الكفران ، المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هى له . والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكمال عتوه . فإن

كفران نعمة الرب ، مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها ، غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان . انتهى .

وقد استدل بالآية من منع إعطاء المال كله في سبيل الخير ، ومن منع الصدقة بكل ماله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا)

« وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا »

أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمساكين وابن السبيل ، حياء من الرد ، لا تنتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه ، فلا تؤيسهم وقل لهم قولا ليئلا سهلا ، وعدم وعدا جميلا . قال فى (الكشف) : (ابتغاء) أقيم مقام فقدانه . وفيه لطف . فكأن ذلك الإعراض لأجل السعى لهم . وهو من وضع السبب موضع السبب . فإن فقد سبب الابتغاء .

قال السيوطى فى (الإكمال) : فى هذه الآية الأمر بالقول اللين عند عدم وجود ما يعطى

منه . وفسره ابن زيد بالدعاء . والحسن وابن عباس بالعدة . انتهى .

وظاهر ، أن القول الميسور يشمل الكل . وذهب المهايى إلى أن الآية فى منفعهم خوفا

من أن يصرفوه فيما لا ينبغي . قال : أى وإن تحقق إعراضك عن تريد الإحسان إليهم ، طلب رحمة من ربك فى المنع عنهم لئلا يقموا فى التبذير ، بصرف المعطى إلى شرب الخمر أو الزنى ، لما عرفت من عاداتهم ، فقل لهم فى الدفع قولا سهلا عليهم ، إحسانا إليهم بدل العطاء . انتهى .

ولم أره لغيره . والفظم الكريم يحتمله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ » أى لا تمسك يدك عن النفقة والعطية لمن له حق ممن تقدم ، بمنزلة المشدودة يده إلى عنقه ، الذى لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء « وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ » أى بالتبذير والسرف . قال ابن كثير : أى لا تسرف فى الإنفاق فتعطى غير طاقتك وتخرج أكثر من دخلك « فَتَقْعُدَ » أى فتبقى « مَلُومًا » يلومك الفقراء والقراة « مَحْسُورًا » أى نادماً ، من (الحسرة) . أو منقطعاً بك لاشئ عندك من (حسره السفر) إذا بلغ منه الجهد وأثر فيه .

وفى النهيين استعارتان تمثيليتان . شبه فى الأولى فعل الشحيح فى منعه ، بمن يده مغلوله لعنقه ، بحيث لا يقدر على مدّها .

وفى الثانية ، شبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً . وهو ظاهر . وجعل ابن كثير قوله تعالى (فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) من باب اللف والشر المرتب . قال : أى فتقعّد ، إن بخلت ، ملوماً يلومك الناس ويذمونك . ويستغنون عنك كما قال زهير^(١) فى المعلقة .
وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ فَيُبْخَلْ بِمَالِهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ يُسْتَغْنَىٰ عَنْهُ وَيُدْخَمَ

(١) الرواية فى (المعلقات) و (شرح ديوان زهير) هكذا :

* وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ *

وقال فى الحاشية (من شرح الديوان) : وفى شرح الأعمى :

* وَمَنْ يَكُ ذَا مَالٍ فَيَبْخَلْ بِمَالِهِ *

وهو البيت الخسوس من معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَىٰ دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةٍ الدَّرَاجِ فَلْتُنْتَأَمِ

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلائىء تنفقه ، فتكون كالحسير . وهى الدابة التى عجزت عن السير ، فوقفت ضعفاً وعجزاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

« إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسعه ويضيِّقه ، حسب مشيئته وحكمته « إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » أى خبيراً بيوطنهم ، بصيراً بظواهرهم . قال المہامی : ولما وجب إيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، لحفظ أرواحهم ، فالأولاد بحفظ الأرواح أولى ، لذلك قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » نهى لهم عما كانوا يفعلونه فى الجاهلية من قتلهم أولادهم . وهو وأدهم بناتهم . أى دفنهم فى الحياة . كانوا يثدونهن خشية الفاقة وهى الإملاق والفقير ، بالإتفاق عليهم إذا كبروا . فهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم بقوله (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ) أى نحن المختصون بإعطاء رزقهم فى الصغر والكبر ، وقوله تعالى (وَإِيَّاكُمْ) أى الآن بإغنائكم . وقوله تعالى « إِنَّ قَتْلَهُمْ » أى للإملاق الحاضر والخشية فى المستقبل « كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا » أى لإفضائه إلى تخريب العالم . وأى خطأ أكبر من ذلك .

تنبيه :

دل قوله تعالى (خَشِيعَةً إِمْلَاقٍ) على أن ذلك هو الحامل لهم على الواد ، لا خوف العار كما زعموا . قال المبرد في (الكامل) : كانت العرب في الجاهلية تشد البنات . ولم يكن هذا في جميعها . إنما كان في تميم بن مر ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وبكر بن وائل .

ثم قال : ودل على مامن أجله قتلوا البنات ، فقال (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيعَةً إِمْلَاقٍ) وقال (٢) (وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ) فهذا خبر بين أن ذلك للحاجة . وقد روى بعضهم أنهم إنما فعلوا ذلك أنفة . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى : أن تيمماً منعت النعمان الإتاوة . فوجه إليهم أخاه الريان بن المنذر ، فاستاق النعم وسبي الذراري . فوفدت إليه بنو تميم . فلما رآها أحب البقية . فأتاب القوم وسألوه النساء . فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباه ردت إليه ، وإن اختارت صاحبها تركت عليه . فكلهن اختار أباهن إلا ابنة القيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو بن الشمرج . فنذر قيس ألا تولد له ابنة إلا قتلها . فهذا شيء يعتل به من وأد ، ويقول : فعلناه أنفة ، وقد أ كذب ذلك بما أنزل الله تعالى في القرآن .

وقال ابن عباس رحمه الله (في تأويل هذه الآية) : وكانوا لا يورثون ولا يتخذون إلا من طاعن بالرمح ومنع الحريم ، يريد الذكران . والخطأ كالإثم ، لفظاً ومعنى . ولا نهى عن قتل الأولاد ، نهى عن قطع النسل بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَى ، إِنَّهُوَ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)

« وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُوَ كَانَ فَحِشَةً » أى فعلة فبيحة متفاهية في القبح . توجب

(١) [٦٠ / المتحنة / ١٢] .

النفرة عن صاحبه ، والفرقة بين الناس «وَسَاءَ سَبِيلًا» أى بئس طريقا طريقه. فإنه غصب الألبضاع المؤدى إلى اختلاف أمر الأنساب ، وهيجان الفتن غصباً من غير سبب . والسبب ممكن . وهو الصهر الذى شرعه الله ، وقال المهايى : (سَاءَ سَبِيلًا) لقضاء الشهوة التى خلقت لطلب النسل ، بتضييعه . ثم ذكر ما هو أعظم فى التنفير والفرقة ، فقال تعالى مجده :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ

جَعَلْنَا لَوْلِيٍّهُ سُلْطٰنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ، إِنَّهُوَ كَانَ مَنصُورًا)

«وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ» أى قتلها وهى نفس الإنسان «إِلَّا بِالْحَقِّ»

أى إلا بسبب الحق ، فيتملق بـ (لا تقتلوا) أو حال من فاعل (لا تقتلوا) أو من مفعوله .

وجوز تعلقه بـ (حرّم) . أى حرّم قتلها إلا بالحق . وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام ، أو زنى

بعد إحصان ، أو قوداً بنفس «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّهُ سُلْطٰنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي

الْقَتْلِ إِنَّهُوَ كَانَ مَنصُورًا» أى ومن قتل بغير حق ، مما تقدم ، فقد جعلنا لولايه ، الذى

بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه . (سُلْطٰنًا) أى تسلطاً على القاتل فى الاقتصاص منه .

أو حجة يثب بها عليه ، وحينئذ فلا يسرف فى القتل . أى فلا يقتل غير القاتل ، ولا اثنين

والقاتل واحد ، كمادة الجاهلية . كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة . وقوله : (إِنَّهُوَ

كَانَ مَنصُورًا) تعليل للنهى . والضمير للولى . يعنى : حسبته أن الله قد نصره بأن أوجب له

القصاص ، فلا يسترد على ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ،
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)

« وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى لاتتصرفوا فى ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن ، وهى حفظه عليه وتنميته وإصلاحه . وقوله تعالى : « حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » غاية لجواز التصرف على الوجه الحسن . أى حتى يبلغ وقت اشتداده فى العقل وتدبير ماله وصلاح حاله فى دينه « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ » أى العقد الذى تعاقدون به الناس فى الصلح بين أهل الحرب والإسلام ، وفيما بينكم أيضا . والبیوع والأشربة والإجازات ونحوها « إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » أى مطلوبًا . يطلب من المعاهد الثبات عليه ، وعدم إضاعته . أو : صاحبه مسئول عن نقضه إياه . والمعنى : لا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموه ، فتخفروها وتعدروا بمن أعطيتموه إياها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

« وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ » أى أتموه إذا كلتهم ولا تبخسوه « وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ » أى بالميزان السوى ؛ بلا اعوجاج ولا خديعة « ذَلِكَ خَيْرٌ » أى لكم فى معاشكم لانتظام أموركم بالعدل ، وإيفاء الحقوق أربابها « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة ومآلاً ؛ إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة . ثم أمر تعالى برعاية القسطاس المعنوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)

[٣٧] (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أى لاتتبعه فى قول أو فعل ، تسنده إلى سمع أو بصر أو عقل . من (قفا أثره) إذا تبعه .

قال الزمخشريّ : والمراد النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وإن يعمل بما لا يعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولاً ظاهراً ، لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساد . انتهى . ولا يخفى ما يندرج تحت هذه الآية من أنواع كثيرة . كمذاهب الجاهلية فى الإلهيات والتحرّيم والتحليل . وكشهادة الزور والقذف ورمى المحصنات الغافلات والكذب وما شا كها « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » أى كان صاحبها مَسْئُولًا عما نسب إليها يوم القيامة . أو تُسأل نفس الأعضاء لتشهد على صاحبها .

قال المهايى : قدم السمع ، لأن أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إليه . وآخر الفؤاد ، لأنه منتهى الحواس . ولم يذكر بقيتها لأنه لا يخالفها قول أو فعل .

« وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا » أى مختالاً . أى مشية المعجب التكبر . إذ لا يفيدك قوة ولا علواً ، كما قال سبحانه « إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ » أى لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها ، وشدة وطأتك « وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » أى لن تحاذيها بتطاولك ومدّ قامتك ، كما يفعله المختال تكلفاً . وفى هذا تهكم بالمختال ، وإيدان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وبعض أجزائها .

قال الناصر : وفي هذا التهكم والتفريع لمن يعتاد هذه المشية ، كفاية في الانزجار عنها . ولقد حفظ الله عوامَّ زماننا عن هذه المشية . وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا . بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين ، أو شدَّ طرفاً من رياسة الدنيا ، إذا هو يتبخر في مشيه ، ويترجع ولا يرى أنه يطاول الجبال ، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء ، كأنهم يعمرون عليها وهم عنهم معرضون . وماذا يفيد أن يقرأ القرآن أو يُقرأ عليه ، وقلبه عن تدبره على مراحل ، والله ولي التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)

[٣٩] (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ آخَرَ فَتُسَلَّىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا)

« كُلُّ ذَلِكَ » أى المنهى عنه من قوله (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ آخَرَ) إلى هذه الغاية « كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا » قال المهايى : أما الشرك فلاخلاله بالكمال المطلق الذى لا يتصور مع الشرك . وأما عبادة الغير فلما فيها من تعظيمه المخصوص بذى الكمال المطلق فهو فى معنى الشرك . وأما العقوق فلاأنه كفران نعمة الأبوين فى التربية ، أحوج ما يكون المرء إليها . ومنع الحقوق بالبخل تفريط . والتبذير والبسط إفراط . وهما مذمومان ، والذم مكره . والقتل يمنع الحكمة من بلوغها إلى كمالها . والزنى وإنلاف مال اليتيم فى معناه . ونقض العهد مخلّ بنظام العالم . وكذا اقتفاء ما لايعلم . والتكبر من خواص الحق . وعادة الملوك كراهة أن يأخذ أحدهم خواصه شيئاً . « ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » أى مما يحكم العقل بصحته ، وتصلح النفس بأسوته .

قال المهايى : أى من العلم المحكم الذى لا يتغير بشبهة « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۚ

ءَاخِرَ « كرهه للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه . وأنه رأس كل حكمة وملاكها .
وَمَنْ عَدِمَهُ لَمْ يَنْفَعَهُ عِلْمُهُ وَحِكْمُهُ .

قال أبو السعود : وقد رتب عليه ما هو عائدة الإشراف أولاً حيث قيل (فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا
مَخْذُولًا) ورتب عليه ههنا نتيجة في العقبي فقيل « فَتَلَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا » أى بالجهل
العظيم « مَذْخُورًا » أى مبعدا مطروداً من الرحمة . وفي إيراد الإلقاء ، مبنياً للفعل ، جرى
على سنن الكبرياء ، وازدراء بالمشرك وجعل له ، من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه ،
فيطرحها في التنور . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا)

« أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ
قَوْلًا عَظِيمًا » .

خطاب للذين قالوا من مشركي العرب (الملائكة بنات الله) . والهمزة للإنكار . قال
الزحشرى : والمعنى : أنخصكم ربكم ، على وجه الخلوص والصفاء ، بأفضل الأولاد وهم الذكور ،
ولم يجعل فيهم نصيباً لنفسه ، واتخذ أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم ،
بل تشدنهن وتقتلنهن . فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعاداتكم . فإن العبيد
لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أدونها وأدونها للسادات . وقوله
تعالى : (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) أى بإضافة الأولاد إليه ، وهى خاصة المحدثات . ثم
بإيثاركم أنفسكم عليه ، حيث تجعلون له ما تكرهون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا)

[٤٢] (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُوَّ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ » أى كررنا للناس البيان بوجوه كثيرة ، وبيننا فيه من كل مثل « لِيَذَّكَّرُوا » أى ليتعظوا ويعتبروا ويطمثوا إلى ما يحتاج به عليهم « وَمَا يَزِيدُهُمْ » أى التصريف المذكور « إِلَّا نُفُورًا » أى عن الحق وبعدا عنه ، الذى يقربه وجوه البيان . وقوله تعالى « قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُوَّ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا » أى قل لهؤلاء المشركين (الزاعمين أن لله شركاء من خلقه ، العابدين معه غيره ، ليقربهم إليه زان) : لو كان الأمر كما تقولون ، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليهم وتشفع لديه ، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويتغنون الزانى والطاعة لديه ، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبدونه من تدعونه من دونه . ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه . فإنه لا يجب ذلك ولا يرضاه . بل يكرهه ويأباه . وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه . هذا ما اختاره ابن كثير ، وسبقه إليه ابن جرير .

وحاصله : أن السبيل بمعنى الوسيلة الموصلة إليه . وفيه إشارة إلى قياس اقترانى تقريره هكذا : لو كان كما زعمتم معه آلهة اتقربوا إليه . وكل من كان كذلك ليس إلهاً ، فهم ليسوا بآلهة . وقيل : معنى (لَا بُتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) أى طلبوا إليه سبيلا بالمغالبة والممانعة ، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض ، على طريقة قوله تعالى ^(١) : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) وهذا الوجه قدمه الزخشرى على الأول . وقال أبو السعود : إنه الأظهر الأنسب لقوله :

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

[٤٤] (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

« سُبْحَنَهُ وَ » فإنه صريح في أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم ، من حيث لا يحسبون . وأما ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرب ، فليس مما يختص بهذا التقرير ، ولا هو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون . بل هو أمر يمتدونه رأساً . انتهى . ومعنى (سُبْحَنَهُ وَ) أى تنزه عن الولد والشريك تنزهاً حقيقياً به « وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » أى تعظم عن ذلك تعظماً كبيراً . فإن مثل هذه الفرية والبهتان ، مما يتنزه عنه مقامه الأسمى .

قال الشهاب : وذكر العلو ، بعد عنوانه بـ (ذى العرش) ، في أعلى مراتب البلاغة . وقوله تعالى : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » أى تنزه الله ، وتقديسه وتجله السموات والأرض ومن فيهن من المخلوقات عما يصفه به المشركون . وتشهد جميعها بالوحدانية في إلهيته وربوبيته ، كما قال ^(١) (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) وقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) أى لأنها بخلاف لغاتكم .

قال ابن كثير : وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات ، على أشهر القولين . ثم استدلل بما صح من تسبيح الطعام والحصى ، مما خرج في الصحيحين والمسانيد ، مما هو مشهور .

واختاره الراغب في (مفرداته) وقال : إنه تسبيح على الحقيقة بدلالة قوله : (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) ودلالة قوله : (وَمَنْ فِيهِنَّ) بعد ذكر السموات والأرض ، لا يصح أن يكون تقديره (يسبح له من في السموات ويسجد له من في الأرض) لأن هذا من تفقهه ، ولأنه محال أن يكون ذلك تقديره ، ثم يعطف عليه بقوله : (وَمَنْ فِيهِنَّ) والأشياء كلها تسبح له وتسجد بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار . والآية تدل على أن المذكورات تسبح باختيار ، لما ذكر من الدلالة . انتهى .

وذهب كثيرون إلى أن التسييح المذكور مجازي ، على طريقة الاستعارة التمثيلية أو التبعية . كـ (نطق الحال) . فإنه استعير فيه للتسييح للدلالة على وجود فاعل قادر حكيم واجب الوجود منزّه عن الولد والشريك ، كما يدل الأثر على مؤثره . فجمعت تلك الدلالة الحالية كأنها تنزيه له عما يخالفه .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

قالوا : والخطاب في قوله تعالى (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) للمشركين . أى لإخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم تسبيحهم . وقد بالغ في رد القول الأول واختيار الثانى ، الإمام ابن حزم في كتابه (الملل والنحل) ولا بأس بإيراده ، لما فيه من الغرائب . قال رحمه الله في الرد على من قال : (إن في البهائم رسلاً) : إنما يخاطب الله تعالى بالحجة من يعقلها . قال الله تعالى ^(١) (يَأْتُواكَ الْأَلْبَابِ) وقد علمنا بضرورة الحس ؛ أن الله تعالى إنما خص بالنطق - الذى هو التصرف فى العلوم ومعرفة الأشياء على ما هي عليه ، والتصرف فى الصناعات على اختلافها - الإنسان خاصة . وأضفنا إليهم ، بالخبر الصادق ، الجن والملائكة . ثم قال رحمه الله وقد قاد السخف بعضهم إلى أن جعل للجملات تمييزاً لمثل قوله تعالى (وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) ونحوه من الآيات . ولا حجة لهم فيه .

(١) [٢ / البقرة / ١٧٩] .

لأن القرآن واجب أن يحمل على ظاهره ، كذلك كلام رسول الله ﷺ . ومن خالف ذلك كان عاصياً لله عز وجل ، مبدلاً لكلماته ، ما لم يأت نص في أحدهما ، أو إجماع متيقن ، أو ضرورة حسن على خلاف ظاهره ، فيوقف عند ذلك . ويكون من حمله على ظاهره حينئذ ناسباً للكذب إلى الله عز وجل ، أو كاذباً عليه وعلى نبيه عليه السلام ، نعوذ بالله من كلا الوجهين .

وإذ قد بينا قبلُ بالبراهين الضرورية ؛ أن الحيوان (غير الإنس والجن والملائكة) . لا نطق له . نعى أنه لا تصرف له في العلوم والصناعات . وكان هذا القول مشاهدًا بالحس معلوماً بالضرورة ، لا يفكره إلا وقع مكابرة لحسه ، وبيّننا أن كل ما كان بخلاف التمييز المعلوم عندنا ، فإنه ليس تمييزاً . وكان هذا أيضاً يعلم بالضرورة والعيان والملاحظة - فوجب أنه بخلاف ما يسمى في الشريعة واللغة نطقاً وقولاً وتسبيحاً وسجوداً . فقد وجب أنها أسماء مشتركة اتفقت ألفاظها . وأما معانيها فمختلفة ، لا يحل لأحد أن يجعلها على غير هذا . لأنه إن فعل كان مخبراً أن الله تعالى قال ما يبطله العيان والعقل الذي به عرفنا الله تعالى ، ولولاه ما عرفناه .

فاللفظ مشترك والمعنى هو ما قام الدليل عليه . بيان ذلك : أن التسبيح عندنا إنما هو قول (سبحان الله وبحمده) وبالضرورة نعلم أن الحجارة والخشب والهوام والخشرات والألوان لا نقول (سبحان الله بالسين والباء والحاء والألف والفون واللام والهاء) هذا ما لا يشك فيه من له مسكة عقل . فإذا لا شك في هذا ، فباليقين علمنا أن التسبيح الذي ذكره الله تعالى هو حق وهو معنى غير تسبيحنا نحن بلا شك . فإذا لا شك في هذا فإن التسبيح في أصل اللغة هو تنزيه الله تعالى عن السوء . فإذا قد صح هذا ، فإن كل شيء في العالم بلا شك منزّه لله تعالى عن السوء الذي هو صفة الحدوث . وليس في العالم شيء إلا وهو دالّ (بما فيه من دلائل الصنعة واقتضائه صانعاً لا يشبهه) على أن الله تعالى منزّه عن كل

سوء ونقص . وهذا هو الذى لا يفهمه ولا يفقهه كثير من الناس كما قال تعالى (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فهذا هو تسبيح كل شيء بحمد الله تعالى بلا شك . وهذا المعنى حق لا ينكره موحد . فإن كان قولنا هذا متفقاً على صحته . وكانت الضرورة توجب أنه ليس هو التسبيح المعبود عندنا ، فقد ثبت قولنا وانتفى قول من خالفنا بظنه .

وأيضاً فإن الله تعالى يقول « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ بِهِ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » والكافر الدهري شيء لا يشك في أنه شيء وهو لا يسبح بحمد الله تعالى البتة فصح ضرورة أن الكافر يسبح؛ إذ هو من جملة الأشياء التي تسبح بحمد الله تعالى . وإن تسبيحه ليس هو قوله (سبحان الله وبحمده) بلا شك . ولكن تنزيه الله تعالى بدلائل خلقه وتركيبه عن أن يكون الخالق مشبهاً لشيء مما خلق . وهذا يقين لا شك فيه . فصح بما ذكرنا أن لفظة (التسبيح) هي من الأسماء المشتركة ، وهي التي تقع على نوعين فصاعداً . انتهى كلامه .

ومحصله نفي أن يكون للجoadات تسبيح وتميز بالمعنى الموجود في الإنسان . وهو حق لا شبهة فيه ولا يسوغ لأحد إنكاره . إلا أنه لا ينفي أن يكون له تسبيح وفيه تميز يناسبه . فيرجع الخلاف لفظياً . وقد وافق العلم الحديث الآن - كما قاله بعض الفضلاء - على أن في الجماد أثراً من الحياة . وأن فيه جميع الصفات الجوهرية التي تميز الأحياء . وأن ما فيه في الجواهر الفردة ودقائق المادة ليست ميتة ، بل هي عناصر حية متحركة لها صورة من صور الحياة الدنيا المشاهدة في جميع أنواع المادة مثل الجذب والدفع ، والتأثر بالمؤثرات الخارجية ، وتغير قوة التوازن ، وتجمع الدقائق على أشكال منتظمة ، طبقاً لتراكيب محدودة . وإفراز مركبات كيميائية مختلفة . وبالمجمل ؛ فما يقوله العلم الجديد عن مشابهة الأجسام غير الحية للأجسام الحية يطابق تصورات الأقدمين والشعراء في ذلك . انتهى .

وقوله تعالى « إِنَّهُوَ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » أى حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، مع كفرهم وقصورهم في النظر . ولو تابوا لغفر لهم ما كان منهم .

ثم مثل تعالى حالة المشركين مع التنزيل الكريم ، حينما يقرؤه عليهم الرسول، صلوات الله عليه ، يدعوهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ، ورفض الشرك وغير ذلك من ضلالهم ، بمن طمس على بصيرته وبصره وسمعه ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا)

« وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ » أى على هؤلاء المشركين « جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى لا يصدقون بالبعث ولا يقرّون بالشواب والعقاب ، جزاء على الأعمال « حِجَابًا مَسْتُورًا » أى من الجهل وعمى القلب . فيحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرأه عليهم فينتفعوا به ، عقوبة منّا لهم على كفرهم .

ومعنى كون الحجاب مستوراً ، أى عن العيون ، فلا تدركه أبصارهم . وعن الأخفش : إن (مفعولاً) يرد بمعنى (فاعل) كميمون ومشثوم بمعنى يامن وشائم . كما أن (فاعلاً) يرد بمعنى (مفعول) كما دافق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَى آذَانِهِمْ نُفُورًا)

« وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أى أغطية كثيرة ، جمع (كنان) « أَنْ يَفْقَهُوهُ » أى كراهة أن يفقهوه « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » أى صمماً يمنعهم من استماعه . وذلك ما يتنشاها من خذلان الله تعالى إياها ، عن فهم ما يتلى عليهم والإنصات له .

قال أبو السعود : هذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبي صلى الله عليه وسلم . وفردت نبوءة قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ، ومجّ أسماعهم له ، جىء بها بياناً لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال ، إثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال . وإيداناً بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه ، إلا لما نفع قوى يعترى الشاعر فيبطلها . تنبيهها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق .

« وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ » أى غير مشفوع بذكره ذكراً شياً من آلهتهم « وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » أى هرباً من استماع التوحيد . قال القاشانى : لَتَشَتَّتْ أهوائهم ، وتفرقت همهم في عبادة متعبداتهم ، من أصنام الجسائيات والشهوات . فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة لتألفها بالكثرة واحتجابها بها . ثم أخبر تعالى عما يتفاجى به المشركون ، رؤساء قريش ، بقوله متوعدا لهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ مَجْوَىٰ

إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا)

[٤٨] (أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ » أى بسببه أو لأجله من الهزء والاستخفاف واللغو « إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ مَجْوَىٰ » إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا » أى سحر ، فجئنا فاختلط كلامه « أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ » أى مثلك بالشاعر والساحر والمجنون « فَضَلُّوا » أى عن الحق والهداية بك « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » أى فلا يهتدون لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه . وأن الله قد خذلهم عن إصابته . أو المعنى فلا يستطيعون سبيلاً إلى طعن يمكن أن يقبله أحد ، بل يخبطون بما لا يرتاب في بطلانه أحد . كالتحير في أمره لا يدري ماذا يصنع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

[٥٠] (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا)

[٥١] (أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ،

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا)

[٥٢] (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا » وهو ما يلي وَتَفَتَّتْ « أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا *

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ » أى يعظم فى نفوسكم

عن قبول الحياة ويعظم فى زعمكم على الخالق إحياءه . فإنه يحْيِيكم ولا يعجزه بعثكم . فكيف ،

إذا كنتم عظاماً مرفوثة وقد كانت موصوفة بالحياة قبل ، والشئ أقبل لما عهد فيه مما لم

يعهد « فَسَيَقُولُونَ » أى بعد لزوم الحجة عليهم « مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ » أى يحركونها برفع وخفض ، تعجباً واستهزاء

« وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ » أى ما ذكرته من الإعادة « قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ

يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ » أى يوم يبعثكم فتنبعثون . قال القاضى : استعمار لهما الدعاء

والاستجابة ، للتنبيه على سرعتهم وتيسر أمرهما . وإن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة

والجزاء . انتهى .

وقيل : إنهما حقيقة كما فى آية^(١) (يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّسْكَانٍ قَرِيبٍ) وفى قوله

(١) [٥٠ / ق / ٤١] .

(يَوْمَ يَدْعُوكُمْ) وجوه للمعربين . ككونه بدلاً من (قريباً) على أنه ظرف . أو منصوب بـ (يكون) أو بمقدر كـ (اذكر) أو (تبعثون) . وقوله تعالى « بِحَمْدِهِ » أى وله الحمد على ما أحضركم للجزاء وتحقق وعده الصدق « وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » أى تستقصرون مدة لبسكم في القبور والمضاجع . لذهولكم عن ذلك الزمان . أو في الحياة الأولى ، لاستقصاركم إياها ، بالنسبة إلى الحياة الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَقُلْ لِّلْعِبَادِ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا)

[٥٤] (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)

« وَقُلْ لِّلْعِبَادِ » أى الذين آمنوا معك . إرادة تقريب أصحابهم إلى الصواب ، كأمر البعث « يَقُولُوا » فى النصيحة ، الكلمة « الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى فلا يخاشنوا أحدا ولا يغفلوا بالقول « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ » أى يفسد ويهيج الشر والراء ، لتقع بينهم المضاربة « إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا » وقوله تعالى « رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ » خطاب لهؤلاء المشركين من قريش . أى إن يشأ يرحمكم فيتوب عليكم برحمته وتنبيوا إليه . وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان ، فتموتوا على الشرك فيعذبكم عليه يوم القيامة .

وقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » أى موكولاً إليك إليك أمرهم .
تفسرهم على الإيمان . وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً ، تبلغهم رسالاتنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا)

« وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه شيء فيهما . فهو أعلم بهؤلاء ضرورة . وفيه إشارة إلى رحمته تعالى ببعثة الرسل ، لحاجة الخلق إليها . وإلى مشيئته فيمن يصطفي لرسالته ، ويختار لنبوته ، ويعلمه أهلاً لها . وقوله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » أى لاقتضاء علمه وحكمته ذلك . فإنه أعلم بمن في السموات والأرض وأحوالهم . فأتى موسى التوراة وكله ، وعيسى الإنجيل وداود الزبور . فضلهم بما آتاهم على غيرهم . وقد أتى محمد القرآن فضله به على الأنبياء كافة . وقوله تعالى « وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » أى يشتمل على الحكمة وفصل الخطاب ، ففضلناه به . قيل : الآية رد عليهم إذ استبعدوا أن يكون ﷺ نبياً ، دون من يعدونه عظيماً بينهم في الغنى والجاه . وذكر من في السموات لإبطال قولهم ^(١) (لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ) وذكر من في الأرض رد قولهم ^(٢) (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ) . وتخصيص داود بالذكر ، إشارة لتفضيل النبي ﷺ ، كما دل عليه ما كتب فيه من ^(٣) (أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ) ففيه تلميح إلى ما وقع فيه من وصفه بما ذكر فيه . وإيثار الزبور على الملك بيان لحيثية شرفه ، وأنه بما أوحى إليه من الكتاب والعلم ، لا بالملك والمال ، كذا قالوا . والظاهر أنه للإشارة إلى أن داود عليه السلام لم يكن في نشأته الأولى ممن يظن أنه يبلغ ما بلغ في الحكمة والملك . وقد اختصه الله بهما وميزه الله على أهل عصره . وإذا كان ذلك اختصاصاً ربانياً ، فلا غرابة أن يختص سبحانه من العرب ، من علم أنه أرجحهم عقلاً ، وأكملهم فضلاً ، لحتم نبوته ، وهداية بريته ، بمنهاجه وشرعته . وقوله تعالى :

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢١] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٣١] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ١٠٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ ۖ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا)

[٥٧] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)
« قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ ۖ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » .

أى قل لهؤلاء المشركين ، الذين يعبدون من دون الله من خلقه ، ادعوا من زعمتموهم أربابا وآلهة من دونه ، عند ضر ينزل بكم ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم ، فتدعونهم آلهة ؟ أى فإنهم لا يقدرون على ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

روى الطبري^(١) عن ابن عباس ؛ أن الآية عنى بها قوم مشركون ، كانوا يعبدون المسيح وعزيراً والملائكة . فأخبرهم الله تعالى أن هؤلاء عبيده يرجون رحمته ويخافون عذابه . ويتقربون إليه بالأعمال . ونظير هذه الآية في النهي عن أن يشرك به تعالى الملائكة والأنبياء ، قوله سبحانه^(٢) (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٦ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٧٩ و ٨٠] .

أَيَّامُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وفي قوله تعالى : (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) إشارة إلى أن العبادة لا تتم إلا بالرجاء والخوف . فبالرجاء تكثر الطاعات وبالخوف تقل السيئات . وقوله تعالى : (مَحْذُورًا) أى ينبغى أن يحذر منه ويخاف من حلوله . عيادًا بالله منه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

« وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا » .

إخبار بأنه حتم وقضى ؛ أنه ما من قرية يتمرد أهلها على نبيهم ، إلا ويبيدهم ، أو ينزل بهم من العذاب شديده . وذلك لذنوبهم وخطيئاتهم وعدم استجابتهم لنبيهم ، كما قال تعالى (١) : (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) وقال تعالى (٢) (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) وقال تعالى (٣) (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ...) الآيات وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)

« وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ » أى التى يقترحها قريش : « إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا

(١) [١١ / هود / ١٠١] . (٢) [٦٥ / الطلاق / ٩] . (٣) [٦٥ / الطلاق / ٨] .

الْأَوَّلُونَ « أَيْ إِلَّا تَكْذِيبَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ هُمْ أَمْثَالُهُمْ . كَعَادَ وَثَمُودَ . وَأَنَّهُمَا لَوِ أُرْسِلَتْ لَكَذَبُوا بِهَا تَكْذِيبَ أَوَّلُوكَ . فَاسْتَوْجِبُوا الِاسْتِثْصَالَ . عَلَى مَا مَضَتْ بِهِ السَّنَةُ الْإِلَهِيَّةُ . وَقَدْ قَضَيْنَا أَن لَا نَسْتَأْصِلَهُمْ ، لِأَن مِنْهُمْ مَنْ يُوْمِنُ أَوْ يَلِدُ مِنْ يُوْمِنٍ . ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ الْأُمَمِ الْمَهْلَكَةِ بِتَكْذِيبِ الْآيَاتِ الْمَقْرَحَةِ ، فَقَالَ : « وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ » أَيْ أَعْطَيْنَا قَوْمَ صَالِحِ النَّاقَةَ بِسُؤَالِهِمْ « مُبْصِرَةً » أَيْ بَيِّنَةً ، تَبْصُرُ الْغَيْرَ بِرَهَانِهَا « فَظَلَمُوا بِهَا » أَيْ فَكَفَرُوا بِهَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِ عَقْرِهَا ، فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ وَانْتَقَمَ مِنْهُمْ « وَمَا نُرْسِلُ إِلَّا لِيُتَ إِلَّا تَخَوِّفًا » أَيْ وَمَا نُرْسِلُ الْآيَاتِ الْمَقْرَحَةِ إِلَّا تَخَوِّفًا لِلنَّاسِ ، لِيَعْلَمُوا السَّنَةَ الْإِلَهِيَّةَ مَعَ الْعَاتِينَ ، فَيَتَذَكَّرُوا وَيَتُوبُوا .

روى الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له : إن شئت أن تستأني بهم ، وإن شئت أن يأتيتهم الذي سألوا . فإن كفروا ، هلكوا كما أهلك من كان قبلهم من الأمم . قال : لا . بل استأني بهم ، وأنزل الله قوله تعالى : « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ ... » . الآية . ورواه النسائي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا)

« وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ » أَيْ عَلِمَا ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ كُفْرِهِمْ

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٥٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٢٣٣٣ (طبعة المعارف) .

وتكذيبهم . ومنه ماجرى منهم ، إثر الرؤيا والإخبار بالشجرة ، من الجحود والهزء واللغو . كما قال سبحانه « وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي آرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » قال الأكثرون : يعنى مارآه النبي ﷺ ليلة الإسراء من الآيات . فلما ذكرها النبي ﷺ للناس ، أنكر بعضهم ذلك وكذبوا . وجعل الله ذلك ثباتاً وبقيناً للمخلصين . فكانت فتنة ، أى اختباراً وامتحاناً . وتمسك بهذا من جعل الإسراء مناماً ، لسكون الرؤيا مخصوصة بالمنام . وأجيب بأن قوله تعالى (إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) يردّه . لأن رؤيا المنام لا يفتن بها أحد ولا يكذب . وجاء في اللغة (الرؤيا بمعنى الرؤية مطلقاً) وهو معنى حقيقى لها . وقيل : إنها حقيقة في رؤيا المنام ورؤيا اليقظة ليلاً . وقد ذكر السهيلي ؛ أنه ورد في كلام العرب بهذا المعنى . وأنه كالقربى والقربة . وقيل : إنه مجاز ، إما مشاكلة لتسميتهم له رؤيا ، أو جارٍ على زعمهم . أو على التشبيه بها لما فيها من خرق العادة . أو لوقوعها ليلاً . أو لسرعتها . أفاده الشهاب .

وروى الطبرى^(١) عن الحسن في الآية هذه ؛ قال : أسرى به صلى الله عليه وسلم عشاء إلى بيت المقدس فصلى فيه وأراه الله ما أراه من الآيات . ثم أصبح بمكة فأخبرهم أنه أسرى به إلى بيت المقدس . فقالوا له : يا محمد ! ما شأنك ؟ أمسيت فيه ثم أصبحت فينا تخبرنا أنك أتيت بيت المقدس ؟ فمجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام .

وقال قوم^(٢) : الآية في رؤياه ﷺ التي رأى أنه يدخل مكة . فروى البرى عن ابن عباس . قال : يقال : إن رسول الله ﷺ أرى أنه دخل مكة هو وأصحابه . وهو يومئذ بالمدينة . فمجل رسول الله ﷺ السير إلى مكة . قبل الأجل : فردّه المشركون . فقالت أناس : قد ردّ رسول الله ﷺ ، وقد كان حدثنا أنه سيدخلها . فكانت رجعتهم فتنهم . وذلك عام الحديبية . ثم دخل مكة في العام المقبل . وأنزل الله عز وجل (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ) ولا يقال : إن السورة مكية وقصة الحديبية بعد الهجرة ، لاحتمال أنه رأى تلك الرؤيا بمكة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

ونزلت عليه هذه الآية . ولكنّه ذكرها عام الحديبية ، لأنّه كان إذ ذاك بمكة . فعلم أنّ دخوله بعد خروجه منها . كذا قيل .

وذهب بعضهم إلى أنّ كثيراً من السور المكية ضم إليها آيات مدنية، كما في (الإتقان). والطبريّ رجح الأول وفاقاً للأكثر . وقد قدمنا مراراً ؛ أنّ السلف قد يريدون بقولهم : (نزلت الآية في كذا) ، أنّ لفظ الآية مما يشمل ذلك . لا أنّه كان سبباً لنزوله حقيقة . وعليه ، فلا إشكال .

وقوله تعالى «وَالشَّجَرَةَ الْمَكُونَةَ فِي الْقُرْآنِ» عطف على الرؤيا، والأكثر على أنّها شجرة الزقوم المذكورة في سورة الصافات في قوله تعالى ^(١) (أَذْلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ...) الآيات ، وفتنهم فيها مارواه الطبريّ ^(٢) عن ابن عباس وقتادة ؛ أنّ أبا جهل قال : زعم صاحبكم هذا - يعنى النبيّ صلوات الله عليه أنّ النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ! فكذبوا بذلك . وفي رواية ؛ أنّ أبا جهل قال : أ يخوفني بشجر الزقوم ؟ ثم دعا بتمر وزبد وجعل يأكل ويقول : تزقوا ، فما تعلم الزقوم غير هذا . والمراد بلعنها في القرآن ، لعن طاعنها فيه ، على أنّه مجاز في الإسناد . أو الملعون بمعنى المؤذى لأنها تغلى في البطون كغلي الحميم . فهو إما مجاز مرسل أو استعارة . وقوله تعالى « وَنُحَوِّفُهُمْ » أى بذلك وبنظائره من الآيات « فَمَا يَزِيدُهُمْ » أى التخويف « إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا » أى تمادياً فيما هم فيه من الضلال والكفر .

(١) [٣٧ / الصافات / ٦٢-٦٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٦٣ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال المهيأى : أى فلو أرسلنا إليهم الآيات المقترحة ، لقالوا إنه أجلّ من أحاط بأبواب السحر . فلا فائدة فى إرسالها سوى تعجيل العذاب الديوى . لكنه ينافى إظهار دينه على الدين كله . ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان من اتباع الشيطان . وأنه وحزبه ، لمتوهم ومتوهم عن الحق ، فى النار ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)

[٦٢] (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَىٰ لَيْنٍ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَخْتِكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا)

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ» أى تحية وتكريماً «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا» كما قال فى الآية الأخرى^(١) (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) «قَالَ» أى جراءة على الرب وكفراً به «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَىٰ» أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته علىّ بأن أمرتنى بالسجود له ، لم كرمته علىّ ؟ أو المعنى : أخبرنى أهذا الذى كرمته علىّ «لَيْنٍ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَخْتِكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا» أى لأعمتهم وأهلكتهم بالإغواء ، إلا المخلصين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا)

[٦٤] (وَأُسْتَفْزِرُ مِنْ أُسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ

وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ

إِلَّا غُرُورًا)

[٦٥] (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا)

« قَالَ أَذْهَبَ » أى امض لشأنك الذى اخترته « فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ

جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا » أى جزاء مكملًا « وَأُسْتَفْزِرُ » أى استخف وأزعج « مَنْ

أُسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ » أى أن تستفزه فتخذه « بِصَوْتِكَ » أى بدعائك إلى الفساد . وعبر

عن الدعاء بالصوت تحقيراً له حتى كأنه لا معنى له « وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ »

أى صح عليهم . من الجلبة (بفتحات) وهى الصياح . و (الخيل) الخيالة أى ركبان الخيل

بجاءاً . وأصل معنى الخيل الأفراس . (والرجل) اسم جمع للراجل وهو خلاف الفارس ،

والمراد الأعوان والأتباع مطلقاً .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلاجه بخيله ورجله ؟ قلت :

هو كلام ورد مورد التمثيل ، مثل حاله فى تسلطه على من يغويه ، بمغوار - بكسر الميم ، الكثير

الغارة وهى الحرب والنهب - أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزه من أما كنهم ، ويقلقهم

عن مراكرهم . وأجلب عليهم بجنده من خيالة حتى استأصلهم - أى فالكلام استمارة تمثيلية

مركبة . استمير فيه المجموع والهيئة للمجموع والهيئة . ووجهه ما ذكره من استئصالهم

وإهلاكهم ، أو غلبته وتسخيره لهم . وجوز أن يكون التجوز فى الفردات تجوزاً بصوته عن

دعائه إلى الشر بالوسوسة . وبخيله ورجله عن كل راكب وماش من أهل العيث

والفساد بإغوائه . « وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ » أى بحمله إياهم على إنفاقها فى المعاصى وجمعها من حرام والتصرف فيها تحريماً وتحليلاً بما لا يرضى « وَالْأَوْلَادِ » أى بالتفاخر فيهم وتضليلهم بصفتهم غير صبغة الدين ، وَوَأَدِهِمْ ونحو ذلك مما يعصى الله بسببه « وَعِدُّهُمْ » أى المواعيد الباطلة والأمانى الكاذبة من سلامة العاقبة ودوام الغلبة « وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا » وهو تزوين الباطل بزينة الحق « إِنَّ عِبَادِي » أى المخلصين « لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » أى تسلط بالإغواء « وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا » أى كفيلاً لهم يتوكلون عليه ولا يلجؤون فى أمورهم إلا إليه ، وهو كافيمهم .

وقد أشار القاشانى إلى أن الآية تشير إلى انقسام الناس مع الشيطان على أصناف . وعبارته : تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام . لأن الاستعدادات متفاوتة . فمن كان ضعيف الاستعداد استغفره . أى استخفه بصوته ، يكفيه وسوسة وهمس بل هاجس ولة . ومن كان قوى الاستعداد ، فإن أخلص استعداده عن شوائب الصفات النفسانية ، أو أخلصه الله تعالى عن شوائب الغيرية ، فليس له إلى إغوائه سبيل كما قال (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وإلا فإن كان منغمساً فى الشواغل الحسية ، غارزاً رأسه فى الأمور الدنيوية ، شاركه فى أمواله وأولاده ، بأن يحرّضه على إثراكم بالله فى المحبة . بحبهم كحب الله . ويسوّل له التمتع بهم ، والتسكّر والتفاخر بوجودهم . ويمنيه الأمانى الكاذبة . ويزين عليه الآمال الفارغة . وإن لم ينفمس ، فإن كان عالماً بصيراً بتسويلاته ، أجب عليه بخيله ورجله . أى مكره بأنواع الخيل . وكاده بصنوف الفتن . وأفتى له فى تحصيل أنواع الحطام والملاذ بأنها من جملة مصالح المعاش . وغره بالعلم وحمله على الإعجاب . وأمثال ذلك حتى يصير ممن أضله الله على علم . وإن لم يكن عالماً بل عابداً متنسكاً ، أغواه بالوعد والتمنية . وغره بالطاعة والتزكية أيسر ما يكون . انتهى : ثم بين تعالى بعضاً من آيات وحدانيته وألوهيته بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُوَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

« رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ » أى يُسَيِّرُ لكم السفن في البحر « لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى من رزقه . والآية صريحة في ركوب البحر للتجارة « إِنَّهُوَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » حيث سهل لكم أسباب ذلك .

قال أبو السعود : وهذا تذكير لعمى النعم التي هي من دلائل التوحيد ، وتعميد لذكر توحيدهم عند مساس الضر ، تسكلة لما مر من قوله (فَلَا يَمْلِكُونَ ...) الآية ، وذلك قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا)

« وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ » أى خوف الغرق « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » أى ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه وتعبدونه ، إلا إياه وحده . فإنكم لاتذكرون سواه . فطرة فطر الله الخلق عليها .

وهذه الآية مما يستدل بها على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة . وقد استدلل لكثير من الأصول بها ، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة في مسائل شتى . كمسألة وجود الخالق وعلوه ، والمعاد وغيرها . وقوله تعالى : « فَلَمَّا نَجَّكُمْ » أى من الغرق : « إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ » أى عن التوحيد : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا » أى بأنهم الله . والجملة كالتعليل للإعراض . قال الشهاب : وفيه لطف ، حيث أعرض عن خطابهم بخصوصهم . وذكر أن جنس

الإنسان مجبول على هذا . فلما أعرضوا أعرض الله عنهم . ثم خوفهم تعالى بقدرته العظيمة ،
بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا
ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا)

[٦٩] (أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَ كُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ
الرَّيْحِ فَيُفْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا)
« أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ » أى يغوره بكم « أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا » أى ريحاً ترمى بالحصباء يرحسكم بها ، فيكون أشدَّ عليكم من الغرق : « ثُمَّ
لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا » أى من يتوكل بصرف ذلك عنكم « أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَ كُمْ
فِيهِ » أى يقوى دواعيكم لركوب البحر « تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ
الرَّيْحِ » أى ريحاً شديدة لاتر بئىء إلا قصفته ، فتكسر السفينة وسط البحر « فَيُفْرِقَكُم
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا » أى مطالباً بما فعلنا . مثل من يطالب
على مغرق سوانا . وهذا كقوله ^(١) : (وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ » أى بالنطق والتمييز والعقل والمعرفة والصورة والتسلط على
ما فى الأرض والمتع به « وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أى يسرنا لهم أسباب المعاش والمعاد

بالسير في طلبها فيهما ، وتحصيلها « وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » أى فنون المستلذات التى لم يرزقها غيرهم من المخلوقات « وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » أى عظيمًا .
 فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ، بأن يعبدوا المتفضل بها وحده و يقيموا شرائعه وحدوده .

تنبيه :

ظاهر قوله تعالى (على كثير) أن ثمة من لم يفضل البشر عليه . قيل وهم الذوات المقدسة من الملائ الأعلى ، أعنى الملائكة .

قال القاشانى : وأما أفضلية بعض الناس ، كالأنبياء على الملائكة المقربين ، فليست من جهة كونهم بنى آدم . بل من جهة السر المودع فيهم المشار إليه بقوله ^(١) : (إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلهية التامة . وحينئذ ليس هو بهذا الاعتبار من بنى آدم كما قيل ^(٢) :

وإنى وإن كنت ابن آدم صورةً فلى فيه معنى شاهدٌ بأبوتى
 وذهب قوم إلى تأويل (الكثير) (بالكل) كما أوّل (القليل) بمعنى (العدم) فى قوله تعالى ^(٣) : (فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) والمعنى : وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْجَمِّ الْغَفِيرِ مِمَّنْ خَلَقْنَا .
 أى جميع المخلوقات .

قال القاشانى : على أن تكون (من) للبيان والمبالغة فى تعظيمه ، بوصف المفضل عليهم بالكثرة وتنكير الوصف وتقديمه على الموصوف . أى كثير وأى كثير ، وهو جميع

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] .

(٢) قائله عمر بن الفارض من تايئته الكبرى المسماة بنظم السلوك . ومطامها :

سَقَنِي حُمَيًّا الْحَبَّ رَاحَةً مُقَلَّتِي وَكَأْسِي حَيًّا مِّنْ عَنِ الْحَسَنِ جَلَّتْ

(٣) [٢ / البقرة / ٨٨] .

مخلوقاتنا . لدلالة (مَنْ) على العموم . ولا يخفى أنه لا يلزم من تفضيل جنس على جنس آخر تفضيل كل فرد منه على كل فرد من الآخر . والمسألة معروفة في كتب الكلام . وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ ، فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَ يَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

[٧٢] (وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

« يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ » أى بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين . فيقال : يا أتباع فلان ! يا أهل دين كذا وكتاب كذا وقيل : بكتاب أعمالهم . فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ! يا أصحاب كتاب الشر ! قالوا : وفيه شرف لأصحاب الحديث . لأن إمامهم النبي ﷺ .

وقال القاشاني : أى نحضر كل طائفة من الأمم مع شاهدهم الذى يحضرهم ويتوجهون إليه ويعرفونه ، سواء كان صورة نبي آمنوا به ، أو إمام اقتدوا به ، أو دين أو كتاب ، أو ما شئت . على أن تكون (الباء) بمعنى (مع) . أو ننسبهم إلى إمامهم وندعوهم باسمه ، لكونه هو الغالب عليهم وعلى أمرهم ، المستعلي محبتهم إياه على سائر محباتهم .

ورجح ابن كثير ، رحمه الله ، القول بأن الإمام هو كتاب الأعمال ، لقوله تعالى (١) (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) وقال تعالى (٢) (وَوَضَعَ الْكِتَابَ فُتْرَى الْمُجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ..) الآية ، وقال تعالى (٣) (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِعَةٍ ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَابُنَا يُنْفِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(١) [٣٦/يس/١٢] . (٢) [١٨/الكهف/٤٩] ، (٣) [٤٥/الجاثية/٢٨ ، ٢٩] .

وما رجع به رحمه الله هو الصواب . لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً . وأول ما ينبغي الاهتمام به في معاني الآيات ، هو الرجوع إلى نظائرها . وقوله تعالى « فَمَنْ أُوْتِيَ » أى من هؤلاء المدعوين « كِتَابَهُ وَ » أى كتاب أعماله « بِبَيْمِينِهِ فَاَوْ لَآئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ » أى فرحاً وابتهاجاً بما فيه من العمل الصالح « وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » أى لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو ما في شق النواة ، أو ما تقتله بين أصبعيك ، أو هو أدنى شيء . فإن الفتيل مثل في القلة ، كقوله تعالى ^(١) « وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا » .

« وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا » أى ومن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن الاهتداء إلى الحق ، فهو في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلاً منه في الدنيا . لأن له في هذه الحياة آلات وأدوات وأسباباً يمكنه الاهتداء بها . وهو في مقام الكسب باقى الاستعداد . ولم يبق هناك شيء من ذلك . قيل : العمى حقيقة فيمن لا يدرك المبصرات ، لفساد حاسته . مجاز في عمى البصيرة ، وهو عدم الاهتداء إلى طريق النجاة . وقيل : هو حقيقة فيهما . وعليه جوز أن يكون (أعمى) الثانى أفعال تفضيل . لأنه من عمى القلب لا عمى البصر . ويجوز أن يصاغ من العيوب الباطنة أفعال تفضيل كالأحمق والأبله .

لطيفة :

قال الناصر : يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى . أى فمن أوتى كتابه بيمينه فهو الذى يبصره ويقرؤه . ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه ، ولا ناظر في معاده ، فهو في الآخرة كذلك ، غير مبصر في كتابه ، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان في الدنيا ، على اختلاف التأويلين . وقوله تعالى :

(١) [١٩ / مريم / ٦٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا)

[٧٤] (وَلَوْ لَا أَنْ بَنَيْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)

«وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا* وَلَوْ لَا أَنْ بَنَيْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا» إخبار عن تأييده تعالى رسوله ، صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيتته وعصمته وتولى أمره وحفظه . فإن المشركين ، لكثرة تفننهم فى ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم ، كادوا أن يفتنوه . ولكن عناية الله وحفظه ، هو الذى ثبت قدمه فى مثل مقامه فى الدعوة إلى الله الذى لا يثبت فيه أحد غيره . وقد روى أن ثقيفاً قالوا : لا نؤمن حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب : لانحنى فى الصلاة ، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها . فإن خشيت أن يسمع العرب (لِمَ أَعْطَيْتَهُمْ مَا لَمْ تُعْطِنَا) ؟ فقل : الله أمرنى بذلك . وروى أن قريشاً قالوا : لاندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا . وقالوا أيضاً : نؤمن بك إن تمس آلهتنا .

قال الإمام الطبرى : يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر . وأن تكون غير ذلك . ولا بيان فى الكتاب ولا فى خبر يقطع العذر أى ذلك كان . فالأصوب الإيذان بظاهره حتى يأتى ما يجب التسليم له ، ببيان ما عنى بذلك منه .

قال الزجاج : معنى الكلام كادوا يفتنونك . ودخلت (أن) المخففة من الثقيلة و(اللام) للتأكيد . والمعنى : أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك . وبصرفوك عن القرآن أى عن حكمه . وذلك لأن فى إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن . وقوله : (لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ) أى غير ما أوحينا إليك وهو قولهم : قل الله أمرنى بذلك

(وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا) أى لو فعلت ما أرادوا لا تخذوك خليلاً ، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم ، وراض بشرهم . ثم قال (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ) أى على الحق بعصمتنا إياك (لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ) أى تميل إليهم (شَيْئًا قَلِيلًا) وقوله (شَيْئًا) عبارة عن المصدر ، أى ركوناً قليلاً .

وعن قتادة : لما نزلت هذه الآية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تسكنني إلى نفسى طرفه عين) . ثم توعده فى ذلك أشد التوعد ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) «إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ضِعْفِ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ» أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. (والضعف) عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله ، وذل على إضمار العذاب ، وصف العذاب بالضعف فى كثير من الآيات. كقوله تعالى ^(١) (رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ) وقال ^(٢) (لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) . والسبب فى تضعيف العذاب ؛ أن أقسام نعم الله على الأنبياء أكثر . فكانت ذنوبهم أعظم . فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر . ونظيره قوله تعالى ^(٣) (يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) .

تنبيهات :

الأول : قال الفقهاء رحمه الله (بعد ذكره ما روى فى سبب نزولها مما قدمناه) : ويمكن أيضاً تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه . لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون فى إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه . فتارة كانوا يقولون :

(١) [٣٨ / ص ٦١] . (٢) [٧ / الأعراف / ٣٨] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] .

إن عبادت آلهتنا عبدنا إلهك . فأنزل الله تعالى^(١) : (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله^(٢) : (وَذُؤُوا لَوْ تَذُنُّهُمْ فَيَذْهَبُونَ) وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ليرك ادعاء النبوة . فأنزل الله تعالى^(٣) (وَلَا تَعْمَدَنَّ عَيْنَيْكَ) ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله^(٤) : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في هذا الباب . وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه ، وأن يزيلوه عن منهجه . فبين تعالى أنه يثبتته على الدين القويم والمنهج المستقيم . وعلى هذا الطريق ، فلا حاجة في تفسير هذه الآيات ، إلى شيء من تلك الروايات . والله أعلم .

الثاني : قال القاضي : معنى قوله تعالى : (وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ . . .) الآية ، إنك كنت على صدد الركون إليهم ، لقوة خدعهم وشدة احتياهم . لكن أدركتك عصمتنا فمعت أن تقرب من الركون ، فضلاً عن أن تركن إليهم . وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام مأمهم بإجابتهم ، مع قوة الداعي إليها . ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه .

الثالث : قال الزمخشري : في ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين ، دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته . وفيه دليل على أن أدنى مدهانة للغواية ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن ، إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها . فهي جديرة بالتدبر . وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله .

الرابع : جاء في (حواشي جامع البيان) ما مثاله بالحرف : من الفوائد الجليلة في هذه الآية ، أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك ، بعد القدرة على هدمها وإبطالها ، يوماً . فإنها شعائر

(١) [١٠٩ / الكافرون / ١ و ٢] . (٢) [٦٨ / القلم / ٩] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٣١] . (٤) [٦ / الأنعام / ٥٢] .

الكفر والشرك . وهى أعظم المنكرات فلا يجوز الإفراق عليها مع القدرة البتة . وهكذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثاناً وطواغيت ، تعبّد من دون الله . والأحجار التى تقصد للتعظيم والتبرك والندور والتقبيل ، لا يجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض ، مع القدرة على إزالتها . وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وأعظم شرك عندها وبها . فإن اللات - على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد - رجل كان يلت لهم السوق فمات . فعكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونه . ولم يقولوا إن اللات خلقت السموات والأرض . بل كان شركهم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه ، من الندور لها والشرك بها والتمسح بها وتقبيلها واستلامها . وما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مجرد مسّ آلهتهم . كما قالوا نؤمن بك إن تمس آلهتنا . وما التمسوا منه إلا التمتع باللات سنة من غير عبادة ، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم . فالرزية كل الرزية ما ابتلى به القبوريون من أهل هذا الزمان . فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام ، إلا فعلوه بالقبور . فإننا لله وإننا إليه راجعون . بل كثير منهم ، إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه ، حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك : احلف بشيخك . أو بمعتدك الولّى الفلانى نلكنّا وأبى واعترف بالحق . وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال (ثالث ثلاثة) فيا علماء الدين ! ويا ملوك المسلمين ! أى رزء للإسلام أشد من الكفر ؟ وأى بلاء لهذا الدين أضّر عليه من عبادة غير الله ؟ وأى مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه ؟ وأى منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجباً ؟ فاللهم ! انصر من نصر الحق واهدنا إلى سواء السبيل . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا)

[٧٧] (سَنَّةً مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا)

« وَإِنْ كَادُوا » أى أهل مكة « لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ » أى ليزعجونك بمآذاتهم من مكة « لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ » أى ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك « إِلَّا قَلِيلًا » أى زمانًا قليلًا « سَنَّةً مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا » يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرائهم ، فسنة الله أن يهلكهم . ونصبت نصب المصدر المؤكد . أى سنَّ الله ذلك سنة « وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » أى تغييراً . ولا يخفى أن المراد بعدم لبثهم ، إهلاكم . سواء كان بالاستئصال ، أو لا . قال ابن كثير : وكذلك وقع . فإنه ﷺ لم يكن بين هجرته من بين أظهرهم ، بعد ما اشتد أذاهم له ، إلا سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه بيدى على غير ميعاد . فأمكنه منهم ، وسلطه عليهم ، وأظفره بهم . فقتل أشرفهم وسبى سرائهم . ولهذا قال تعالى (سَنَّةً مَن قَدْ أَرْسَلْنَا) أى هكذا عادتنا فى الدين كفروا برسولنا وآذوه . يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتهم العذاب . ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة ، لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به . كما قال تعالى^(١) (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) .

وقوله تعالى :

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)

« أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » لما ذكر تعالى ، قبل ، كيد المشركين وكيدودتهم استفزازة من الأرض ، أمره بأن يستعين بإقامة الصلوات والإقبال على عبادته تعالى ، والابتهاال إليه على دفع كيدهم ومكرهم ، وتأنيده عليهم . ونظيره قوله تعالى ^(١) (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) وقوله ^(٢) (فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) وقوله ^(٣) (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) هذا من حيث نظم الآية مع ما قبلها . وأما معناها ، فقوله (لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) أى لزوالها . قال ابن تيمية : الدلوك الزوال عند أكثر السلف وهو الصواب . واللام للتأقيت . أى بيان الوقت بمعنى (بعد) وتكون بمعنى (عند) أيضا . وقيل : للتعليل . لأن دخول الوقت سبب لوجوب الصلاة . وأما (غَسَقِ اللَّيْلِ) ، فهو اجتماع الليل وظلمته . وأما (قُرْءَانَ الْفَجْرِ) . فهو صلاة الصبح . سميت قرآنا لأنه ركنها . كما سميت ركوعا وسجودا . فهو من تسمية الكل باسم جزئه المهم . فيدل على وجوب القراءة فيها صريحا ، وفي غيرها بدلالة النص والقياس . ومعنى (مَشْهُودًا) يشهده ملائكة الليل والنهار . ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء . فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار . أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة ! ومن حقه أن يكون مشهودا بالجماعة الكثيرة . والأكثر على أن قوله تعالى (وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ)

(١) [١٥ / الحجر / ٩٧ و ٩٨] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣٠] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤٥] .

منصوب بالعطف على (الصلاة) أى : وأقم صلاة الفجر . وجوز بعض النحاة نصبه على الإغراء . أى : وعليك قرآن الفجر أو الزم .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها ، فدلوك الشمس يتناول الظهر والعصر تناوولا واحداً . وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء تناوولا واحداً . وقرآن الفجر هى صلاة مفردة لا تجمع ولا تقصر . قيل : هذا يقتضى أن يكون الدلوك مشتركاً بين الظهر والعصر . والغسق مشتركاً بين المغرب والعشاء . فيدل على جواز الجمع مطلقاً بين الأولين ، وكذا بين الآخرين . فالجواب : هو كذلك بعذر السفر أو المطر ونحوها . وأما فى غيرها فلا . وذلك لما بينته السنة من فعل كل واحدة فى الوقت الخاص بها ، إلا بعذر . قال الحافظ ابن كثير : قد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله ، تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفاً عن ساف ، وقرنا بعد قرن ، كما هو مقرر فى مواضعه . وقال العلامة أبو السعود : ليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار ، بل إقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام . كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام . ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها ، لما أن الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة . فبعضها متصل ببعض ، بخلاف أول وقت العشاء والفجر فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ، ينقطع أحدهما عن الآخر . ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات . انتهى .

والظاهر أن مستند من جوز الجمع فى الحضر مطلقاً هذه الآية ، مع أثر ابن عباس . جاء فى (رحمة الأمة) ما مثاله : وعن ابن سيرين أنه يجوز الجمع من غير خوف ولا مرض لحاجة . ما لم يتخذ عادة . واختار ابن المنذر وجماعة جواز الجمع فى الحضر من غير خوف ولا مطر ولا مرض . انتهى .

وقد روى الشيخان^(١) وغيرهما عن ابن عباس قال: صلى النبي ﷺ بالمدينة سبعا وثمانيا: الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء .

ومن رواية لمسلم : صلى الظهر والعصر جميعاً ، والمغرب والعشاء جميعاً ، من غير خوف ولا سفر . وكثير من الرواة حملوا ذلك على ليلة مطيرة . والمسألة شهيرة .

الثاني : قلنا إن هذه الآية إحدى الآيات التي جمعت الصلوات الخمس ، ومنها قوله تعالى^(٢) : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ) فالطرف الأول صلاة الفجر فإن صلاة الفجر في النهار . فإن الصائم يصوم النهار . وهو يصوم من طلوع الفجر . والوتر تصلى بالليل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم^(٣) : صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة . وإذا قيل : نصف النهار ، فالمراد به النهار المبتدئ من طلوع الشمس . فهذا في هذا الموضوع ، ولفظ (النهار) يراد به من طلوع الفجر ، وبراد به من طلوع الشمس . لكن قوله (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ) أريد به من طلوع الفجر بلا ريب ، لأن ما بعد طلوع الشمس ليس على المسلمين فيه صلاة واجبة ، بل ولا مستحبة . بل الصلاة في أول الطلوع منهي عنها حتى ترتفع الشمس . وهل تستحب الصلاة لوقت الضحى أو لا تستحب إلا لأمر عارض ؟ فيه نزاع ليس هذا موضعه . فاعلم أنه أراد بالطرف الأول من طلوع الفجر . وأما الطرف الثاني

(١) أخرجه البخاري في : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ١٢ - باب تأخير الظهر إلى العصر ، حديث رقم ٣٥٣ (عن ابن عباس) .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٥٥ (طبعنا) .
(٢) [١١ / هود / ١١٤] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١٩ - كتاب التهجد ، ١٠ - باب كيف كان صلاة النبي ﷺ ، حديث رقم ٣١٤ عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ١٤٧ (طبعنا) .

فمن الزوال إلى الغروب . فجعل الصلاة في هذا الوقت صلاة في الطرف الثاني وأشرك بينهما فيه . ثم قال (وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ) فأجل المغرب والعشاء في (زلف من الليل) . وهي ساعات من الليل . فالواقيت هنا ثلاثة .

وقال تعالى^(١) (لَيْسْتَ تَذُنُّكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ) فذكر الفجر وذكر الظهر وذكر صلاة العشاء . فمن الظهر إلى ما بعد صلاة العشاء وقتان للصلاة . وقد ذكر الأول من هذا الوقت والآخر من هذا الوقت . وقد دل على الواقيت في آيات أخر كقوله تعالى^(٢) (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) فتبين أن له التسبيح والحمد في السموات والأرض ، حين المساء وحين الصباح وعشيًّا وحين الإظهار . فالمساء يتناول المغرب والعشاء ، والصباح يتناول الفجر ، والعشي يتناول العصر . والإظهار يتناول الظهر .

وقال تعالى^(٣) (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) وفي الآية الأخرى^(٤) : (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ) فقبل طلوع الشمس هي صلاة الفجر . وقبل غروبها هي العصر . وبذلك فسرهما النبي ﷺ في الحديث^(٥) المتفق على صحته عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال :

(١) [٢٤ / النور / ٥٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ١٧ و ١٨] . (٣) [٢٠ / طه / ١٣٠] .

(٤) [٥٠ / ق / ٣٩ و ٤٠] . (٥) أخرجه البخاري في : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ،

١٦ - باب فضل صلاة العصر ، حديث ٣٥٨ .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢١١ (طبعنا) .

(إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر . فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا . ثم قرأ قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) . وقوله تعالى (وَمِنَ اللَّيْلِ) (وَمِنَ النَّهَارِ) (وَمِنَ اللَّيْلِ) مطلق في آناء الليل ، يتناول المغرب والعشاء . أفاد ذلك تقي الدين ابن تيمية في فتواه في (المواقيت الكبرى) .

الثالث : هذه الآية من الآيات التي أمر تعالى فيها بإقامة الصلاة لوقتها . قال ابن تيمية . عليه الرحمة ، في فتواه المتقدمة : وقت الصلاة وقتان . وقت الرفاهية والاختيار . ووقت الحاجة والمعذر . فالوقت في حال الرفاهية خمسة أوقات كما في صحيح مسلم عن عبد الله ابن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ^(١) (وقت الظهر ما لم يصر ظل كل شيء مثله . ووقت العصر ما لم تصفر الشمس . ووقت المغرب ما لم يغب نور الشفق . ووقت العشاء إلى نصف الليل . ووقت الفجر ما لم تطلع الشمس) . وقد روى هذا الحديث من حديث أبي هريرة في السنن . ولم يرو عن النبي صلى الله عليه وسلم في المواقيت حديث من قوله إلا هذا . وسائر ما روى فعل منه ، والأحاديث الصحيحة المتأخرة من فعله توافق هذا الحديث . ولهذا ما في هذا الحديث من المواقيت هو الصحيح عند الفقهاء العارفين بالحديث . والنزاع بين العلماء في آخر وقت الظهر ، وأول وقت العصر وآخره ، وآخر وقت المغرب ، وآخر وقت العشاء وآخر وقت الفجر . فالجماهير من السلف والخلف من فقهاء الحديث وأهل الحجاز ، وقت الظهر عندهم من الزوال إلى أن يصير ظل كل شيء مثله . سوى النوى الذي زالت عليه الشمس ، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة : إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه ، ثم يدخل وقت العصر عند الجمهور . وعند أبي حنيفة إنما يدخل إذا صار ظل كل شيء مثليه ، ونقل عنه ، أن ما بين المثل إلى المثلين ليس وقتاً لا للظهر ولا

(١) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٣ (طبعنا) .

العصر . وعلى قول الجمهور ، فهل آخر هذا أول هذا أو بينهما قدر أربع ركعات مشترك ؟ فيه نزاع . فالجمهور على الأول ، والثاني منقول عن مالك . وإذا صار ظل كل شيء مثليه ، خرج وقت العصر في إحدى الروايتين عن أحمد . وهو منقول عن مالك والشافعي مع خلاف في مذهبهما . والصحيح أن وقتها ممتد بلا كراهة إلى اصفرار الشمس . وهو الرواية الثانية عن أحمد . كما نطق به حديث عبد الله بن عمرو^(١) ، مما عمل به النبي ﷺ بالمدينة ، بعد عمله بمكة . وهذا قول أبي يوسف ومحمد . فلم يكن للعصر وقت متفق عليه . ولكن الصواب المقطوع به ، الذي تواترت به السنن واتفق عليه الجماهير ؛ أن وقتها يدخل إذا صار ظل كل شيء مثله . وليس مع القول الآخر نقل عن النبي ﷺ ، لاصح ولا ضعيف . ولكن الأمراء الذين كانوا يؤخرون الصلاة ، لمّا اعتادوا تأخير الصلاة ، واشتهر ذلك ، صار يظن من يظن أنه السفة . وقد احتج له بالمثل المضروب للمسلمين وأهل الكتاب . ولا حجة فيه لاتفاق أهل الحساب على أن وقت الظهر أطول من وقت العصر ، الذي أوله إذا صار ظل كل شيء مثليه .

وأما أوقات الحاجة والعذر فهي ثلاثة: من الزوال إلى الغروب. ومن الغروب إلى الفجر. ومن الفجر إلى طلوع الشمس . فالأول وقت الظهر والعصر عند العذر . واتسع فيها وفيهما من وجهين : أحدهما تقديم العصر إلى وقت الظهر ، كما قدمها النبي ﷺ يوم عرفة . وكما كان يقدمها في سفره بموك . إذا ارتحل بعد أن تزيغ الشمس . وتقديم العشاء إلى المغرب في المطر . فهذا جمع تقديم . والثاني جمع تأخير ، العصر فيها إلى الغروب . لقوله ﷺ في الحديث الصحيح :^(٢) من أدرك ركعة من الفجر قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الفجر . ومن أدرك

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٣٩٦٣ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ٢٨ - باب من أدرك من ركعة ، حديث رقم ٣٦٠ (عن أبي هريرة) . وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٥ (طبعنا) .

ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر . مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح^(١) :
 (وقت العصر ما لم تصفر الشمس) . وأنه لم يؤخر الصلاة قط إلى الاصفرار . ويوم الخندق كان
 التأخير إلى بعد الغروب . وهو منسوخ في أشهر قولي العلماء بقوله تعالى^(٢) ﴿ حَافِظُوا عَلَى
 الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ وهذا مذهب مالك والشافعي ، وأحمد في أشهر الروايتين عنه .
 وقيل : بخير حال القتال في التأخير والصلاة في الوقت بحسب الإمكان . وهو الرواية الأخرى
 عنه . وقيل : بل يؤخرها . وهو قول أبي حنيفة أيضاً . ففي الحديث الصحيح^(٣) عنه ﷺ أنه
 قال (تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق . يرقب الشمس حتى إذا كانت
 بين قرني الشيطان ، قام فنفق أربعا ، لا يذكر الله فيها إلا قليلا) فوصف صلاة المنافق بالتأخير
 إلى حين الغروب والنقر . فدل على المنع من هذا وهذا . فلما قال ﷺ هذا وهذا ، علم أن
 الوقت وقتان . فمن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك مطلقاً . وليس
 له أن يؤخر إلى ذلك الوقت ، مع إمكان الصلاة قبله . بخلاف من لا يمكنه الصلاة قبل ذلك .
 كالحائض إذا طهرت . والمجنون يفيق . والنائم يستيقظ . والناسي يذكر . ودل تقديم العصر
 يوم عرفة على أنها تفعل في موضع مع الظهر عقيب الزوال . ودل هذا الحديث على أنها
 يُدرك وقتها بإدراك ركعة منها قبل الغروب . مع أنه بين بقوله وفعله ؛ أن وقتها إذا صار ظل
 كل شيء مثله . ما لم تصفر الشمس . فدل ذلك على أن هذا الوقت المختص بها ،
 وقت مع التمكن والرفاهية . ليس لأحد أن يؤخرها عنه ولا يقدمها عليه . وقد عرف من
 الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة وابن عباس ؛ أنهم قالوا : (في الحائض إذا
 طهرت قبل غروب الشمس) : تصلي الظهر والعصر . وإذا طهرت قبل طلوع الفجر ، صلت

(١) انظر الحاشية رقم (١) صفحة ٣٩٦٣ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣٨] . (٣) أخرجه مسلم في ٥ - كتاب المساجد ومواضع

الصلاة ، حديث رقم ١٩٥ (طبعتنا) عن أنس .

المغرب والعشاء . ولم يعرف عن صحابيٍّ خلاف ذلك . وبذلك أخذ الجمهور كالك والشافعيّ وأحمد . وهذا مما يدل على أنه كان الصحابة ترى أن الليل عند العذر مشترك بين المغرب والعشاء إلى الفجر . والنصف الثاني عند العذر مشترك بين الظهر والعصر من الزوال إلى الغروب . كما دل على ذلك السنة والقرآن - يعني الآية المذكورة وأمثالها مما سقناه قبل - والذين ينازعون الجمهور في الوقت المشترك ، ويقولون ليس لكل منهما إلا وقت يخصها ، يقولون : الفرض إنما ثبت بالقرآن . والقرآن أوجب مطلق الذكر في قوله ^(١) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ أَمْرَ رَبِّهِ فَصَلَّى) فلا موجب لخصوص التكبير عندهم . بل مطلق الذكر . وإن كان النبي ﷺ لم يصل قط إلا بتكبير . ولا أحد من خلفائه ولا أحد من أئمة المسلمين ولا أحدهم المعروفين يُعرف أنه صلى إلا بتكبير . ومع هذا فيجوزونه بمطلق الذكر . لأن القرآن مطلق في الذكر . فيقال لهم : القرآن مطلق في آناء الليل وفي غسق الليل . ومطلق في الطرف الأول وفي الطرف الثاني ، فدل على جواز الصلاة في هذا وهذا ، لو قدر أن النبي ﷺ داوم على التفريق ، فكيف إذا ثبت عنه أنه جمع بينهما في الوقت غير مرة؟ وكذلك يقولون : قوله تعالى ^(٢) (أُرْكَعُوا وَاسْجُدُوا) مطلق . فهو الفرض . والطمأنينة إنما جاء بها خبر واحد . فيفيد الوجوب دون الفرضية . وكذلك يقولون في الفاتحة : إن القرآن مطلق في إيجاب قراءة ما تيسر منه ، مع أن النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده لم يصلوا إلا بالفاتحة . ومع قوله : (لا صلاة إلا بأَمِّ القرآن) ^(٣) . و(إن كل صلاة لم يقرأ فيها

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٤] . (٢) [٢٢ / الحج / ٧٧] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٩٥ - باب وجوب القراءة للإمام

والمأموم في الصلوات كلها ، حديث رقم ٤٦٠ (عن عبادة بن الصامت) .

وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ (طبعنا) .

بأَمَّ القرآنَ فهى خداج . فهى خداج . (١). ويقولون : هذا يفيد الوجوب دون
الفرضية . أو هذا خبرٌ واحدٌ فلا يقيد به مطلق القرآن . ومعلوم أن القرآن مطلق في الوقت
المشترك أعظم من هذا ، وليس معهم عن النبي ﷺ ما يوجب فعل كل واحدة من الأربع
في الوقت الخاص إلا فعله المتواتر ، وقوله الذى هو من أخبار الآحاد . مع مافيه من الإجمال ،
كقوله (٢) لما بين المواقيت الخمسة (الوقت ما بين هذين) وقوله (٣) (ما بين هذين وقت)
دلالتيه على وجوب الصلاة في هذا الوقت دون دلالة قوله : (لا صلاة إلا بأَمَّ الكتاب)
وقوله (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأَمَّ الكتاب فهى خداج) وكذلك قوله (٤) ﷺ في
الحديث الصحيح (سيكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها . فصلوا الصلاة لوقتها .
ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة) ولهذا احتج أحمد على وجوب فعلها في الوقت عند الرفاهية
بقوله ﷺ (فصلوا الصلاة لوقتها) وهو الوقت الذى بينه لهم . والأمراء لم يكونوا يؤخرون
صلاة النهار إلى الليل ، ولا صلاة الليل إلى النهار . وإنما كانوا يؤخرون الظهر إلى وقت
العصر والعصر إلى آخر النهار . ودل هذا على أن من فعل هذا لم يقاتل . لأنهم سألوه عن
الأمراء ، أنقأتلهم ؟ قال : (لا . ما صلوا) وهذه كانت صلاتهم . ودل على أن هذه الصلاة
لا تجوز بحال ، وتفويت يوم الخندق منسوخ . وأما الجمع بينهما في الوقت المشترك فهو
ثابت بالسنة في مواضع متعددة . وبعضها مما أجمع عليه المسلمون ، والآثار المشهورة عن
الصحابة تبين أن الوقت المشترك وقت في حال العذر . كقول عمر بن الخطاب (الجمع بين

(١) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٤٠ و ٤١ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٨ (طبعتنا) .

عن أبي موسى . (٣) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٧

(طبعتنا) عن بُرَيْدة . (٤) أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ،

حديث رقم ٢٣٩ (طبعتنا) عن أبي ذر .

الصلاتين ، من غير عذر ، من الكبائر) فدل على أن الجمع بينهما للعذر جائز . وقال عبدالرحمن ابن عوف وابن عباس وأبو هريرة (فيمن طهرت في آخر النهار) : إنها تصلى الظهر والعصر . (وفيمن طهرت في آخر الليل) : إنها تصلى المغرب والعشاء . وهو قول الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد ، وأما التفويت فلا يجوز بحال . فمن جوز التفويت في بعض الصور ، فقله ضعيف ، وإن جوز الجمع . وأما من أوجب التفويت ومنع الجمع ، فقد جمع في قوله بين أصليين ضعيفين : بين إبادة ما حرمة الله ورسوله ، وتحريمه ما شرعه الله ورسوله . فإنه قد ثبت أن الجمع خير من التفويت . فهذا الأصل ينظم كثيراً من المواقيت . وتفتويت العصر إلى حين الاصفرار ، وتفتويت العشاء إلى النصف الثاني أيضاً ، لا يجوز إلا لضرورة ، والجمع بين الصلاتين خير من الصلاة في هذا الوقت ، بل الصلاة بالتييم قبل دخول وقت الضرورة خير من الصلاة بالوضوء في وقت الضرورة . وقد نص على ذلك الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره . وقالوا : لا يجوز تأخيرها إلى الاصفرار . بل إذا لم يجد الماء إلا فيه ، فإنه يصلى بالتييم قبل الاصفرار ، ولا يصلحها حين الاصفرار بالوضوء . انتهى كلامه عليه الرحمة .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » أمر له بصلاة الليل ، إثر أمره بالصلوات الخمس . وفي « مِنْ » وجهان : أحدهما أنها متعلقة بـ (تهجد) أى تهجد بالقرآن بعض الليل . والثاني أنها متعلقة بمحذوف عطف عليه (فتهجد) . أى قم من الليل أى في بعضه فتهجد بالقرآن . والتهجد ترك الهجود وهو النوم ، (تفعل) يأتى للسلب كـ (تأثم وتخرج) ، بمعنى ترك الإثم والحرج . قال الأزهري : المعروف في كلام العرب أن الهاجد النائم . وأما التهجد فهو القائم إلى الصلاة من النوم . وكأنه قيل له (متهدج) لإلقائه الهجود عن نفسه . كما يقال للعابد (متحنث) لإلقائه الحنث عن نفسه . انتهى .

ونقل عن ابن فارس . أن معناه صلّ ليلاً . وكذا عن ابن الأعرابي قال : هجد الرجل وتهجد ، إذا صلى بالليل . والمعروف الأول . والضمير في (به) للقرآن من حيث هو ، لا بقيد إضافته إلى الفجر ، أو للبعض المفهوم من (من) والباء بمعنى (في) أي تهجد في ذلك البعض . وقوله تعالى (نَافِلَةً لَّكَ) أي عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس .

قال الزمخشري : وضع (نافلة) موضع (تهجد) لأن التهجد عبادة زائدة . فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد . والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة ، فريضة عليك خاصة دون غيرك . لأنه تطوع لهم . انتهى .

قال أبو السعود : ولعله هو الوجه في تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر ، مع تقدم وقتها على وقتها .

وقوله تعالى : « عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » أي يحمد القائم فيه وكل من رآه وعرفه . وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع السكرامات . والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى ، للفصل بين الخلائق الذي يحمد فيه الأولون والآخرون . كما وردت به الأخبار الصحيحة^(١) . ومعنى النظم الكريم على هذا : كما انبعثت من النوم الذي هو الموت الأصفر ، بالصلاة والعبادة ، فسيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر ، مقامًا محمودًا ، عندك وعند جميع الناس . وفيه تهوين لمشقة قيام الليل . أشار له أبو السعود .

تنبيه :

قال ابن جرير^(٢) ذهب آخرون إلى أن ذلك المقام المحمود ، الذي وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبعثه إياه ، هو أن يجلسه معه على عرشه ، رواه ليث عن مجاهد . وقد شنع الواحدى على القائل به ، مع أنه رواه عن ابن مسعود أيضاً وعبارته - على ما نقلها الرازى -

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٧ - سورة الإسراء ، حديث رقم

٧٨٧ ، عن ابن عمر .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وهذا قول رذل موحش فظيع ، ونص الكتاب ينادى بفساد هذا التفسير ويدل عليه وجوه :
الأول أن البعث ضد الإجلال ، يقال : بعثت النازل والقاعد فانبعث . ويقال : بعث الله الميت ، أى أقامه من قبره . فتفسير البعث بالإجلال تفسير للضد بالضد وهو فاسد .
الثانى أنه تعالى قال (مَقَامًا مَّحْمُودًا) ولم يقل مقعداً . والمقام موضع القيام لا موضع القعود .

الثالث لو كان تعالى جالساً على العرش ، بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام ، لكان محدوداً متناهياً . ومن كان كذلك فهو محدث .

الرابع يقال : إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز ، لأن هؤلاء الجهال والحقى يقولون (فى كل أهل الجنة) : إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التى كانوا عليها فى الدنيا ، وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين ، لم يكن لتخصيص محمد ﷺ بها مزيد شرف ورتبة .

الخامس أنه إذا قيل : السلطان بعث فلانا ، فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم . ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه . فثبت أن هذا القول كلام رذل سقط ، لا يميل إليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين . انتهى كلام الواحدى .

وليته اطلع على ما كتبه ابن جرير^(١) حتى يمسك من جراحه ويبصر الأدب مع السلف مع الخارج العلمية لهم . وهاك ما قاله ابن جرير رحمه الله (بعد ما نقل عن مجاهد قوله المتقدم) : وأولى القولين بالصواب ، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه مقام الشفاعة - ثم قال - وهذا وإن كان هو الصحيح فى القول ، فى تأويل المقام المحمود ، لما ذكرنا من الرواية عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين . فإن ما قاله مجاهد من أن الله يقعد محمد صلى الله عليه وسلم على عرشه ، قول غير مدفوع صحتة . لامن جهة خبر ولا نظر . وذلك لأنه لا خبر

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الخامس عشر من تفسير الطبرى (طبعة الجلبى الثانية).

عن رسول الله ﷺ ، ولاعن أحد من أصحابه ، ولاعن التابعين ، بإحالة ذلك . فأما من جهة النظر فإن جميع من ينتحل الإسلام إنما اختلفوا في معنى ذلك على أوجه ثلاثة : فقالت فرقة منهم : الله عز وجل وجل بائن من خلقه ، كان قبل خلقه الأشياء ، ثم خلق الأشياء فلم يماسها ، وهو كما لم يزل ، غير أن الأشياء التي خلقها ، إذا لم يكن هو لها مماساً ، وجب أن يكون لها مباينا . إذ لا فعمال للأشياء إلا وهو مماس للأجسام أو مباين لها ، قالوا : فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله عز وجل فاعل الأشياء ، ولم يجز في قولهم أنه يوصف بأنه مماس للأشياء ، وجب بزعمهم أنه لها مباين - فعلى مذهب هؤلاء سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على الأرض ، (إذا كان من قولهم إن بينوته من عرشه وبينوته من أرضه بمعنى واحد ، في أنه بائن منهما كليهما ، غير مماس لواحد منهما) وقالت فرقة أخرى : كان الله تعالى ذكره قبل خلقه الأشياء ، لا شيء يماسه ولا شيء يباينه ، ثم خلق الأشياء فأقامها بقدرته وهو كما لم يزل قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسه ولا شيء يباينه . فعلى قول هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على أرضه (إذا كان سواء على قولهم . عرشه وأرضه ، في أنه لا مماس ولا مباين لهذا ، كما أنه لا مماس ولا مباين لهذه) .

وقالت فرقة أخرى : كان الله عز ذكره قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسه ولا شيء يباينه . ثم أحدث الأشياء وخلقها ، فخلق لنفسه عرشاً استوى عليه جالساً وصار له مماساً ، كما أنه قد كان قبل خلقه الأشياء لا شيء يرزقه رزقاً ولا شيء يحرمه ذلك . ثم خلق الأشياء فرزق هذا وحرم هذا وأعطى هذا ومنع هذا . قالوا : فكذلك كان قبل خلقه الأشياء ، لا شيء يماسه ولا يباينه . وخلق الأشياء فاسّ العرش بجلوسه عليه دون سائر خلقه . فهو مماسٌ ماشاء من خلقه ومباين ماشاء منه : فعلى مذهب هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو أقعده على منبر من نور ، إذا كان من قولهم : أن جلوس الرب على عرشه ليس بجلوس يشغل جميع العرش ، ولا في إقعاد محمد ﷺ موجباً له صفة الربوبية ، ولا مخرجه من صفة العبودية لربه . كما أن مباينة محمد ﷺ ما كان

مباينا له من الأشياء ، غير موجبة له صفة الربوبية ولا مخرجته من صفة العبودية لربه . من أجل أنه موصوف بأنه مباين له ، كما أن الله عز وجل موصوف - على قول قائل هذه المقالة - بأنه مباين لها . هو مباين له . قالوا : فإذا كان معنى (مباين ومباين) لا يوجب لمحمد ﷺ الخروج من صفة العبودية ، والدخول في معنى الربوبية ، فكذلك لا يوجب له ذلك قعوده على عرش الرحمن . فقد تبين إذا بما قلنا أنه غير محال في قول أحد ممن ينتحل الإسلام ما قاله مجاهد ، من أن الله تبارك وتعالى يقعد محمداً على عرشه ، فإن قال قائل : فإننا لا ننكر إقعاد الله محمداً على عرشه ، وإنما ننكر إقعاده معه « حدثني » عباس بن عبد العظيم قال : حدثنا يحيى ابن كثير عن الجريري ، عن سيف السدوسي عن عبد الله بن سلام قال ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، على كرسى الرب ، بين يدي الرب تبارك وتعالى . وإنما ينكر إقعاده إياه معه قيل : أجاز عندك أن يُقعد عليه لأمعه ؟ فإن أجاز ذلك صار إلى الإقرار بأنه إما معه أو إلى أنه يقعد ، والله للعرش مباين ، أو لا مماساً ولا مباين ، وبأى ذلك قال ، كان منه دخولاً في بعض ما كان ينكره . وإن قال : ذلك غير جائز منه ، خروجاً من قول جميع الفرق التي حكينا قولهم ، وذلك فراق لقول جميع من ينتحل الإسلام : إذ كان لا قول في ذلك إلا الأقوال الثلاثة التي حكيناها . وغير محال في قول منها ما قال مجاهد في ذلك . انتهى كلام ابن جرير رحمه الله .

وأقول : لك أن تجيب أيضاً عن إرادات الواحدى الخمسة ، التي أفسد بها قول مجاهد . أما جواب إirاده الأول ، فإن مجاهداً لم يفسر مادة البعث وحدها بالإجلال . وإنما فسر بعثه المقام المحمود بما ذكر .

وعن الثانى : بأن المقام هو المنزلة والقدرة والرفعة ، معروف ذلك في اللغة . وعن الثالث : بدفع اللازم المذكور ، لأنه كما اتفق على أن له ذاتاً لا تماثلها الذوات ، فكذلك كل ما يوصف به مما ورد في الكتاب والآثار ، فإنه لا يماثل الصفات . ولا يجوز قياس الخالق على المخلوق .

وعن الرابع : بأنه مكابرة . إذ كل أحد يعرف - في الشاهد - لو أن ملكاً استدعى جماعة للحضور لديه ، ورفع أفضالهم على عرشه ، أن الرفوع ذو مقام يفوق به الكل .
وعن الخامس : بأنه من واد آخر غير ما نحن فيه ، إذ لا بحث لإصلاح المهمات في الآخرة ، وإنما معنى الآية : إنه يرفعك مقاماً محموداً . وذلك يصدق على ما قاله مجاهد . وما قاله الأكثر . فتأمل وأنصف . وقد أنشد الحافظ الذهبي في كتابه (المعلو لله العظيم) للإمام الدارقطني في ترجمته ، قوله :

حديث الشفاعة في أحمدٍ إلى أحمد المصطفى نُسِنْدُهُ
وأما حديثٌ بإقعاده على العرش أيضاً فلانْجَحْدُهُ
أمرُوا الحديثَ على وجههِ ولا تُدْخِلُوا فيه ما يُفْسِدُهُ

وقال الذهبي في كتابه المنزه به ، في ترجمة (محمد بن مصعب) العابد شيخ بغداد ما مثاله :
وقال المروزي : سمعت أبا عبد الله الخفاف . سمعت ابن مصعب وتلا (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) قال : نعم يقعده على العرش - ذكر الإمام أحمدُ محمد بن مصعب فقال : قد كتبت عنه . وأيّ رجل هو ! قال الذهبي : فأما قضية قعود نبينا على العرش ، فلم يثبت في ذلك نص ، بل في الباب حديث وإم . وما فسر به مجاهد الآية ، كما ذكرناه ، فقد أنكره بعض أهل الكلام . فقام المروزي وقعد بالغ في الانتصار لذلك وجمع فيه كتاباً وطُرُقَ قول مجاهد ، من رواية ليث بن أبي سليم ، وعطاء بن السائب ، وأبي يحيى القتات وجابر ابن يزيد . وممن أفنى في ذلك العصر ، بأن هذا الأثر يُسَلَّم ولا يعارض ، أبو داود السجستاني صاحب السنن وإبراهيم الحاربي وخاق . بحيث إن ابن الإمام أحمد قال عقيب قول مجاهد : أنا منكرٌ على كل من رد هذا الحديث . وهو عندي رجل سوء متهم . سمعته من جماعة . وما رأيت محدثاً ينكره . وعندنا إنما تنكره الجهمية . وقد حدثنا هرون بن معروف . ثنا محمد بن فضيل عن ليث ، عن مجاهد في قوله (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)

قال : يقعده على العرش . فحدثت به أبي رحمه الله فقال لم يُقَدَّرْ لي أن أسمع من ابن فضيل :
بحيث إن المروزيّ روى حكايةً بنزولٍ عن إبراهيم بن عرفة . وسمعت ابن عمير يقول : سمعت أحمد
ابن حنبل يقول : هذا قد تلقته العلماء بالقبول . وقال المروزيّ : قال أبو داود السجستانيّ : ثنا
ابن أبي صفوان الثقفيّ . ثنا يحيى بن أبي كثير . ثنا سلم بن جعفر ، وكان ثقة ، ثنا الجريريّ .
ثنا سيف السدوسيّ عن عبد الله بن سلام ، قال : إذا كان يوم القيامة جئ بنبيّكم ﷺ حتى
يجلس بين يدي الله عزّ وجلّ على كرسيه . . الحديث . وقد رواه ابن جرير في تفسيره .
(أعني قول مجاهد) . وكذلك أخرجه النقاش في تفسيره . وكذلك رد شيخ الشافعية
ابن سريج على من أنكره . بحيث إن الإمام أبا بكر الخلال قال في كتاب (السنة) من
جمعه : أخبرني الحسن بن صالح العطار . عن محمد بن عليّ السراج ، قال : رأيت النبيّ ﷺ
في النوم فقلت : إن فلاناً الترمذيّ يقول : إن الله لا يقعدك معه على العرش ، ونحن نقول :
بل يقعدك . فأقبل عليّ شبه الغضب وهو يقول : بلي ، والله ! بلي ، والله ! يقعدني على العرش .
فانتبهت . بحيث إن الفقيه أبا بكر أحمد بن سليمان النجاد المحدث قال (فيما نقله عنه القاضي
أبو يعلى الفراء) : لو أن حالماً حلف بالطلاق ثلاثاً ؛ إن الله يقعد محمداً ﷺ على العرش ،
واستفتاني ، لقلت له : صدقت وبررت .

قال الذهبيّ : فأبصر ، حفظك الله من الهوى ، كيف آل العلوّ بهذا المحدث إلى وجوب
الأخذ بأثر منكر . واليوم يردّون الأحاديث الصريحة في العلوّ . بل يحاول بعض الطغاة أن
يرد . قوله تعالى ^(١) (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّىْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا)

[٨١] (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبٰطِلُ ، إِنَّ الْبٰطِلَ كَانَ زَهُوْقًا)

« وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ » أى مدخلاً حسناً مرضياً بلا آفة « وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ » أى مُخْرَجاً حسناً مرضياً من غير آفة الميل إلى النفس ، ولا الضلال بعد الهدى . « وَاجْعَلْ لِّىْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا » أى عزاً ناصراً للإسلام على الكفر ، مظهرآ له عليه .

وقد رأى المهايى ارتباط الآية بما قبلها فى معناها حيث قال : (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ) أى فى هذه العبادات فإنها لا توصلك إلى المقام المحمود ، إلا إذا صدق دخولك فيها وخروجك عنها . ولا يتم إلا بإمداد الله بعد استمدادك منه . وقولك (رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ) أى بمشاهدتك فى هذه العبادات ، وتحلىتى عن الرياء والعجب ، وتصفىتى بإخلاص العمل ، وإخلاص طلب الأجر ، ورؤية المنة لله ، ورؤية التقصير فيها . (وَأَخْرِجْنِيْ) عنها (مُخْرَجَ صِدْقٍ) فلا تستعملنى فيما يحبطها علىّ ، ولا تردنى على نفسى . وإذا غلبنى الشيطان أو النفس أو الخلق ، أو وردت علىّ شبهة ، فاجعل لى من لدنك ، لا من عند فكبرى ، (سُلْطٰنًا) أى حجة (نَّصِيْرًا) ينصرنى على ما ذكر . ليقبلى عبادتى فيوصلنى إلى المقام المحمود . انتهى .

واللفظ الكريم محتمل لذلك . ويظهر لنا أنه إشارة للهجرة كما ستراه .

« وَقُلْ » أى استبشاراً بقرب الظفر والنصر ، وترهيباً للمشركين « جَاءَ الْحَقُّ » وهو الوعد بالسلطان النصير والإسلام ودولته « وَزَهَقَ الْبٰطِلُ » أى ذهب وهلك . وهو الشرك وجوانته « إِنَّ الْبٰطِلَ كَانَ زَهُوْقًا » أى مضمحلًا غير ثابت فى كل وقت .

تنبيه :

سياق هذه الآيات ، مع سباقها أعنى قوله تعالى (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ) يدل على أن نزولها في أوقات الاهتمام للهجرة إلى المدينة ، ومبارحة مكة ، وأنه تعالى أمر نبيه بأن يتنهل إليه في تيسير إدخاله لمهاجرة على ما يرضيه ، وإخراجه من بلده كذلك . وأن يجعل له حماية من لدنه ، تعزّ جانبه وتعصمه ممن يرومه بسوء .

وأسلوب التنزيل العزيز في مثل هذا الدعاء ، هو إرادة الخبر بحصول المدعو ، ومشية الله بوقوعه عن قرب . ولذلك عقبه بقوله (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) إعلاماً بأن الأمر تم ، والفرج جاء ، ودحر الباطل ورجع إلى أصله ، وهو العدم .

روى الحافظ أبو يعلى عن جابر رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة . وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، تعبد من دون الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها . وقال (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) ورواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ، بنحوه .

قال في (الإكليل) فيه استحباب تلاوة هذه الآية عند إزالة المنكر .

ثم بين تعالى خسار المشركين ، بإعراضهم عما يشفي أمراضهم المعنوية ، وهو القرآن الكريم ، ونجاح المؤمنين بالاستشفاء بهداه ورحمته ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)

« وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » أى ونزل عليك من القرآن ما يستشفى به من الجهل والضلالة . ورحمة ببيان الحقائق وإقامة البراهين للمؤمنين به ، دون الكافرين . لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله

وشرائعهم . فيدخلهم الجنة وينجيهم من العذاب . فهو لهم رحمة ونعمة . ولا يزيد الظالمين ، بكفرهم وشركهم ، إلا خساراً . أى إهلاكاً . لأنهم كلما جاءهم أمر من الله أو نهى ، كفروا به ، فزادهم خساراً إلى ما كانوا فيه قبل ، ورجساً إلى رجسهم .

قال الشهاب : (الشفاء) استعارة تصريحية أو تخيلية . بتشبيه الكفر بالمرض . و (من) بيانية . قدمت على المبين وهو (ما) اعتناء .

تنبيه :

ذهب بعضهم إلى أن القرآن مما يستشفى به من الأمراض الحسية لهذه الآية . بحمل قوله (شفاءً) على معنيين من باب عموم المجاز . أو حمل المشترك على معنييه ، ومن قرر ذلك الرازى . وعبارته : اعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية . وشفاء أيضاً من الأمراض الجسدية . أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر . وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة . والأخلاق المذمومة . أما الاعتقادات الباطلة ، فأشدها فساد الاعتقادات في الإلهيات والنبؤات والمعاد والقضاء والقدر . والقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب ، وإبطال المذاهب الباطلة فيها . لا جرم كان شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني . وأما الأخلاق المذمومة ، فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفسد ، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة ، والأعمال الحمودة . فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض . فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية . وأما كونه شفاء من الأمراض الجسدية ، فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض . ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطب بأن لقراءة الرقي المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء ، آثاراً عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفسد - فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم ، المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه ، وتعظيم الملائكة المقربين ، وتحقير المردة والشياطين ، سبباً لحصول النفع في الدين والدنيا - كان أولى . ويتأكد ما

ذكرنا بمحدث^(١) (من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى) : وأما كونه رحمة للمؤمنين ، فاعلم أننا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة . والقرآن ، منه ما يفيد الخلاص من شبهات الضالين وتمويهات الباطلين ، وهو الشفاء . ومنه ما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالمة والأخلاق الفاضلة ، التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين ، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين ، وهو الرحمة . ولما كانت إزالة المرض مقدمة على السعى في تكميل موجبات الصحة ، لاجرم بدأ الله تعالى ، في هذه الآية ، بذكر الشفاء ، ثم أتبعه بذكر الرحمة . انتهى .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في بحث الأدوية والأغذية المفردة ، التي جاءت على لسانه ﷺ ، في حرف القاف : (قرآن) : قال الله تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . والصحيح أن (من) ههنا لبيان الجنس ، لا للتبميز . وقال تعالى^(٢) : يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ) فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية . وأدواء الدنيا والآخرة . وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به . وإذا أحسن العليل التداوى به ، ووضع على دأئه ، بصدق وإيمان وقبول تام ، واعتقاد جازم ، واستيفاء شروطه - لم يقاومه الداء أبداً . وكيف تقاوم الأدوية كلام رب الأرض والسما ، الذي لو أنزل على الجبال لصدعها ، أو على الأرض لقطعها . فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل للدلالة على دوائه وسببه والحمية منه ، لمن رزقه الله فهما في كتابه . فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله . ومن لم يكفه فلا كفاه الله .

ثم قال في (حرف الكاف) : ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه ، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه . ثم ذكر ما كان يكتبه شيخ الإسلام ابن تيمية للرعاف . فانظره .

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) [١٠ / يونس / ٥٧] .

وذكر ، قبلُ ، في فاتحة الكتاب ، من سرّ كونها شفاءً ، حقائق بديعة . وكذا في بحث الرق . وذكر أيضا أن من الأدوية التي تشفى من الأمراض ، ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء ، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم ، من الأدوية القلبية والروحانية ، وقوة القلب واعتماده على الله والتوكل عليه والالتجاء إليه . والانطراح والانكسار بين يديه ، والتذلل له والصدقة والصلاة والدعاء والتوبة والاستغفار ، والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب . فإن هذه الأدوية قد جربت بها الأمم على اختلاف أديانها ومللها . فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لم يصل إليه علم أعلم الأطباء ، ولا تجربته ولا قياسه . وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أمورًا كثيرة . ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية . وهذا جارٍ على قانون الحكمة الإلهية ، ليس خارجاً عنها . ولكن الأسباب متنوّعة . فإن القلب متى اتصل برب العالمين ، وخالق الداء والدواء ، ومدبّر الطبيعة ومصرفها على ما يشاء ، كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعاينها القلب البعيد منه ، المعرض عنه . وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة ، تعاوَنًا على دفع الداء وقهره . فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه ، وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به وحبّها له وتغممها بذكره ، وانصراف قواها كلها إليه ، وجمعها عليه ، واستعانتها به ، وتوكلها عليه - أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية ، ويوجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية . ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس وأعظمهم حجاباً وأكثفهم نفساً ، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية . وقد أسهب ، عليه الرحمة ، أيضا في كتاب (إغاثة اللفهان) في بيان تضمن القرآن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه ، بما تنبغى مراجعته ، ليزداد المريد علماً .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذْ آتَيْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَاضَ وَثَنًا بِحَاثِلِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا)

« وَإِذْ آتَيْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَاضَ وَثَنًا بِحَاثِلِهِ » وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا »
إشارة إلى السبب في وقوع هؤلاء الضالين في أودية الضلال . وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى ، وكفران نعمه تعالى . بالإعراض عن شكرها ، والجزع واليأس من الفرج عند مس شرٍ قضى عليه . وكل ذلك مما ينافي عقد الإيمان . فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة ، ويشاهد قدرة الله تعالى في كلتا الحالتين . ويتيقن في الحالة الأولى ؛ أن الشكر رباط النعم . وفي الثانية ؛ أن الصبر دفاع النقم . فيشكر ويصبر . ويعلم أن النعم يقدر ، فلم يعرض عند النعمة بطراً وأثراً . ولم يغفل عن النعم ولم يجزع عند النعمة جزعاً وضجراً .

فالآية وصف للجنس باعتبار بعض أفرادهم ممن هو على هذه الصفة . كقوله تعالى (١) :
(وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْسٌ كَفُورٌ * وَإِذْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

قال الزمخشري : (وَثَنًا بِحَاثِلِهِ) تأكيد للإعراض . لأن الإعراض عن الشيء أن يؤكده عرض وجهه . والنأي بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره . أو أراد الاستكبار ، لأن ذلك من عادة المستكبرين .

وقوله تعالى :

(١) [١١ / هود / ٩ - ١١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا)

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ۖ » أى على مذهبه وطريقته وخليقته وملكوته الغالبة

عليه ، الحاصلة له من استعداد حقيقته ، التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة . من قولهم

(طريق ذو شواكل) وهى الطرق التى تنتشعب منه لتشاكلها . أى تشابهها فى الشكل .

فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشاكل حاله . والدليل عليه قوله تعالى « فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ

هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا » أى أسدّ مذهباً وطريقة ، من العاملين : عامل الخير بمقتضى سجيته

القلب الفاضلة ، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس ، فيجازيهما بحسب أعمالهما .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۚ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ

مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۚ » قال القاشانى : أى الذى يحيا به بدن الإنسان ويدبره

« قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » أى ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهرين البدينين ،

الذين لا يتجاوز إدراكهم الحس والمحسوس ، بالتشبيه ببعض ما شعروا به ، والتوصيف .

بل من عالم الأمر ، أى الإبداع الذى هو عالم الذوات المجردة عن الهيولى ، والجواهر المقدسة

عن الشكل واللون والجهة والأين . فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالسكون ، لقصور

إدراككم وعلمكم عنه « وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » هو علم المحسوسات . وذلك

شئ نزر حقيق بالنسبة إلى علم الله تعالى والراسخين فى العلم - هذا ما قاله القاشانى - وحاصل

الجواب عليه : أن الروح موجود محدث بأمره تعالى بلا مادة ، وتولد من أصل كأعضاء الجسد ،

حتى يمكن تعريفه ببعض مبادئه ، بل هو من عالم الأمر لا من عالم الخلق . فيكون الاختصار في الجواب على قوله : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) كما اقتصر موسى في جواب قول فرعون (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)^(١) على قوله^(٢) (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) إعلماً بأن إدراكه بالكُنْهُ على ما هو عليه ، لا يعلمه إلا الله تعالى . وأنه شيء بمفارقة يموت الإنسان . وبملازمته له يبقى . كما أوماً إليه قوله تعالى : (وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أى علماً قليلاً تستفيدونه من طرق الحواس . وهو هذا القدر الإجمالي .

قال الشهاب : والسؤال - على هذا - عن حقيقتها . والجواب إجمالي بأنها من المبدعات من غير مادة . ولذا قيل : إنه من الأسلوب الحكيم . كما في قوله^(٣) : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ) إشارة إلى أن حقيقتها لا تعلم ، وإنما يعلم منها هذا المقدار . فالمراد بـ (الأمر) على هذا التفسير (قول كن) ولذا قالوا لمثله : عالم الأمر . انتهى .

قال أبو السعود عليه الرحمة : وليس هذا من قبيل قوله سبحانه^(٤) : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ) فإن ذلك عبارة عن سرعة التكوين . سواء كان الكائن من عالم الأمر أو من عالم الخلق . بل إنه من الإبداعات السائلة بمحض الأمر التكويني من غير تحصيل من مادة . وحكي ، عليه الرحمة ، قولاً آخر وهو : أن الأمر بمعنى الشأن . قال : والإضافة للاختصاص العلمي لا الإيجادي ، لاشتراك الكل فيه . وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى . كما في الإضافة الثانية من تشريف المضاف إليه . أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر . وعليه ، فـ (من) بيانية أو تبعيضية . ويكون نهياً لهم عن السؤال عنها ، وتركها للبيان . وهذا رأى كثيرين . أمسكوا عن الخوض فيها ، وقالوا : إنها شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع أحداً

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٤] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٨٩] . (٤) [٣٦ / يس / ٨٢] .

من خلقه . فلا يجوز البحث عنها بأكثر من أنها شيء موجود ، بل غلا بعضهم وقال : إن الإفاضة في بحث الروح بدعة في الدين . إذ لم يبينه الله لرسوله بأكثر مما في الآية . فلاشتغال بالتفتيش عنه غلوٌ فيما لم يرد به قرآن ولم يقم عليه برهان ، وما كان كذلك فهو عناد .

وأجاب الخائضون في بحثها ؛ بأن الآية لا يدل معناها على ما ذكر دلالة قطعية ، ولا دلالة فيها على المنع من الخوض فيها ، ولا على أنه ﷺ لم يكن يعلمها . وغاية الأمر أنه أمر بترك الجواب عنها تفصيلاً . إما لأن الإمساك عن ذلك كان عند اليهود السائلين عنها ، من دلائل نبوته ﷺ ، ولأن سؤالهم كان تعنتاً . فإنها تطلق على معان : منها الراحة وبرد النسيم . وعلى جبريل والقرآن وعيسى عليه السلام والحياة والقلب والرحمة وغير ذلك . فأضربوا على أنه إذا أجب بأحد هذه الأمور ، قالوا : لم زده ، وإنما أردنا كذا .

ثم الأقاويل فيهما من الحكماء والعلماء الأقدمين مختلفة . ولا يتم الجواب في محل الخلاف . فأتى بالجواب مجملًا على وجه يصدق على كلٍّ من ذلك مرموزاً ، ليعلمه العلماء بالله . واقتضت المصاححة العامة منع الكلام فيه لغيرهم . لأن الأفهام لا تحتمله . خصوصاً على طريقة الحكماء . إذ من غلب على طبعه الجود لا يقبله ولا يصدق به في صفة الباري . فكيف يصدق به في حق الروح الإنساني . بل قال بعض المدققين : إن في الآية الجواب ببيان حقيقتها ، وأنها من إبداعاته السكائنة بتكوينه ، من غير سبق مادة - وهو ما ذكرناه أولاً - وفي الجواب بذلك ما فيه الكفاية لدوى البصائر والدراية . ومقنع لمن كان له في النزاع ، إذا فصل ، مطمع . وقد استحسّن بعضهم هذا الجواب وقال مذيلاً له : فيكون قوله (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) على أن السؤال عن حقيقتها - مطابقاً - إلا أنه إجمالي . أي من الممكنات التي يمكن الوقوف على حقائقها ، وإن كان بإعمال روية وإيقاظ فكر كباقي عالم الأمر . وعلى أن السؤال عن قدمها وحدوثها كذلك . إلا أنه تفصيلي . وأياً ما كان ، فلم يترك

بيانها . ولو كانت مما لاسبيل إلى معرفته ل قيل : (قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي) كما قيل في الساعة ، أو نحو ذلك . بل لو لم يكن السبيل لمعرفة ، ولو بوجه ما ، متيسراً لكثير من الناس ، لم يكن لأمره بالتفكير فيها . والتبصر في أمرها ، للاستدلال بها عليه ، والتوصل بواسطة معرفتها إليه ، الذي هو الغاية القصوى والثمره العظمى - من فائدة . بل كان عبثاً . فدل قوله تعالى (٢) (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ) وقوله (٣) (وَفِي أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ونحو ذلك ، أنها أمر تدركه العقول ، وبه يكون إليه تعالى الوصول .

ثم إن الذين خاضوا في البحث عنها ، أثرت عنهم أقوال شتى . وقد أفردت لذلك تاليف قديمة وحديثة ، والذي يهمننا معرفته ما عول عليه الأئمة المدققون ، الذين تقبوا عن أقوال المتقدمين ، ونقدوها بحك الكتاب والسنة ، فنبذوا ما يخالفهما وتمسكوا بما يوافقهما .

فمنهم الإمام ابن حزم . قال رحمه الله في كتابه (الملل والنحل) بعد سرد مذاهب شتى :
وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقررة بالمعاد ، إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان . عاقلة مميزة مصروفة للجسد . قال : وبهذا نقول . والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ، ومعناها واحد . ثم قال : وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسماً ، فقولٌ يبطل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة . فأما القرآن ، فإن الله عز وجل قال (٣) (هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مِّمَّا أَسْلَفَتْ) وقال تعالى (٤) (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ) وقال تعالى (٥) (كُلُّ أُمْرِيٍّ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) فصح أن النفس هي الفاعلة الكاسبة المجزية المخطئة . وقال تعالى (٦) (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) وقال تعالى (٧) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) . وقال تعالى (٨) (وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ

(١) [٣٠ / الروم / ٨] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٢١] .

(٣) [١٠ / يونس / ٣٠] . (٤) [٤٠ / غافر / ١٧] .

(٥) [٥٢ / الطور / ٢١] . (٦) [١٢ / يوسف / ٥٣] .

(٧) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٨) [٢ / البقرة / ١٥٤] .

فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) وقال تعالى (١) (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَاءِ الْمَاءِ الْمُبَارَكِ مِنَ فَضْلِهِ) فصح أن الأنفس ، منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة ، فيعذب . ومنها ما يرزق وينعم فرحاً ، ويكون مسروراً قبل يوم القيامة . ولا شك أن أجساد آل فرعون وأجساد المقتولين في سبيل الله ، قد تقطعت أوصالها وأكلها السباع والطيور وحيوان الماء . فصح أن الأنفس منقولة من مكان إلى مكان . ولا شك في أن العراض لا يلقى العذاب ولا يحس ، فليست عرّضاً . وصح أنها تنقل في الأماكن قائمة بنفسها ، وهذه صفة الجسم لصفة الجوهر عند القائل به ، فصح ، ضرورة ، أنها جسم .

وأما من السنن فقول رسول الله ﷺ (٢) (إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة) وقوله ﷺ (٣) ، إنه (رأى نَسَمَ بنى آدم عند سماء الدنيا عن يمين آدم ويساره) فصح أن الأنفس مرئية في أماكنها ، وقوله عليه السلام (٤) (إن نفس المؤمن إذا قبضت ، عرج بها إلى السماء وفعل بها كذا . ونفس الكافر إذا قبضت فعل بها كذا) فصح أنها معذبة ومنعمة ومنقولة في الأماكن ، وهذه صفة الأجسام ضرورة .

وأما من الإجماع ، فلا اختلاف بين أحد من أهل الإسلام في أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها من الأجساد ، إلى نعيم أو إلى صنوف ضيق وعذاب . وهذه صفة الأجسام . ثم قال : ومعنى قول الله تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٩ و ١٧٠] . (٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ،

حديث رقم ١٢١ (طبعنا) عن عبد الله بن مسعود . (٣) انظر حديث الإسراء الذي

أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ١ - باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء ،

حديث ٢٣٥ (عن أبي ذر) . (٤) أخرجه ابن ماجه في : ٣٧ - كتاب الزهد ،

٣١ - باب ذكر الموت والاستعداد له ، حديث ٤٢٦٢ ، عن أبي هريرة (طبعنا) .

إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم عظماً ثم لحماً ثم أمشاجاً . وليس الروح كذلك . وإنما قال الله تعالى آمراً له بالكون (كن فكان) . فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد ، وقد يقع الروح أيضاً على غير هذا . فجبريل عليه السلام الروح الأمين . والقرآن روح من عند الله .

وقال ابن حزم أيضاً ، قبل ذلك ، في بحث عذاب القبر : والذي نقول به في مستقر الأرواح ، هو ما قاله الله تعالى ونبيه ﷺ لا نتمدها . فهو البرهان الواضح وهو أن الله تعالى قال (١) : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) وقال تعالى (٢) (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا) فصح أن الله عز وجل خلق الأرواح جملة ، وهى الأنفس . وكذلك أخبر عليه السلام (٣) (إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) - وهى العاقلة ، الحساسة - وأخذ عز وجل عهداً وشهادتها - وهى مخلوقة مصورة عاقلة ، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم ، على جميعهم السلام . وقبل أن يدخلها فى الأجساد . والأجساد يومئذ تراب وماء . ثم أقرها تعالى حيث شاء . لأن الله تعالى ذكر ذلك بلفظة (ثم) التى توجب التعقيب والمهلة . ثم أقرها عز وجل حيث شاء . وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت . لاتزال يبعث منها الجملة ، بعد الجملة . فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنى ، المنحدر من أصلاب الرجال وأرحام النساء . كما قال تعالى (٤) : (أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمنى * ثُمَّ

(١) [٧ / الأعراف / ١٧٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ١١] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٢ - باب الأرواح جنود مجندة ، حديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة . وأخرجه مسلم فى : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ ، عن أبى هريرة (طبعتنا) . (٤) [٧٥ / القيامة / ٣٧ و ٣٨] .

كَانَ عَاقِبَةُ فَخْلَقٍ فَسَوَى) وقال عز وجل^(١): (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا) الآية وكذلك أخبر رسول الله ﷺ^(٢) : أنه (يجمع خلق ابن آدم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح) فيبلوهم الله عز وجل في الدنيا كما شاء . ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذي رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسرى به عند سماء الدنيا : أرواح أهل السعادة عن يمين آدم عليه الصلاة والسلام ، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره عليه السلام . وذلك عند منقطع العناصر، وتعجل أرواح الأنبياء عليهم السلام وأرواح الشهداء إلى الجنة .

وقد ذكر محمد بن نصر المروزي عن إسحق بن راهويه ؛ أنه ذكر هذا القول الذي قلنا بعينه ، وقال : على هذا أجمع أهل العلم .

ثم قال ابن حزم : ولا تزال الأرواح هنالك ، حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها في أجسادها ثم يرجوعها إلى البرزخ المذكور . فتقوم الساعة . ويعيد عز وجل الأرواح ثانية إلى الأجساد . وهي الحياة الثانية . ويحاسب الخلق : فريق في الجنة وفريق في السعير ، مخلدين أبداً . انتهى .

فصل :

ومنهم شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ، عليه الرحمة ، قال في : (تفسير سورة الإخلاص) بعد أن ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة في الملائكة . هل هي متحيزة أم لا ؟ وكذلك نزاعهم في روح الإنسان التي تفارقه بالموت ، على قول الجمهور الذين يقولون : هي عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها . ولا جزءاً من أجزاء

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٢ - ١٤] . (٢) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب

بدء الخلق ، ٦ - باب ذكر الملائكة ، حديث ٩٥١٤ ، عن عبد الله بن مسعود .

البدن كالهواء الخارج منه . فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن ، أو جزء من أجزاء البدن . لكن هذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف . ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم . ومخالف للأدلة ، وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام .

قال القاضي أبو بكر : أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض . وبهذا نقول ، إذا لم يعن بالروح النفس ، فإنه قال : الروح الكائن في الجسد ضربان : أحدهما الحياة القائمة به والآخر النفس . والنفس ريح ينبث به . والمراد بالنفس ، ما يخرج بنفس النفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسام . وهذا قول الإسفرائيني وغيره . وقال ابن فورك : هو ما يجري في تجاويف الأعضاء . وأبو المعالي خالف هؤلاء وأحسن في مخالفتهم فقال : إن الروح أجسام لطيفة مشابهة للأجسام المحسوسة . أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابهتها لها . فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة . ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة ، وأن الروح عين قائمة بنفسها . تفارق البدن وتنعم ، وتعذب . ليست هي البدن ، ولا جزءاً من أجزائه كالنفس المذكور .

ثم الذين قالوا : إنها عين ، تنازعوا : هل هي جسم متحيز ؟ على قولين : كتنازعهم في الملائكة . فالتكلمون منهم يقولون : جسم . والمتفلسفة يقولون : جوهر عقلي ليس بجسم . وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات ، هو مأخوذ من نفس الإنسان . فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت ، وتجرد عنه ، سموها مفارقة مجردة . ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها . مفارقات ومجردات . لفارقتها المادة التي هي عندهم الجسم . وهذه المفارقات عندهم ما لا يكون جسماً ولا قائماً بجسم . لكن النفس متعلقة بالجسم تعاقب التبدل . والعقل لا تعلق له بالأجسام أصلاً . ولا ريب أن جماهير العقلاء على إثبات الفرق بين البدن والروح التي تفارق .

والجمهور يسمون ذلك روحاً وهذا جسماً - لكن لفظ الجسم في اللغة ليس هو الجسم في اصطلاح المتكلمين . بل الجسم هو الجسد . وهو الجسم الغليظ ، أو غِلْظُهُ . والروح ليست مثل البدن في الغلظ والكثافة ولذلك لا تسمى جسماً . فمن جعل الملائكة والأرواح جسماً بالمعنى اللغوي ، فما أصاب في ذلك . وأما أهل الاصطلاح من المتكلمة والمتفلسفة ، فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك . وهو ما أمكنت الإشارة الحسية إليه . وما قيل إنه هنا وهناك . وما قيل الأبعاد الثلاثة ونحو ذلك .

ثم قال عليه الرحمة : وما يقوله هؤلاء المتفلسفة في النفس الناطقة ، من أنها لا يشار إليها ولا توصف بحركة ولا سكون ، ولا صعود ولا نزول ، وليس داخل العالم ولا خارجه - هو كلام باطل عند جماهير العقلاء . ولا سيما من يقول منهم ، كابن سينا وأمثاله : إنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية . وإنما تعرف الأمور الكلية . فإن هذا مكابرة ظاهرة . فإنها تعرف بدنها وتعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتحبه وتكرهه ، إلى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها وعملها . فكيف يقال : إنها لا تعرف الأمور المعينة وإنما تعرف أموراً كلية ! ؟ وكذلك قولهم : إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصريف كتدبير الملك لمملكته - من أفسد الكلام . فإن الملك يدبر أمر مملكته ، فيأمر وينهى . ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته ، إن لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم .

والملك لا يلتذ بلذة أحدهم ولا يتألم بتألمه ، وليس كذلك الروح والبدن . بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به . ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلاً لدخول شيء من الأجسام المشهودة . فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات في الأوعية . فإن هذه إنما تلاقى السطح الداخل في الأوعية لا بطونها ولا ظهورها . وإنما يلاقى الأوعية منها أطرافها دون أوساطها . وليس كذلك الروح والبدن . بل الروح

متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره . وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب في بدن الآكل . فإن ذلك له مجار معروفة ، وهو مستحيل إلى غير ذلك من صفاته . ولا جريانها في البدن كجريان الدم . فإن الدم يكون في بعض البدن دون بعض . ففي الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شيء منه متعلقاً بالآخر . بخلاف الروح والبدن . لكن هي مع هذا في البدن قد ولجت فيه . وتخرج منه وقت الموت . وتسلك منه شيئاً فشيئاً . فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً . لاتفارقه كما يفارق الملك مدينته التي يدبرها . والناس لما لم يشهدوا لها نظيراً ، عسر عليهم التعبير عن حقيقتها . وهذا تنبيه لهم على رب العالمين ، حيث لم يعرفوا حقيقته ، ولاتصوروا كيف هو سبحانه وتعالى . وإن ما يضاف إليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله . فإن الروح ، التي هي بعض عبيده ، توصف بأنها تخرج إذا نام الإنسان . وتسجد تحت العرش . وهي مع هذا في بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية . والإنسان ، في نومه ، يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر في بدنه . فهذا الصعود الذي توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات . فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالكلية . وحركتها إلى العلو حركة انتقال من مكان . وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك . انتهى .

فصل :

وكتب بعض المنقبين عن مباحث المدققين العصريين في الروح ما مثاله : إن نظرية الروحانيين التي يستدلون عليها في أوروبا بالحس في هذه الأيام ، هي أن للإنسان روحاً هبطت عليه من الملائكة الأعلى . لا يصل العقل إلى إدراك كنهها . وإنها متصلة بهذا الجسد الطيني ، بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماماً . ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوماً بقوانينه . وإنه كغلاف للسر الإلهي المسمى روحاً . ولعل في هذا ما يشبه قول الإمام مالك ابن أنس رضي الله عنه عن الروح (هي صورة كالجسد) ويقولون : إن الروح وغلافها هذا

يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص، إلى عالم غير هذا العلم. ولكنهما لا ينفصلان عنه كل الانفصال، بل أرواح الموتي منتشرة حولنا في كل جهة. ولكننا لانراها بأعيننا، لعدم استعداد أعيننا لذلك. كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة (رونجن) مع أنها موجود كما تدل عليه الآلة التي صنعها لها. وقد دخلت تطبيقاتها في علم الطب وأفادت العلم الطبيعى فائدة كبرى. ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص. به يرون الأرواح راحة غادية، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، رؤية حقيقية. انتهى. ملخصاً.

تبييه :

جميع ما قدمناه، بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان.

قال ابن القيم في كتاب (الروح) : وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف. وأكثر السلف، بل كلهم، على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بنى آدم. بل هو الروح الذى أخبر الله عنه في كتابه، أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملك عظيم. وقد ثبت في الصحيح^(١) عن عبد الله قال : بينا أنا أمشي مع رسول الله ﷺ في حرّة المدينة، وهو متكئ على عسيب، فررنا على نقر من اليهود. فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح؟ وقال بعضهم : لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه. وقال بعضهم : نسأله. فقام رجل فقال : يا أبا القاسم ! ما الروح؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ. فعلمت أنه يوحى إليه، ففقت. فلما تجلّى عنه قال : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...) الآية، ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى. وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس. وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب. وقد تسكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم. فلم يكن الجواب

(١) أخرجه البخارى في : ٣ - كتاب العلم، ٤٧ - باب قول الله تعالى : وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا. حديث رقم ١٠٦.

عنها من أعلام النبوة . فإن قيل : فقد روى أبو الشيخ عن السديّ عن أبي مالك ، عن ابن عباس قال : بعثت قريش عقبة بن أبي معيط وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة ، يسألونهم عن النبي ﷺ . فقالوا لهم : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبيّ . وليس على ديننا . ولا على دينكم . قالوا : فمن تبعه ؟ قالوا : سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لاخير فيه . وأما أشراف قومه فلم يتبعوه . فقالوا : إنه قد أطلّ زمانُ نبيّ يخرج ، وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل ، فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال فأمركم بهن . فإن أخبركم بهن فهو نبيّ صادق . وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب . سلوه عن الروح التي نفخ الله تعالى في آدم . فإن قال لكم : هي من الله ، فقولوا : كيف يعذب الله في النار شيئاً هو منه . ؟ فسأل جبريل عنها فأ نزل الله الآية . يقول : هو خلق من خلق الله ليس هو من الله .

قيل : مثل هذا الإسناد لا يحتج به . فإنه من تفسير السديّ عن أبي مالك . وفيه أشياء منكورة . وسياق هذه القصة في السؤال ، من الصحاح والمسانيد ، كلها تخالف سياق السديّ . وقد رواها الأعمش والمغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : مر النبي ﷺ على ملا من اليهود . وأنا أمشي معه . فسألوه عن الروح ، قال فسكت . فظننت أنه يوحى إليه . فنزلت (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) يعني اليهود (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ..) الآية . وكذلك هي في قراءة عبد الله . فقالوا كذلك نجد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل . رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة . وروى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أتت اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عن الروح . فلم يجبهم النبي ﷺ بشيء . فأ نزل الله عز وجل الآية . فهذا يدل على ضعف حديث السديّ ، وأن السؤال كان بمكة . فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود . ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة ، لم يسكت

النبي ﷺ ، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزل الله عليه . وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب . فإما أن تكون من قبل الرواة ، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها . ثم ساق ابن القيم الروايات عنه مسندة ، ثم قال : والروح في القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحي ، كقوله تعالى ^(١) : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وقوله ^(٢) (يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ ٱلَّهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ) وسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

الثاني : القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين ، كما قال ^(٣) : (أُوَلِّيكُم مَّا تَشَاءُونَ) وقوله تعالى ^(٤) : (نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ * عَلَىٰ قَلْبِكَ) وقال

تعالى ^(٥) : (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ) وهو روح القدس ، قال تعالى ^(٦) : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ) .

الرابع : الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله . وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى ^(٧) : (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ) وإنها الروح المذكورة في قوله ^(٨) : (نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) .

الخامس : المسيح عيسى ابن مريم . قال تعالى ^(٩) : (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] . (٢) [٤٠ / غافر / ١٥] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣ ، ١٩٤] .

(٥) [٢ / البقرة / ٩٧] . (٦) [١٦ / النحل / ١٠٢] .

(٧) [٧٨ / النبأ / ٣٨] . (٨) [٩٧ / القدر / ٤] .

(٩) [٤ / النساء / ١٧١] .

رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وَأَلْقَمَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) أما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها بالقرآن إلا بالنفس ، قال تعالى ^(١) (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) وقال ^(٢) (وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) وقال ^(٣) : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) وقال ^(٤) : (أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ) وقال ^(٥) : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ وقال ^(٦) : (كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ) .

وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح . انتهى .

قال ابن كثير : رواية عبد الله في الصحيح المتقدمة ، تقتضي فيما يظهر بيادى الرأى ، أن هذه الآية مدنية . وأنها إنما أنزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة . مع أن السورة كلها مكية . وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية . كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك . أو إنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إزالتها عليه ، وهى هذه الآية (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) انتهى .

وقد روى ابن جرير ^(٧) عن قتادة : أن الروح فى الآية هو جبريل عليه السلام . وحكاه عن ابن عباس .

أقول : الذى أراه متعيناً فى الآية ، لسابقتها ولاحقها ، أن المراد بالروح الوحي بالقرآن ، وهو قريب من قول قتادة . ووجه تعينه أن هذه الآية فى سياق ذكر القرآن وتنزيله والمنة بكونه شفاء ورحمة ، وقد سمي تعالى الوحي بالقرآن روحاً : قال تعالى ^(٨) (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

(١) [٨٩ / الفجر / ٢٧] . (٢) [٧٥ / القيامة / ٢] . (٣) [١٢ / يوسف / ٥٣] .

(٤) [٦ / الأنعام / ٩٣] . (٥) [٩١ / الشمس / ٧ و ٨] . (٦) [٣ / آل عمران / ١٨٥] .

(٧) انظر الصفحة ١٥٦ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٨) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وقال^(١) تعالى : (يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِى عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) فكانوا إذا سمعوا الروح ، وصدعوا بالإيمان به ، يمتعقون في السؤال عنه ، استبعاداً لأن يكون من لدنه سبحانه ، ولأن يكون بشر مثله مبعوثاً بأمره تعالى أن يبين لهم أنه وحى أوحاه الله ، وأنه روح من لدنه ، وإلقاء من أمره . ونظير هذه الآية قوله تعالى^(٢) : (وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلٌّ إِيَّايَ وَرَبِّي) وقوله تعالى^(٣) : (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) أى بعضهم ينكره وبعضهم يتردد في صحته . وذلك لأنهم قوم جاهليون ، لا عهد لهم بالعلوم والمعارف ، فضلاً عن الوحي وخصائص النبوة ، للآمية والجهالة الفاشيتين فيهم . كما أشير إليه بقوله تعالى : (وَمَا أَوْتَيْتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أى مما تناله مشاعركم وتصل إليه فطنكم . وما هو في جنب معلومات لا تحصى ، إلا كالقطرة من البحر والذرة من الكتيب . والقاعدة أن القرآن متجاوب الأطراف ، يفسر بعضه بعضاً . وجميع ما ذكره المتقدمون ، غير ما ذكرناه ، جرى مع ما يحتمله نظم الآية السريمة . وكذا رواية ابن مسعود أنه أجيب بها اليهود ، لأنها لما كان لها وجوه من المعانى ، ومنها ما سألوا عنه ، ألقوا بها . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم أشار تعالى إلى نعمته فيما أوحاه من هذا التنزيل والهداية به ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكِيلًا)

« وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى من القرآن الذى هو شفاء ورحمة

للمؤمنين : وإنما عبر عنه بالموصول ، تفخيلاً لشأنه ، ووصفاً له بما هو فى حيز الصلة ، وإعلاماً بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق « ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكِيلًا » أى من يتوكل علينا برده .

(١) [٤٠ / غافر / ١٥] . (٢) [١٠ / يونس / ٥٣] . (٣) [٧٨ / النبأ / ١ - ٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا)

« إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن رحمة من ربك تركته غير مُشَاء الذهاب به بل تولت حفظه .

قال الزمخشري : وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظًا ، بعد المنّة العظيمة في تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين المنّتين والقيام بشكرها . وهما منّة الله عليه بحفظه العلم ورسوخه في صدره ، ومنّته عليه في بقاء المحفوظ « إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا » أى تفضله بالإحياء والتعليم الربانى ، والاصطفاء للرسالة ، ثم أمره تعالى أن يخاطب أولئك المشركين الذين لم يفقهوا قدر التنزيل ، وأنه وحى ربانى ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

« قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ » أى اتفقت « عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » أى معينًا . وفى تقاصر قوى هؤلاء جميعهم عن ذلك ، مع طول الزمن ، دليل قاطع على أنه ليس مما اعتمد صدوره عن البشر ، بل هو كلام عالم الغيب والشهادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا » أى ردّدنا وكرّرنا وبيدّنا « لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ »

أى من كل معنى ، هو كالمثل فى غرابته وحسنه ، ليتقرر ويرسخ فى نفوسهم ، ويزدادوا تدبراً وإذعاناً . فكان حالهم على العكس ، إذ لم يزدادوا إلا كفرًا ، كما قال سبحانه « فَأَتَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » أى جحوداً .

ولما تبين إعجاز القرآن ، وأنه الآية الكبرى ، ولزمتهم الحجة وغلّبوا ، أخذوا يتعمللون باقتراح الآيات ، فعلّ المبهوت المحجوج المتعثر فى أذيال الحيرة ، فيما حكاه تعالى عنهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا)

[٩١] (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا)

[٩٢] (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ

قَبِيلًا)

[٩٣] (أَوْ يَكُونَ لَكَ يَنْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ

لِرُفِيِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ

إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا)

« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » أى تشقق لنا من

أرض مكة عيونًا « أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ » أى بستان منهما « فَتُفَجِّرَ

الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا » وإنما قدموا فى عندهم هذا المقترح ، لأنهم كانوا يردّون بلاد

الشام والعراق ، ويرون ما فيها من البساتين والأنهار .

قال ابن جرير^(١) فيما رواه ، إنهم قالوا للنبي ﷺ : لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيّق منا بلاداً . ولا أقل مالاً . ولا أشد عيشاً منا . فاسأل لناربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا ولييسط لنا بلادنا . وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق . ثم زادوا في الاقتراح فقالوا : «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا» أى قطعاً بالعذاب «أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا» أى كقبيلة بما تقول ، شاهداً بصحته «أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُرْحٍ» أى ذهب : «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ» أى وحده «حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه» أى كتاباً من السماء ، فيه تصديقك «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي» أى تنزيها له . والمراد به التعجب من اقتراحاتهم «هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» أى كسائر الرسل . وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات ، حسب ما يلائم حال قومهم . ولم يمكن أمر الآيات إليهم ، ولا لهم أن يتحكموا على الله بشيء منها .

تنبيه :

لا يخفى ما في اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله في خلقه ، وبحكمته وجلاله . وبيان ذلك - كما في كتاب (لسان الصدق) - أن ما قترحه قريش فيها (منه) ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد مما يخالف حكمة الله تعالى المقتضية لإخلاء بعض البقاع من العيون النابعة والأنهار الجارية والجنان الناضرة دون بعض . وإرساء الجبال الشم في موضع دون آخر ، لمصالح يعلمها هو جلت عظمتة . ولا يعلمها الخلق . فليس مقترحهم هذا من العجز في شيء . مع أن مثله لا تثبت به النبوة . فإننا نعلم أن أناسا قد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من الفخيل والأعقاب ونحتوا الجبال ولم يكونوا بذلك أنبياء (ومنه) ما يناقض إرادة الله سبحانه وهو قولهم : (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا) فإن إزال السماء

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ ، ١٦٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

قطعاً مقتضٍ لهلاك العالم بخذافيره . والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم (ومنه) ماهو مستحيل في نفسه غير ممكن وقوعه أصلاً وهو قولهم : (أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا) فإن الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدوا المشركون أو غيرهم مما لا يمكن أن يكون . فلا يجوز طلبه ، وليس من أنواع المعجز (ومنه) ما لا يصلح للأنبياء ، ولو حصل لم يكن معجزاً وهو قولهم : (أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ) فإن هذا غير صالح للأنبياء . وليس بمعجز ، لحصول مثله عند أشباه فرعون (ومنه) ما وعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل ، وأردفوه بما لا يجوز وهو قولهم : (أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرؤه) فيه - على ما ذكر في الرواية - من الله العظيم إلى فلان وفلان وفلان ، لقوم من قريش بأسمائهم . أما بعد . فإن محمداً رسولاً فآمنوا به . والصعود في السماء لا مزية فيه ، لأنهم قالوا : (وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ) فلو كان ، لكان عبثاً . وإنزال كتاب عليهم على المعنى المذكور يستلزم جعلهم أنبياء ، لأن ذلك وحى مثل التوراة والإنجيل . والوحى يختص بالأنبياء ، والكفار عنه معزولون . فلم يكن شيء مما اقترحوه في الآيات معجزاً . وإنما هي أمور مستحيلة في نفسها ، أو لأمر آخر . اقترحوها تكبراً وتعنّياً وجهلاً . على أنهم بعد تلك الأقوال كلها قال قائل منهم : وإيم الله ! لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك . وقد قال تعالى (١) : (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) فكان الأولى في جوابهم عما اقترحوه ، هو ما أجاب به ﷺ من قوله تعالى : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) أي تنزه ربي عن فعل ما اقترحموه من المحال وما يناقض حكمته . وما أنا إلا بشر رسول . على أن أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم . وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتي مما أوحاه إلي . وذلك ما تحديتكم بالإتيان

بسورة مثله في الهداية والإصلاح . كما أمرني ربى . ولا أقترح عليه ، سبحانه ، مالا يجوز أن يكون . أو ما يكون فعله عبثاً ، لخلوه عن الفائدة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)

«وَمَا مَنَعَ النَّاسَ» أى الذين حكى تعنتهم «أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» أى إلا تعجبهم من بعثة إنسان رسولاً . بمعنى إنكارهم أن يكون الرسول من جنس البشر . كما قال تعالى (١) : (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) والآيات في ذلك كثيرة . ثم نبه تعالى على لطفه ورحمته بعباده ، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه ، ويمكنهم مخاطبته ومكالمته . حتى لو كانت الأرض مستقراً للملائكة ، لكانت رسلهم منهم ، جريباً على قضية الحكمة .

فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا)

«قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ» أى على أقدامهم كما يمشى الإنسان «مُطْمَئِنِّينَ» أى ساكنين في الأرض قارين «لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا» أى من جنسهم ، ليعلمهم الخير ويهديهم المرشد . ولما كنتم أنتم بشراً ، بعثنا

(١) [١٠ / يونس / ٢] .

فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ . كَمَا قَالَ تَعَالَى ^(١) : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » .

تنبيه :

في الآية إشارة إلى حاجة من يستقر في الأرض إلى الرسالة . وقد قضت رحمة الباري تعالى وعنايته بذلك ، فمن على الخلق بالرسول وأتم حاجتهم بخاتم أنبيائه فأنتدبهم من الحيرة ، وخلصهم من التخبط ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا

بَصِيرًا)

« قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » أي على أني بلغت ما أرسلت به إليكم ، وإنكم كذبتهم وعاندتم . وقرر الرازي أن المعنى بالشهادة هو الشهادة على رسالته عليه الصلاة والسلام بإعجاز القرآن . أي كفى بما أكرمني به تعالى من هذا المعجز ، شاهداً على صدقي . ومن شهد تعالى على صدقه فهو صادق . فقولكم ، معشر المشركين ، بعد هذا ، يجب أن يكون الرسول مسلماً ، تحكم فاسد . اهـ .

وناقشه أبو السعود بأن ما قرره لا يساعده قوله تعالى (بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) وما بعده من التعليل . ثم قال أبو السعود . وإنما لم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة ، وإبانة للمباينة . وقوله تعالى : « إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » أي علماً بأحوالهم . فهو مجازيهم . وهذا تسليية لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة .

(١) [٢ / البقرة / ١٥١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، مَّاوِيَهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)

« وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ » أى إلى الحق بما جاء من قبله إلى الهدى « فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِلْ » أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، كهؤلاء الماندين « فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ » أى أنصاراً يهدونهم ويحفظونهم من قهره ، وإنما أوثر ضمير الجماعة فى (لَهُمْ) حملاً على معنى (مَنْ) وأوثر فى ما قبله الأفراد ، حملاً على اللفظ . وسر الاختلاف فى التقابليين الإشارة إلى وحدة طريق الحق ، وقلة سالكيه ، وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ » أى يسحبون عليها كقوله ^(١) (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ) .

وقال القاشانى : أى ناكسى الرؤوس لأبجذابهم إلى الجهة السفلية ! وعلى وجوداتهم وذواتهم التى كانوا عليها فى الدنيا . كقوله (كَمَا تَعِيشُونَ تَمُوتُونَ وَكَمَا تَمُوتُونَ تَبْعَثُونَ) إذ (الوجه) يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها . أى على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان . وقوله تعالى « عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا » أى كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ويتصامون عن استماعه - فهم فى الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا يسمعون ما يلد مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ^(٢) (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ) - كذا فى (الكشاف) « مَّاوِيَهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبَتْ » أى سكن لحيها ، بأن أكلت جلودهم ولحومهم « زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » أى توقدا . بأن نبذل جلودهم ولحومهم ، فتعود ملتبهة مستعرة .

(١) [٥٤ / القمر / ٤٨] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٧٢] .

قال الزمخشري : كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء ، جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفتتها . ثم يعيدها . لا زالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث . ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد . وقد دل على ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

« ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » أى لَمُحْيُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ، بإعادة الروح فينا ، إذا تلف لحنا وبقينا عظاماً . بل رقت عظامنا فصارت رفاتاً . ثم احتج تعالى عليهم ، ونبههم على قدرته على ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا)

« أَوَلَمْ يَرَوْا » أى يعلموا « أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » أى يوم القيامة . يُنْشِئُهُمْ نَشْأَةً أُخْرَى ويعيدهم كما بدأهم . والمعنى : قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس . لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهم . كما قال (١) : (ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ) ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء . بل هى أهون .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل (مثل) هنا كناية عنهم . كقوله : (مثلك لا يبخل) مع أنه صحيح . ولو جعل خلق مثلهم عبارة عن الإعادة ، كان أحسن « وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا »

(١) [٧٩ / النازعات / ٢٧] .

لَا رَيْبَ فِيهِ « أَى جَعَلَ لِعَادَتِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَجَلًا مَضْرُوبًا وَمُدَّةً مَقْدُورَةً لَا بَدَّ مِنْ انْتِصَائِهَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى ^(١) : (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ) ، « فَأَبَى الظَّالِمُونَ » أَى بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَوُضُوحِ الدَّلِيلِ : « إِلَّا كُفُورًا » أَى جِحُودًا وَتَمَادِيًا فِي بَاطِلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ .
لطيفة :

قال الشهاب : هذه الجملة - جملة وجعل الخ - معطوفة على جملة (أَوَلَمْ يَرَوْا) لأنها وإن كانت إنشائية ، فهي مؤولة ببحرية - كما في (شرح الكشاف) إذ معناها : قد علموا بدلالة العقل أنه قادر على البعث والإعادة (وَجَعَلَ لَهُمْ) أَى لِعَادَتِهِمْ (أَجَلًا) وهو يوم القيامة يعنى أنهم علموا إمكانها وإخبار الصادق بها وضربه لها أجلا . فيجب التصديق به . أو جعل لهم أجلا ، وهو الموت والانسلاخ عن الحياة . ولا يخفى على عاقل أنه لم يخلق عبثًا . فلا بد أن يجزى بما عمله في هذا الدار . فلا معنى للإنكار . فظهر ارتباط المتعاطفين ، لفظًا ومعنى و (لَا رَيْبَ فِيهِ) ظاهر على الثانى . وعلى الأول معناه : لا ينبغي إنكاره لمن تدبر . وقيل إنها معطوفة على قوله : (يَخْلُقُ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا)

« قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي » أَى رِزْقِهِ وَسَائِرُ نِعَمِهِ عَلَى خَلْقِهِ : « إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ » أَى لَبَخَلْتُمْ بِهَا خَافَةَ نَقَادَهَا بِالْإِنْفَاقِ . مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبدًا . لأن هذا من طباعكم وسجايكم . ولهذا قال سبحانه « وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا » أَى بخيلا .

(١) [١١ / هود / ١٠٤] .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية بلغت بالمشر كين ، من الوصف بالشح ، الغاية التي لا يبلغها الوهم ، كما قاله الزمخشري .

الثاني : ما اقتضاه آخر الآية من بخل كل أحد فأما بالنسبة إلى الجواد الحقيقي سبحانه ؛ لأن المرء إما ممسك أو منفق . والثاني لا يكون إلا لغرضٍ للعاقل ، إما دنيويٍّ كمعوض مالى ، أو معنويٍّ كثناء جميل ، أو خدمة واستمتاع ، كما فى النفقة على الأهل . وما كان لعوض مالى كان مبادلة لا مبادلة . أو هو بالنظر إلى الأغلب ، وتنزيل غيره منزلة العدم كما قيل :

عَدْنَا فى زماننا عن حَدِيثِ الْمَكَارِمِ
مَنْ كَفَى النَّاسَ شَرَّهُ فَهُوَ فى جُودِ حَاتِمِ

أفاده الشهاب .

وقال ابن كثير : إن الله تعالى يصف الإنسان من حيث هو . إلا من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلوع صفة له . كما قال تعالى ^(١) (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ) ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز .
الثالث : ذكر هذه الآية إثرَ ما قبلها ، لتقرير انفراد الله تعالى بملك خزائن الرحمة ، وسعة كرمه وجوده وإحسانه . كما انفراد بتلك القدرة الباهرة من خلق السموات والأرض ، كي تنجلي لهم قدرته العظمى ، وسعة خزائنه الملائى . فيصلوا بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه الرسول ﷺ ، وحقية ما يدعوه إلى .

وذكر هذ المعنى فى أسلوب بيان ما فطر عليه الإنسان ، تذكيراً له بنقصه وضعفه ، وإشفاقه وحرصه . ليعلم أنه غير مخلوق سدى ، يُخَلَّى بينه وبين ما تقتضاه به نفسه وهواه . والمعنى : أفلا تعتبرون بسعة رحمته وعميم فضله ، مما يبرهن على وحدانيته فى ألوهيته ،

(١) [٧٠ / المعارج / ١٩ - ٢٢] .

ولا ترون ما أنتم عليه من أنكم لو ملكتم مالا نفاد له من خزائنه، لضفتم بها . مما يدلكم على أنه هو مالك الملك ، وأنكم مُسَخَّرُونَ لأمره . وهذه الآية كقوله تعالى (١) (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا) أى لو أن لهم نصيبًا فى ملك الله ، لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير . وقد جاء فى الصحيحين (٢) : (يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيظُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِى يَمِينِهِ) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، فَسَئَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » واضحات الدلالة على صحة ما أرسله الله به . وقد مضى الكلام عليها فى سورة الأعراف فى قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ..) الآية ، « فَسَئَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى عنها : فإنهم يعلمونها ، مما لديهم من التوراة . فيظهر للمشركين صدقك ، ويزداد المؤمن بك طمأنينة قلب . لأن الأدلة إذا تظاهرت ، كان ذلك أقوى وأثبت « إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا » أى فذهب إلى فرعون وأظهر آياته ، ودعاه للإيمان به تعالى ولإرسال بنى إسرائيل معه . فقال له فرعون ما قال . وقوله (مَسْحُورًا) بمعنى سُحِرَتْ فحولت عقلك . أو بمعنى ساحر ، على النسب أو حقيقة . وهو يناسب قلب العصاة عباتاً . وعلى الأول هو كقوله (٣) (إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُم مَّجْنُونٌ) .

(١) [٤ / النساء / ٥٣] . (٢) أخرجه البخارى فى ٩٧ - كتاب التوحيد ،

١٩ - باب حدثنا معاذ بن فضالة حديث ٢٠١٢ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ٣٦ و ٣٧ (طبعتمنا) .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ٢٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآرٍ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا)

« قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ » أى يا فرعون « مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ » أى الآيات التسع « إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآرٍ » أى بَيِّنَاتٍ مَكشُوفَاتٍ لَا سِحْرَ وَلَا تَحِيلَ . وَلَكِنَّكَ مَعَانِدٌ مَكَابِرَ . وَنَحْوُهُ ^(١) (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (والبصائر) جمع بصيرة بمعنى مبصرة أى بَيِّنَة . أو المراد الحجج ، بجملها كأنها بصائر العقول . وتكون بمعنى عبرة « وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا » أى هالكا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا)
[١٠٤] (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)

« فَأَرَادَ » أى فرعون « أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ » أى يَفْزَعَهُمْ وَيَرْجِعَهُمْ بِمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى خُفَةِ الْهَرَبِ فَرَقًا مِنْهُ . أو يَنْفِيهِمْ عَنْ ظَهْرِ الْأَرْضِ بِالْقَتْلِ وَالِاسْتِئْصَالِ . وَالضَّمِيرُ لِمُوسَى وَقَوْمِهِ . وَ (الْأَرْضُ) أَرْضُ مِصْرَ . أو الْأَرْضُ الَّتِي أَمَرَ لَهُمُ بِالْمَسِيرِ إِلَيْهَا وَسَكْنَاهَا وَهِيَ فِلَسْطِينَ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى « فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا » أى خَاقَ بِهِ مَكْرَهُ . لِأَنَّهُ تَعَقَّبَهُمْ بِجُنُودِهِ بَعْدَ مَا أَمَرَ لَهُمُ بِالْمَسِيرِ مِنْ مِصْرَ إِلَى فِلَسْطِينَ ، لِيَرْجِعَهُمْ إِلَى عِبُودِيَّتِهِ ، فَدَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَجَنُودَهُ بِالْإِغْرَاقِ « وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ » وهى أَرْضُ كَنْعَانَ ، بِلَدِ أَبِيهِمْ إِسْرَءِيلَ الَّتِي وَعَدُوا بِهَا .

(١) [٢٧ / النمل / ١٤] .

قال ابن كثير : في هذا بشارة للنبي ﷺ بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبيل الهجرة . وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى ^(۱) (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) الآيتين . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة ، على أشهر القولين ، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلما وكرما . كما أورث الله القوم ، الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها وأورشليم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكفوزهم كما قال ^(۲) (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ) وقال ههنا (وَقُلْنَا مَنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ائْتِكُنُوا الْأَرْضَ) وقوله تعالى (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) أى قيام الساعة «جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا» أى جمعا مختلطين أنتم وعدوكم . ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقائكم . ثم نزه سبحانه ساحة القرآن أن يكون مفترى . وبين أشماله على ما يلائم الفطر وبطابق الواقع ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۱۰۵] (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

[۱۰۶] (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا)

«وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ» أى بالحقيقة أنزلناه كتاباً من لدنا فأين تذهبون؟ كما قال تعالى ^(۳)

(لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُو يَعْلَمُهُ وَأَلْمَلْنَاكَ يُشْهَدُونَ)

«وَبِالْحَقِّ نَزَلَ» أى متلبساً بالحق الذى هو ثبات نظام العالم على أكل الوجوه . وهو

ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ومحاسن الأخلاق وكل ماخالف الباطل . كقوله تعالى ^(۴)

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا

وَنَذِيرًا * وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ» أى نزلناه مفزقاً منجماً . وقرئ بالتشديد . والقراءتان

(۱) [۱۷ / الإسراء / ۷۶] . (۲) [۲۶ / الشعراء / ۵۹] .

(۳) [۴ / النساء / ۱۶۶] . (۴) [۴۱ / فصلت / ۴۲] .

بمعنى « لَتَقْرَأُوهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ » أى على مهل وتؤدة وتثبت ، فإنه أيسر للحفظ وأعون فى الفهم « وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » أى من لدنَّا على حسب الأحوال والمصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ءِذَا يُتْلَىٰ

إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا)

(سجدة)

[١٠٨] (وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا)

[١٠٩] (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)

« قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ءِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا » .

قال الزمخشري : أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وأن لا يكثر بهم ويباعنهم وبامتناعهم عنه . وإنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل ، وهم العلماء الذين قرأوا الكتب وعلموا ما لوى وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه . وثبت عندهم أنه النبىء العربى الموعود فى كتبهم . فإذا تلى عليهم خرّوا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ، ولإنجازه ما وعد فى الكتب المنزل ، وبشر به من بعثه محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه . وهو المراد بالوعد فى قوله (إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) .

فإن قلت (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) تعليل لماذا ؟ قلت : يجوز أن يكون تعليلاً لقله (ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا) ، وأن يكون تعليلاً لـ (قل) على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ وتطبيب نفسه . كأنه قيل : تسلّ عن إيمان الجاهلة بإيمان العلماء . وعلى الأول : إن لم تؤمنوا به

لقد آمن به من هو خير منكم . فإن قلت : ما معنى الخرور للذقن ؟ قلت : السقوط على الوجه . وإنما ذكر الذقن ، وهو مجتمع اللحيين ، لأن الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه ، الذقن . فإن قلت : حرف الاستعلاء ظاهر المعنى ، إذا قلت خرّاً على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام في (خرّاً لذقنه ولوجهه) قال : نخر صريعاً لليدين وللغم ؟ قلت : معناه جمل ذقنه ووجهه للخرور . واختصه به . لأن اللام للاختصاص . فإن قلت : لم كرر يخرون للأذقان ؟ قلت : لاختلاف الحالين ، وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين ، وخرورهم في حال كونهم باكين . انتهى .

تنبيه :

دل نعمت هؤلاء ومدحهم بخروهم باكين ، على استحباب البكاء والتخشع . فإن كل ما حمد فيه من النعوت والصفات التي وصف الله تعالى بها من أحبه من عباده ، يلزم الاتصاف بها . كما أن ما ذمّ منها من مَقْتُهُ منهم ، يجب اجتنابه .

وقد عدّ الإمام الغزالي في (الإحياء) من آداب ظاهر التلاوة البكاء . قال : البكاء مستحب مع القراءة . قال رسول الله ﷺ ^(١) (اتلوا القرآن وابكوا . فإن لم تبكوا فتبوا) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان ، فلا تمجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم ، فليبك قلبه . وإنما طريق تكاف البكاء أن يحضر قلبه الحزن . فمن الحزن ينشأ البكاء ، ووجه إحضار الحزن ، أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود . ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجه فيحزن لا محالة ويبكي . فإن لم يحضره حزن وبكاء ، كما يحضر أرباب القلوب الصافية ، فليبك على فقد الحزن والبكاء . فإن ذلك أعظم المصائب . انتهى .

وذكر السيوطي في (الإكليل) أن الشافعي استدلل بقوله تعالى (وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا) الآية ، على استحباب هذا الذكر في سجود التلاوة . وقوله تعالى :

(١) أخرجه ابن ماجه في : ٥ - كتاب الإقامة ، ١٧٦ - باب في حسن الصوت بالقرآن .

حديث ١٣٣٧ (طبعنا) عن سعد بن أبي وقاص .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ،

وَلَا تُجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)

[١١١] (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ

وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)

«قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» رَدُّ لِمَا أَنْكَرَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ تَسْمِيَةِ الرَّحْمَنِ ، وَإِذْنٌ

بِتَسْمِيَتِهِ بِذَلِكَ . أَيْ سَمَوْهُ بِهَذَا الْاسْمِ أَوْ بِهَذَا . وَ (أَوْ) لِلتَّخْيِيرِ . «أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَىٰ» أَيْ أَيْ هَذَيْنِ الْأَسْمَاءِ سَمِيَّتُمْ وَذَكَرْتُمْ فَهُوَ حَسَنٌ . وَقَدْ وَضَعَ مَوْضِعَهُ قَوْلُهُ (فَلَهُ

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) لِلْمُبَالَغَةِ وَالِدَلَالَةِ عَلَى مَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ . إِذْ حَسَنٌ جَمِيعُ أَسْمَائِهِ يَسْتَدْعَى

حَسَنَ ذِيكَ الْأَسْمَاءِ . فَأَقْبَمَ فِيهِ دَلِيلَ الْجَوَابِ مَقَامَهُ ، وَهُوَ أَبْلَغُ .

وَمَعْنَى كَوْنِهَا أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ ، أَنَّهَا مُسْتَقَلَّةٌ بِمَعْنَى الْحَمْدِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّعْظِيمِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ

كَأَيَّةٌ^(١) (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) « وَلَا تُجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ » أَيْ بِقِرَاءَةِ

صَلَاتِكُمْ . بِتَقْدِيرِ مِضَافٍ ، أَوْ تَسْمِيَةِ الْقِرَاءَةِ صَلَاةً ، لِكَوْنِهَا مِنْ أَمْرٍ أَرَادَهَا . كَمَا تَسْمَى

الصَّلَاةُ رُكْعَةً « وَلَا تَخَافُوهَا بِهَا » أَيْ تُسَرُّ وَتُخْفَى « وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » أَيْ بَيْنَ

الْجَهْرِ وَالْخَفَاتَةِ ، أَمْرًا وَسُطًى . فَإِنْ خَيْرَ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا .

قَالَ أَبُو السَّعُودِ : وَالتَّعْبِيرُ عَنْ ذَلِكَ بِالسَّبِيلِ ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ أَمْرٌ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الْمُتَوَجِّهُونَ ،

وَيُؤَمُّهُ الْمُتَقَدِّمُونَ ، وَيُوصِلُهُمْ إِلَى الْمَطْلُوبِ .

رَوَى الشَّيْخَانُ^(٢) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِقِرَاءَتِهِ . فَإِذَا سَمِعَهَا الْمُشْرِكُونَ

(١) [٧ / الْأَعْرَافُ / ١٨٠] . (٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي : ٦٥ - كِتَابِ التَّفْسِيرِ ،

١٧ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ، ١٤ - بَابِ وَلَا تُجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا ، حَدِيثٌ ٢٠٢٠ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي : ٤ - كِتَابِ الصَّلَاةِ ، حَدِيثٌ رَقْمُ ١٤٥ (طَبَعْنَا) .

لغوا وسبوا . فأمر بأن يتوسط في صوته ، كيلا يسمع المشركون ، وليبلغ من خلفه قراءته .
ثم بين سبحانه استحقاقه للحمد لاختصاصه بنفوت السكال وصفات الجلال ، بقوله
تعالى « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا » أى لَمْ يَكُنْ عِلَّةً لموجود من جنسه ،
لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه ، ممكناً بالذات ، معدوماً بالحقيقة . فكيف يكون من جنس
الموجود حقاً ، الواجب بذاته من جميع الوجوه ؟ « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَشْرِيكَ فِي الْمُلْكِ »
أى من يساويه في قوة القهر والملكمة من الشريك في الملك . وإلا لكانا مشتركين في وجوب
الوجود والحقيقة . فامتياز كل واحد منهما عن الآخر ، لابد وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبة .
فلزم تركبهما ، فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين . وأيضا فإن لم يستقلا بالتأثير ، لم يكن أحدهما
إلهياً . وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه ، فلا شريك له . وإن استقلا جميعاً ،
لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد ، إن فعلا معاً . وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر ،
رضى بفعله أو لم يرض . أفاده القاشانى .

« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِّ » أى ناصر من الدل ومانع له منه ، لاعترازه به .
أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ، ليدفعها بموالاته « وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا » أى عظمه عن
أن يلحقه شيء من هذه النقائص تعظيماً جليلاً .

تم ما علقناه على هذه السورة الكريمة ، ضحوة السبت فى ٢٦ شوال سنة ١٣٢٣
فى سدة جامع السنانية بدمشق الشام . يسر الله لنا بعونه الإتمام ، والحمد لله وحده .

تم الجزء العاشر ، ويليهِ ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الحادى عشر ، وفيهِ تفسير :

(١٨ - سورة الكهف ، و ١٩ - سورة مريم ، و ٢٠ - سورة طه ،

و ٢١ - سورة الأنبياء) .

